إعجاز القرآن

تأليف
القاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني
المتوفى سنة ٤٠٣هـ

دار الكتب العلمية

بسم الله الرحمن الرحیم

إعجاز القرآن(الباقلانی)

کاتب:

ابو بکر محمد بن الطیب الباقلانی

نشرت فی الطباعة:

دارلکتب العلمیة

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

إعجاز القرآن(الباقلانى)

اشارة

نـام كتـاب: إعجاز القرآن(الباقلانى) نويسـنده: ابو بكر محمـد بن الطيب الباقلانى موضوع: اعجاز تاريـخ وفات مؤلف: ۴۰۳ ق زبان: عربى تعداد جلد: ۱ ناشر: دارالكتب العلمية مكان چاپ: بيروت سال چاپ: ۱۴۲۱ / ۲۰۰۱ نوبت چاپ: اوّل

ترجمة المؤلف

نسبه:

نسبه: هو: محمد بن الطيب أبو بكر الباقلانى رأس المتكلمين على مذهب الشافعى، و هو من أكثر الناس كلاما و تصنيفا فى الكلام.

شيوخه:

شيوخه: له شيوخ كثيرون منهم: أبو بكر الأبهرى، و أبو بكر القطيعى، و أبو محمد بن ماسى، و أبو عبد اللّه الشيرازى و آخرون.

مؤلفاته:

مؤلفـاته: له مؤلفـات عديـدة منهـا: إعجاز القرآن و هو هـذا الكتاب، و التبصـرة، و دقائق الحقائق، و التمهيـد فى أصول الفقه، و شـرح الإبانة، و غير ذلك.

وفاته:

وفاته: توفى سنة (۴۰۳ ه) رحمه اللّه، و رضى عنه.

انظر ترجمته فى:

انظر ترجمته فى: ۱- البداية و النهاية ۱۱/ ۳۵۰- ۳۵۱. ۲- وفيات الأعيان ۱/ ۴۸۱. كتبه أبو عبد الرحمن صـلاح بن محمد بن عويضة. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۵

[مقدمة]

[مقدمـة] بسم اللّه الرّحمن الرّحيم الحمـد للّه المنعم على عبـاده بمـا هـداهم إليه من الإيمـان، و المتمّم إحسـانه بمـا أقام لهم من جلىّ البرهان، الـذى حمد نفسه بما أنزل من القرآن، ليكون بشـيرا و نذيرا، و داعيا إلى اللّه بإذنه و سـراجا منيرا، و هاديا إلى ما ارتضـى لهم من دينه، و سلطانا أوضح تبيينه، و دليلا على وحدانيته، و مرشدا إلى معرفة عزته و جبروته، و مفصحا عن صفات جلاله، و علو شأنه، و عظيم سلطانه، و حجة لرسوله الذى أرسـله به، و علما على صدقه، و بينة على أنه أمينه على وحيه، و صادع بأمره. فما أشرفه من كتاب يتضـمن صـدق متحمّله، و رسالة تشـتمل على تصـحيح قول مؤدّيها، بيّن فيه سـبحانه أن حجّته كافية هادية. لا يحتاج مع وضوحها إلى بينة تعدوها، أو حجة تتلوها، و إن الذهاب عنها كالذهاب عن الضروريات، و الشك فى المشاهدات. و لذلك قال عز ذكره: وَ لَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ «۱». و قال عز و جل: وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ

فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ. لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ «۲». فله الشكر على جزيل إحسانه، و عظم منه، و الصلاة على سيدنا محمد المصطفى و آله و سلم. و من أهم ما يجب على أهل الدين كشفه، و أولى ما يلزم بحثه، ما كان لأصل دينهم قواما، و لقاعدة توحيدهم عمادا و نظاما، و على صدق نبيهم صلّى اللّه عليه و سلّم برهانا، و لمعجزته ثبتا و حجة، لا سيما و الجهل ممدود الرواق، شديد النفاق، مستول على الآفاق. و العلم إلى عفاء و دروس، و على خفاء و طموس، و أهله فى جفوة الزمن البهيم، يقاسون من عبوسه لقاء الأسد الشتيم، حتى صار ما يكابدونه قاطعا عن الواجب من سلوك مناهجه، و الأخذ فى سبله. فالناس بين رجلين: ذاهب عن الحق، ذاهل عن الرشد، و آخر مصدود عن نصرته،

(۱) آية (۷) سورة الأنعام. (۲) آية (۱۴، ۱۵) سورة الحجر.

مكدود فى صنعته. فقد أدى ذلك إلى خوض الملحدين فى أصول الدين، و تشكيكهم أهل الضعف فى كل يقين. و قد قل أنصاره، و اشتغل عنه أعوانه، و أسلمه أهله، فصار عرضة لمن شاء أن يتعرض فيه، حتى عاد مثل الأمر الأول على ما خاضوا فيه عند ظهور أمره، فمن قائل قال: إنه سحر. و قائل يقول: إنه شعر. و آخر يقول: إنه أساطير الأولين. و قالوا: لو نشاء لقلنا مثل هذا، إلى الوجوه التى حكى اللّه عز و جل عنهم أنهم قالوا فيه و تكلموا به، فصرفوه إليه. و ذكر لى عن بعض جهالهم أنه جعل يعدله ببعض الأشعار، و يوازن بينه و بين غيره من الكلام، و لا يرضى بذلك حتى يفضله عليه! و ليس هذا ببديع من ملحدة هذا العصر، و قد سبقهم إلى عظم ما يقولونه إخوانهم من ملحدة قريش و غيرهم. إلا أن أكثر من كان طعن فيه فى أول أمره، استبان رشده، و أبصر قصده، فتاب و أناب، و عرف من نفسه الحق بغريزة طبعه، و قوة إتقانه، لا لتصرف لسانه، بل لهداية ربه و حسن توفيقه. و الجهل فى هذا الوقت أغلب، و الملحدون فيه عن الرشد أبعد، و عن الواجب أذهب. و قد كان يجوز أن يقع ممن عمل الكتب النافعة فى معانى القرآن، و تكلم فى فوائده من أهل صنعة العربية و غيرهم من أهل صناعة الكلام، أن يبسطوا القول فى الإبانة عن وجه معجزته، و الدلالة على مكانه. فهو أحق بكثير مما صنفوا فيه من القول فى الخبر، و دقيق الكلام فى الأعراض، و كثير من بديع الإعراب، و غامض النحو. فالحاجة إلى هذا أمس، و الاشتغال به أوجب. و قد قصر بعضهم فى هذه المسألة، حتى أدى ذلك إلى تحول قوم منهم إلى مذاهب البراهمة فيها، و رأوا أن عجز أصحابهم عن نصرة هذه المعجزة يوجب أن لا يستنصر فيها، و لا وجه لها حين رأوهم قد برعوا فى لطيف ما أبدعوا، و انتهوا إلى الغاية فيما أحدثوا و وضعوا. ثم رأوا ما صنفوه فى هذا المعنى غير كامل فى بابه، و لا مستوفى فى وجهه، قد أخلّ بتهذيب طرقه، و أهمل ترتيب بيانه، و قد يعذر بعضهم فى تفريط يقع منه فيه، و ذهاب عنه، لأن هذا الباب مما يمكن إحكامه بعد التقدم فى أمور شريفة المحل، عظيمة المقدار، دقيقة المسلك، لطيفة المأخذ. و إذا انتهينا إلى تفصيل القول فيها، استبان ما قلناه من الحاجة إلى هذه المقدمات، حتى يمكن بعدها إحكام القول فى هذا الشأن. و قد صنف «الجاحظ» «۱» فى نظم القرآن كتابا، لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون

(۱) الجاحظ هو: أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى الليثى بالولاء. بلغ من الذكاء و جودة

قبله، و لم يكشف عما يلتبس فى أكثر هذا المعنى. و سألنا سائل أن نذكر جملة من القول جامعة، تسقط الشبهات، و تزيل الشكوك التى تعرض للجهّال، و تنتهى إلى ما يخطر لهم، و يعرض لأفهامهم من الطعن فى وجه المعجزة. فأجبناه إلى ذلك، متقربين إلى اللّه عز و جل، و متوكلين عليه و على حسن توفيقه و معونته. و نحن نبين ما سبق فيه البيان من غيرنا، و نشير إليه، و لا نبسط القول؛ لئلا يكون ما ألّفناه مكررا و مقولا، بل يكون مستفادا من جهة هذا الكتاب خاصة. و نضيف إليه ما يجب وصفه من القول فى تنزيل متصرّفات الخطاب، و ترتيب وجوه الكلام، و ما تختلف فيه طرق البلاغة، و تتفاوت من جهته سبل البراعة، و ما يشتبه له ظاهر الفصاحة، و يختلف فيه المختلفون من أهل صناعة العربية، و المعرفة بلسان العرب فى أصل الوضع. ثم ما اختلفت به مذاهب مستعمليه فى فنون ما ينقسم إليه الكلام، من شعر و رسائل، و خطب و غير ذلك من مجارى الخطاب. و إن كانت هذه الوجوه الثلاثة أصول ما يبين فيه التفاصح، و تقصد فيه البلاغة؛

لأن هذه أمور يتعمّل لها فى الأغلب، و لا يتجوز فيها. ثم من بعد هذا الكلام الدائر فى محاوراتهم، و التفاوت فيه أكثر، لأن التعمل فيه أقل. إلا من غزارة طبع، أو فطانة تصنّع، و تكلّف. و نشير إلى ما يجب فى كل واحد من هذه الطرق ليعرف عظم محل القرآن، و ليعلم ارتفاعه عن مواقع هذه الوجوه، و تجاوزه الحد الذى يصح أو يجوز أن يوازن بينه و بينها، أو يشتبه ذلك على متأمل. و لسنا نزعم أنه يمكننا أن نبين ما رمنا بيانه، و أردنا شرحه و تفصيله لمن كان عن معرفة الأدب ذاهبا، و عن وجه اللسان غافلا، لأن ذلك مما لا سبيل إليه إلا أن يكون الناظر فيما تعرض عليه مما قصدنا إليه من أهل صناعة العربية قد وقف على جمل من محاسن الكلام و متصرفاته، و مذاهبه، و عرف جملة من طرق المتكلمين، و نظر فى شىء من أصول الدين، و إنما ضمن اللّه عز و جل فيه البيان لمثل من وصفناه فقال: كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ «۱» و قال: إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ «۲». -____القريحة ما جعله من كبار أئمة الأدب. مات سنة (۲۵۵ ه) له ترجمة فى: وفيات الأعيان ۱/ ۳۸۸، و طبقات الأدباء (۲۵۴)، و تاريخ بغداد ۱۲/ ۲۱۴. (۱) آية (۳) سورة فصلت. (۲) آية (۳) سورة الزخرف. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۹

فصل: فى أن نبوة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم معجزتها القرآن

فصل: فى أن نبوة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم معجزتها القرآن الذى يوجب الاهتمام التامّ بمعرفة إعجاز القرآن، أن نبوة نبينا عليه السّلام بنيت على هذه المعجزة. و إن كان قد أيّد بعد ذلك بمعجزات كثيرة، إلا أن تلك المعجزات قامت فى أوقات خاصة، و أحوال خاصة، و على أشخاص خاصة، و نقل بعضها نقلا متواترا يقع به العلم وجودا. و بعضها مما نقل نقلا خاصا، إلا أنه حكى بمشهد من الجمع العظيم، أنهم شاهدوه. فلو كان الأمر على خلاف ما حكى، لأنكروه، أو لأنكره بعضهم، فحل محل المعنى الأول، و إن لم يتواتر أصل النقل فيه. و بعضها مما نقل من جهة الآحاد، و كان وقوعه بين يدى الآحاد. فأما دلالة القرآن فهى عن معجزة عامة عمّت الثّقلين، و بقيت بقاء العصرين، و لزوم الحجة بها فى أول وقت ورودها إلى يوم القيامة، على حدّ واحد، و إن كان قد يعلم بعجز أهل العصر الأول عن الإتيان بمثله، وجه دلالته، فيغنى ذلك عن نظر مجدّد فى عجز أهل هذا العصر عن الإتيان بمثله، و كذلك قد يغنى عجز أهل هذا العصر عن الإتيان بمثله، عن النظر فى حال أهل العصر الأول. و إنما ذكرنا هذا الفصل لما حكى عن بعضهم أنه زعم أنه و إن كان قد عجز عنه أهل العصر الأول، فليس أهل هذا العصر بعاجزين عنه. و يكفى عجز أهل العصر الأول فى الدلالة أنهم خصّوا بالتحدّى، دون غيرهم. و نحن نبين خطأ هذا القول فى موضعه. فأما الذى يبين ما ذكرناه من أن اللّه تعالى، حين ابتعثه، جعل معجزته القرآن و بنى أمر نبوته عليه سور كثيرة، و آيات نذكر بعضها، و ننبه بالمذكور على غيره. فليس يخفى بعد التنبيه على طريقه، فمن ذلك قوله تعالى: الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ «۱» فأخبر أنه أنزله ليقع الاهتداء به، و لا يكون كذلك و إلا و هو حجة، و لا تكون حجة إن لم تكن معجزة. و قال عز و جل: (____۱) آية (۱) سورة إبراهيم. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۰ وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ «۱» وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ «۲» و هذا بيّن جدا فيما قلناه من أنه جعله سببا لكونه منذرا. ثم أوضح ذلك بأن قال: بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ. فلولا أن كونه بهذا اللسان حجة، لم يعقب كلامه الأول به. و ما من سورة افتتحت بذكر الحروف المقطعة، إلا و قد أشبع فيها بيان ما قلناه. و نحن نذكر بعضها لتستدل بذلك على ما بعده، و كثير من هذه السور إذا تأملته فهو من أوله إلى آخره مبنى على لزوم حجة القرآن، و التنبيه على وجه معجزته. فمن ذلك سورة المؤمن قوله عز و جل: حم* تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ «۳» ثم وصف نفسه بما هو أهله من قوله: غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ «۴» إلى أن قال: ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا «۵» فدل على أن الجدال فى تنزيله كفر و إلحاد. ثم أخبر بما وقع من تكذيب الأمم برسلهم، بقوله عز و جل: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ

نُوحٍ وَ الْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ «۶» إلى آخر الآية. فتوعدهم بأنه آخذهم فى الدنيا بذنبهم فى تكذيب الأنبياء، ورد براهينهم، فقال: فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ «۷» ثم توعدهم بالنار فقال: وَ كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ «۸» ثم عظم شأن المؤمنين بهذه الحجة، بما أخبر من استغفار الملائكة لهم، و ما وعدهم عليه من المغفرة، فقال: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ «۹». فلولا أنه برهان قاهر، لم يذم الكفار على العدول عنه، و لم يحمد المؤمنين على المصير إليه. ثم ذكر تمام الآيات فى دعاء الملائكة للمؤمنين، ثم عطف على وعيد الكافرين، فذكر آيات، ثم قال: هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ «۱۰» فأمر بالنظر فى آياته و براهينه (______________________________، ۱) آية (۶) سورة التوبة. (۲) آية (۱۹۲، ۱۹۴) سورة الشعراء. (۳) آية (۱، ۲) سورة غافر. (۴) آية (۳) سورة غافر. (۵) آية (۴) سورة غافر. (۶) آية (۵) سورة غافر. (۷) الآية السابقة. (۸) آية (۶) سورة غافر. (۹) آية (۷) سورة غافر. (۱۰) آية (۱۳) سورة غافر. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۱ إلى أن قال: رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ «۱» فجعل القرآن و الوحى به كالروح، لأنه يؤدى إلى حياة الأبد، و لأنه لا فائدة للجسد بدون الروح. فجعل هذا الروح سببا للإنذار، و علما عليه، و طريقا إليه، و لو لا أن ذلك برهان بنفسه، لم يصح أن يقع به الإنذار و الإخبار عما يقع عند مخالفته، و لم يكن الخبر عن الواقع فى الآخرة عند ردّهم دلالته من الوعيد حجة، و لا معلوما صدقه، فكان لا يلزمهم قبوله. فلما خلص من الآيات فى ذكر الوعيد على ترك القبول، ضرب لهم المثل بمن خالف الآيات، و جحد الدلالات و المعجزات، فقال: أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، وَ ما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ «۲». ثم بين أن عاقبتهم صارت إلى السوأى، بأن رسلهم كانت تأتيهم بالبينات و كانوا لا يقبلونها منهم. فعلم أن ما قدم ذكره فى السورة بينه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. ثم ذكر قصة موسى و يوسف عليهما السلام، و مجيئهما بالبينات، و مخالفتهم حكمها، إلى أن قال: الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا، كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ «۳». فأخبر أن جدالهم فى هذه الآيات لا يقع بحجة، و إنما يقع عن جهل. و أن اللّه يطبع على قلوبهم، و يصرفهم عن تفهم وجه البرهان لجحودهم، و عنادهم، و استكبارهم. ثم ذكر كثيرا من الاحتجاج على التوحيد. ثم قال تعالى: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ «۴» ثم بين هذه الجملة، و أن من آياته الكتاب فقال: الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ وَ بِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ «۵» إلى أن قال: وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ «۶» فدل على أن الآيات على ضربين: أحدهما كالمعجزات التى هى أدلة فى دار التكليف، و الثانى الآيات التى ينقطع عندها العذر، و يقع عندها العلم الضرورى، و أنها إذا جاءت، ارتفع التكليف و وجب الإهلاك. إلى أن قال: فَلَمْ يَكُ (______________________________ ۱) آية (۱۵) سورة غافر. (۲) آية (۲۱) سورة غافر. (۳) آية (۳۵) سورة غافر. (۴) آية (۶۹) سورة غافر. (۵) آية (۷۰) سورة غافر. (۶) آية (۳۸) سورة الرعد. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۲ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا «۱» فأعلمنا أنه قادر على هذه الآيات، و لكنه إذا أقامها زال التكليف، و حقت العقوبة على الجاحدين. كذلك ذكر فى حم السجدة على هذا المنهاج الذى شرحناه، فقال عز و جل: حم. تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيراً وَ نَذِيراً «۲». فلولا أنه جعله برهانا، لم يكن بشيرا و لا نذيرا، و لم يختلف بأن يكون عربيا مفصلا، أو بخلاف ذلك. ثم أخبر عن جحودهم و قلة قبولهم بقوله جلّ ذكره: فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ «۳» و لو لا أنه حجة لم يضرّهم الإعراض عنه، و ليس لقائل أن يقول: قد يكون حجة و يحتاج فى كونه حجة إلى دلالة أخرى، كما أن الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم حجة. و لكنه يحتاج إلى دلالة على صدقه و صحة نبوته، و ذلك أنه إنما احتجّ عليهم بنفس هذا التنزيل. و لم يذكر حجة غيره. و يبين ذلك أنه قال عقيب هذا: قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ «۴» فأخبر أنه مثلهم لو لا الوحى، ثم عطف عليه بحمد المؤمنين به المصدقين له فقال: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ «۵» و معناه

الـذین آمنوا بهـذا الوحی و التنزیـل، و عرفوا هـذه الحجـة. ثم تصـرف فی هـذا الاحتجـاج علی الوحدانیـة، و القـدرة إلی أن قال: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ «۶»، فتوعدهم بما أصاب من قبلهم من المکذبین بآیات اللّه من قوم عاد و ثمود فی الـدنیا. ثم توعّدهم بأمر الآخرة فقال: وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ «۷»، إلی انتهـاء ما ذکره فیه. ثم رجع إلی ذکر القرآن، فقال: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ «۸». ثم أثنی بعـد ذلک علی من تلقاه بالقبول فقال: إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا (______________________________ ۱)

آیة (۸۵) سورة غافر. (۲) آیة (۱: ۴) سورة فصلت. (۳) آیة (۴) سورة فصلت. (۴) آیة (۶) سورة فصلت. (۵) آیة (۸) سورة فصلت. (۶) آیة (۱۳) سورة فصلت. (۷) آیة (۱۹) سورة فصلت. (۸) آیة (۲۶) سورة فصـلت إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۳ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا «۱» ثم قال جلّ ذکره: وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ «۲» و هذا ینبه علی أن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم یعرف إعجاز القرآن، و أنه دلالة له علی جهة الاستدلال لأن الضروریات لا یقع فیها نزغ الشیطان. و نحن نبین ما یتعلق بهذا الفصل فی موضعه ثم قال: إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا «۳» إلی أن قال: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ «۴» و هـذا و إن کان متأولا علی أنه لا یوجـد فیه غیر الحق، مما یتضـمنه من أقاصیص الأولین، و أخبار المرسلین، و کذلک لا یوجد خلاف فیما یتضمنه من الإخبار عن الغیوب، و عن الحوادث التی أنبأ أنها تقع فی الآتی، فلا یخرج عن أن یکون متأولا علی ما یقتضـیه نظام الخطاب، من أنه لا یأتیه ما یبطله من شـبهة سابقة تقدح فی معجزته، أو تعـارضه فی طریقه. و کـذلک لا ـ یأتیه من بعـده قط أمر یشـککک فی وجه دلالته و إعجازه. و هـذا أشـبه بسـیاق الکلام و نظـامه، ثم قـال: وَ لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ «۵» فأخبر أنه لو کان أعجمیا، لکانوا یحتجون فی رده إمـا بـأن ذلـک خارج عن عرف خطابهم، و کانوا یعتـذرون بـذهابهم عن معرفـة معناه، و بأنهم لا یبین لهم وجه الإعجاز فیه، لأنه لیس من شأنهم و لا من لسانهم. أو بغیر ذلک من الأمور، و أنه إذا تحـداهم إلی ما هو من لسانهم و شأنهم فعجزوا عنه، وجبت الحجة علیهم به، علی ما نبینه فی وجه هذا الفصل إلی أن قال: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ «۶». و الـذی ذکرنـا من نظم هاتین السورتین، ینبه علی غیرهما من السور، فکرهنا سـرد القول فیها. فلیتأمل المتأمل ما دللناه علیه یجـده کـذلک. ثم مما یدل علی هذا قوله عز و جل: وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَ وَ لَمْ (______________________________ ۱) آیـة (۳۰) سورة فصـلت. (۲) آیة

(۳۶) سورة فصلت. (۳) آیة (۴۰) سورة فصلت. (۴) آیة (۴۱) سورة فصلت. (۵) آیة (۴۴) سورة فصلت. (۶) آیة (۵۲) سورة فصلت. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۴ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ «۱» فأخبر أن الکتاب آیة من آیاته، و علم من أعلامه و أن ذلـک یکفی فی الدلالـة، و یقوم مقـام معجزات غیره، و آیـات سواه من الأنبیـاء، صـلوات اللّه علیهم. و یـدل علیه قوله عز و جـل: تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً. الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ «۲» و قوله: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً، فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ وَ يَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ «۳» فدل علی أنه جعل قلبه مسـتودعا لوحیه، و مسـتنزلا لکتـابه، و أنه لو شاء صـرف ذلک إلی غیره. و کان له حکم دلالته علی تحقیق الحق، و إبطال الباطل، مع صـرفه عنه. و لـذلک أشـباه کثیرة تـدل علی نحو الدلالـة التی وصـفناها، فبان بهـذا و نظائره ما قلناه من أن بناء نبوته (صـلّی اللّه علیه و سـلّم) علی دلالـة القرآن و معجزته، و صـار له من الحکم فی دلالـته علی نفسه، و صـدقه، أنه یمکن أن یعلم أنه کلاـم اللّه تعـالی، و فـارق حکمه حکم غیره من الکتب المنزلة علی الأنبیاء، لأنها لا تدل علی أنفسها إلا بأمر زائد، و وصف مضاف إلیها، لأن نظمها لیس معجزا، و إن کان ما یتضمنه من الإخبار عن الغیوب معجزا. و لیس کذلک القرآن؛ لأنه یشارکها فی هذه الدلالة و یزید علیها فی أن نظمه معجز فیمکن أن یستدل به علیه، و حل فی هـذا من وجه محل سـماع الکلام من القدیم سـبحانه و تعالی، لأن موسـی علیه السـلام لما سـمع کلامه علم أنه فی الحقیقة کلامه. و کذلک من یسـمع القرآن یعلم أنه کلام اللّه، و إن اختلف الحال فی ذلک من بعض الوجوه، لأن موسی علیه السلام

سمعه من اللّه عز و جل، و أسمعه نفسه متکلما، و لیس کذلک الواحد منا. و کذلک قد یختلفان فی غیر هذا الوجه، و لیس ذلک قصدنا بالکلام فی هذا الفصل. و الذی نرومه الآن ما بیّنا من اتفاقهما فی المعنی الذی وصفنا، و هو أنه علیه السلام یعلم أن ما یسمعه کلام اللّه من جهة الاستدلال. و کذلک نحن نعلم ما نقرؤه من هذا علی جهة الاستدلال.

(______________________________۱) آیة (۵۰- ۵۱) سورة العنکبوت.

(۲) آیة (۱، ۲) سورة الفرقان. (۳) آیة (۲۴) سورة الشوری. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۵

فصل: فی الدلالة علی أنّ القرآن معجزة

فصل: فی الدلالة علی أنّ القرآن معجزة قد ثبت فی الفصل الأول أن نبوة نبینا صلّی اللّه علیه و سلّم، مبنیة علی دلالة معجزة القرآن، فیجب أن نبین وجه الدلالة، من ذلک قد ذکر العلماء، أن الأصل فی هذا هو أن تعلم أن القرآن الذی هو متلو محفوظ مرسوم فی المصاحف، هو الذی جاء به النبی صلّی اللّه علیه و سلّم. و أنه هو الذی تلاه علی من فی عصره ثلاثا و عشرین سنة. و الطریق إلی معرفة ذلک، هو النقل المتواتر «۱» الذی یقع عنده العلم الضروری به. و ذلک أنه قام به فی الموقف، و کتب به إلی البلاد، و تحمله عنه إلیها من تابعه، و أورده علی غیره من لم یتابعه، حتی ظهر فیهم الظهور الذی لا یشتبه علی أحد. و لا یحتمل أنه قد خرج من أتی بقرآن یتلوه، و یأخذه علی غیره، و یأخذ غیره علی الناس، حتی انتشر ذلک فی أرض العرب کلها، و تعدی إلی الملوک المعاقبة لهم، کملک الروم و العجم و القبط و الحبش، و غیرهم من ملوک الأطراف. و لما ورد ذلک مضادّا لأدیان أهل ذلک العصر کلهم، و مخالفا لوجوه اعتقاداتهم المختلفة فی الکفر، وقف جمیع أهل الخلاف علی جملته، و وقف جمیع أهل دینه الذین أکرمهم اللّه بالإیمان علی جملته و تفاصیله، و تظاهر بینهم، حتی حفظه الرجال، و تنقّلت به الرّحال، و تعلّمه الکبیر و الصغیر، إذ کان عمدة دینهم، و علما علیه، و المفروض تلاوته فی صلواتهم، و الواجب استعماله فی أحکامهم. ثم تناقله خلف عن سلف. هم مثلهم فی کثرتهم و توفر دواعیهم علی نقله، حتی (______________________________۱) قال البلقینی: «اعلم أنّ القراءات تنقسم إلی متواتر و شاذ. فالمتواتر: القراءات السبع المشهورة، و المراد بذلک: ما قرءوه من الحرکات و الحروف دون ما کان من قبیل تأدیة اللفظ من أنواع الإمالة و المدّ و التخفیف فلیس بمتواتر. نعم أصل المدّ و الإمالة و التخفیف متواتر لاشتراک القراء فیه. و أما ما عدا السبعة من قراءة أبی جعفر یزید بن القعقاع و یعقوب و اختیارات خلف التی هی تمام العشر فإنها لیست من المتواتر علی الأرجح». التحبیر ص (۱۲۹). إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۶ انتهی إلینا علی ما وصفناه من حاله. فلن یتشکّک أحد، و لا یجوز أن یتشکک، مع وجود هذه الأسباب، فی أنه أتی بهذا القرآن من عند اللّه تعالی. فهذا أصل، و إذا ثبت هذا الأصل وجودا فإنا نقول: إنه تحدّاهم إلی أن یأتوا بمثله، و قرّعهم علی ترک الإتیان به طول السنین التی وصفناها. فلم یأتوا بذلک. و الذی یدل علی هذا الأصل، أنا قد علمنا أن ذلک مذکور فی القرآن فی المواضع الکثیرة؛ کقوله: وَ إِنْ کُنْتُمْ فِی رَیْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلی عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَکُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِی وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْکافِرِینَ «۱». و کقوله: أَمْ یَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَیاتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ. فَإِلَّمْ یَسْتَجِیبُوا لَکُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ «۲». فجعل عجزهم عن الإتیان بمثله، دلیلا علی أنه منه، و دلیلا علی وحدانیته. و ذلک یدل عندنا علی بطلان قول من زعم أنه لا یمکن أن یعلم بالقرآن الوحدانیة، و زعم أن ذلک مما لا سبیل إلیه، إلا من جهة العقل. لأن القرآن کلام اللّه عز و جل، و لا یصح أن یعلم الکلام حتی یعلم المتکلم أولا. فقلنا: إذا ثبت بما نبیّنه إعجازه، و أن الخلق لا یقدرون علیه، ثبت أن الذی أتی به غیرهم، و أنه إنما یختصّ بالقدرة علیه، من یختصّ بالقدرة علیهم، و أنه صدق، و إذا کان کذلک کان ما یتضمنه صدقا. و لیس إذا أمکن معرفته من جهة العقل، امتنع أن یعرف من الوجهین. و لیس الغرض تحقیق القول فی هذا الفصل لأنه خارج عن مقصود کلامنا، و لکنّا ذکرناه من جهة دلالة الآیة علیه. و من

ذلک قوله عز و جل: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلی أَنْ یَأْتُوا بِمِثْلِ هـذَا الْقُرْآنِ لا یَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ کانَ بَعْضُـهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیراً «۳» و قوله: أَمْ یَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا یُؤْمِنُونَ. فَلْیَأْتُوا بِحَدِیثٍ مِثْلِهِ إِنْ کانُوا صادِقِینَ «۴» فقد ثبت بما بیناه أنه تحداهم إلیه، و لم یأتوا بمثله. و فی هـذا أمران: أحـدهما التحـدی إلیـه؛ و الآخر أنهـم لـم یـأتوا لـه بمثـل. و الـذی یـدل (____۱) آیة (۲۳، ۲۴) سورة البقرة. (۲)

آیة (۱۳، ۱۴) سورة هود. (۳) آیة (۸۸) سورة الإسراء. (۴) آیة (۳۳، ۳۴) سورة الطور. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۷ علی ذلک النقل المتواتر الـذی یقع به العلم الضـروری، فلا یمکن جحود واحد من هذین الأمرین. و إن قال قائل: لعله لم یقرأ علیهم الآیات التی فیها ذکر التحدی، و إنما قرأ علیهم ما سوی ذلک من القرآن، کان کذلک قولا باطلا، یعلم بطلانه مثل ما یعلم به بطلان قول من زعم أن القرآن أضعاف هـذا! و هو یبلغ حمل جمل! و إنه کتم، و سیظهره المهـدی!! أو یدّعی أن هذا القرآن لیس هو الذی جاء به النبی صلّی اللّه علیه و سلّم، و إنما هو شـیء وضعه عمر «۱» أو عثمان «۲» رضـی اللّه عنهما، حیث وضع المصحف. أو یدعی فیه زیادة أو نقصانا. و قـد ضـمن اللّه حفظ کتابه أنه لا یأتیه الباطل من بین یـدیه أو من خلفه، و وعده الحق، و حکایة قولة من قال ذلک یغنی عن الردّ علیه، لأن العدد الذین أخذوا القرآن فی الأمصار، و فی البوادی، و فی الأسفار، و الحضر، و ضبطوه حفظا من بین صغیر و کبیر، و عرفوه حتی صار لا یشتبه علی أحـد منهم حرف، لا یجوز علیهم السـهو و النسیان، و لا التخلیط فیه و الکتمان. و لو زادوا و نقصوا أو غیّروا لظهر. و قـد علمـت أن شـعر امرئ القیس «۳» و غیره لاـ یجـوز أن یظهر ظهور القرآن، و لاـ أن یحفـظ کحفظه، و لاـ أن یضـبط کضـبطه، و لا أن تمسّ الحاجـة إلیه مساسـها إلی القرآن، لو زید فیه بیت أو نقص منه بیت. لا بل لو غیر فیه لفظ لتبرأ منه أصـحابه. و أنکره أربـابه. فـإذا کـان ذلـک مما لا یمکن فی شـعر امرئ القیس و نظرائه، مع أن الحاجـة إلیه تقطع لحفظ العربیـة، فکیف یجوز أو یمکن ما ذکروه فی القرآن، مع شـدة الحاجـة إلیه فی أصل الـدین، ثم فی الأحکام و الشـرائع، و اشـتمال الهمم المختلفة علی ضـبطه. فمنهـم مـن یضـبطه لإحکـام قراءتـه، و معرفـة وجوهـا، و صـحة أدائهـا. و منهـم مـن یحفظـه للشـرائع، و الفقـه. (____۱) عمر هو: ابن الخطاب بن نفیل بن

رياح القرشـی العدوی أمیر المؤمنین. کان من قدیمی الإسلام و الهجرة، و ممن صلی إلی القبلتین، و شهد المشاهد کلها، و أخباره فی العلم و الحلم و الفهم أکثر من أن تحصـر. له ترجمـة فی: أسـد الغابة ۴/ ۱۴۵، و الإصابة ۲/ ۵۱۱، و النجوم الزاهرة ۱/ ۷۸. (۲) عثمان هو: ابن عفان بن أبی العاص بن أمیـة القرشـی الأموی المکی. کان من السابقین الأولین و ممن صـلی إلی القبلتین، و هاجر الهجرتین، ثم إنه أحد العشرة المبشرین بالجنة. له ترجمة فی: أسد الغابة ۳/ ۵۸۴، و الإصابة ۲/ ۴۵۵، و النجوم الزاهرة ۱/ ۹۲. (۳) امرؤ القیس هو: ابن حجر الکندی. کان أشـرف شعراء الجاهلیة و أشهرهم، و أرفعهم منزلة. مات سنة (۵۴۰ م). له ترجمة فی: خزانة الأدب ۳/ ۵۳۲، و الشـعر و الشعراء ص (۳۷). إعجـاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۸ و منهم من یضـبطه لیعرف تفسیره و معـانیه. و منهم من یقصـد بحفظه الفصاحـة و البلاغـة. و من الملحدین من یحصّله لینظر فی عجیب شأنه. و کیف یجوز علی أهل هذه الهمم المختلفة، و الآراء المتباینة علی کثرة أعـدادهم، و اختلاـف بلاـدهم، و تفـاوت أغراضـهم، أن یجتمعوا علی التغییر و التبـدیل و الکتمـان؟ و یبین ذلک أنک إذا تأملت ما ذکر فی أکثر السور مما بینا، و من نظائره فی رد قومه علیه ورد غیرهم، و قولهم لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هـذا «۱»، و قول بعضهم: ما سَمِعْنا بِهذا فِی الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ «۲»، إلی الوجوه التی یصرف إلیها قولهم فی الطعن علیه. فمنهم من یستهین بها و یجعل ذلک سببا لترکه الإتیان بمثله. و منهم من یزعم أنه مفتری، فلذلک لا یأتی بمثله. و منهم من یزعم أنه دارس، و أنه أساطیر الأولین. و کرهنا أن نذکر کل آیة تدل علی تحدیه لئلا یقع التطویل. و لو جاز أن یکون بعضه مکتوما، جاز علی کله. و لو جاز أن یکون بعضـه موضوعا، جاز ذلک فی کله. فثبت بما بیناه، أنه تحـدّاهم و أنهم لم یأتوا بمثله. و هذا الفصل قد بینا أن الجمیع قد ذکروه، و بنوا علیه، فإذا ثبت هـذا، وجب أن یعلم بعـده أن ترکهم للإتیان بمثله، کان لعجزهم عنه. و الذی یدل علی أنهم کانوا عاجزین عن الإتیان بمثل القرآن، أنه تحـداهم إلیه حتی طال التحـدی. و جعله دلالـة علی صدقه، و نبوّته، و تضـمّن أحکامه اسـتباحة دمائهم و أموالهم، و سبی

ذریتهم. فلو کانوا یقدرون علی تکذیبه لفعلوا و توصلوا إلی تخلیص أنفسهم و أهلیهم و أموالهم من حکمه، بأمر قریب، هو عادتهم فی لسانهم، و مألوف من خطابهم. و کان ذلک یغنیهم عن تکلف القتال و إکثار المراء و الجدال، و عن الجلاء عن الأوطان، و عن تسلیم الأهل و الذریة للسبی. فلما لم یحصل هناک معارضة منهم علم أنهم عاجزون عنها یبیّن ذلک أن العدو یقصد لدفع قول عدوه بکل ما قدر علیه، من المکاید، لا سیما مع استعظامه ما أبدعه بالمجیء من خلع آلهته، و تسفیه رأیه فی دیانته، و تضلیل آبائه، و التغریب علیه بما جاء به، و إظهار أمر یوجب الانقیاد لطاعته، و التصرف علی حکم إرادته، و العدول عن إلفه و عادته، و الانخراط فی سلک الأتباع بعد أن کان متبوعا، و التشییع بعد أن کان مشیّعا، و تحکیم الغیر فی ماله و تسلیطه إیاه علی جملة أحواله، و الدخول تحت تکالیف شاقة، و عبادات متعبة بقوله. و قد

(۱) آیة (۳۲) سورة الأنفال. (۲) آیة (۷) سورة ص. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۹ علم أن بعض هذه الأحوال مما یدعو إلی سلب النفوس دونه. هذا و الحمیّة حمیتهم، و الهمم الکبیرة هممهم. و قد بذلوا له السیف و أخطروا بنفوسهم و أموالهم. فکیف یجوز أن لا یتوصلوا إلی الرد علیه، و إلی تکذیبه بأهون سعیهم، و مألوف أمرهم. و ما یمکن تناوله من غیر أن یعرق فیه جبین، أو یشتغل به خاطر، و هو لسانهم الذی یتخاطبون به، مع بلوغهم فی الفصاحة النهایة التی لیس وراءها مطلع و الرتبة التی لیس وراءها منزع، و معلوم أنهم لو عارضوه بما تحداهم إلیه لکان فیه توهین أمره، و تکذیب قوله، و تفریق جمعه، و تشتیت أسبابه. و کان من صدق به یرجع علی أعقابه، و یعود فی مذهب أصحابه، فلما لم یفعلوا شیئا من ذلک مع طول المدة، و وقوع الفسحة، و کان أمره یتزاید حالا فحالا، و یعلو شیئا فشیئا، و هم علی العجز عن القدح فی آیته، و الطعن فی دلالته، علم مما بینا أنهم کانوا لا یقدرون علی معارضته، و لا علی توهین حجته. و قد أخبر اللّه تعالی عنهم أنهم قوم خصمون، و قال: وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا «۱» و قال: خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِیمٌ مُبِینٌ «۲» و علم أیضا أن ما کانوا یقولونه من وجوه اعتراضهم علی القرآن مما حکی اللّه عز و جل عنهم من قولهم: لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلَّا أَساطِیرُ الْأَوَّلِینَ «۳» و قولهم: ما هذا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَریً، وَ ما سَمِعْنا بِهذا فِی آبائِنَا الْأَوَّلِینَ «۴» و قالوا: یا أَیُّهَا الَّذِی نُزِّلَ عَلَیْهِ الذِّکْرُ إِنَّکَ لَمَجْنُونٌ «۵» و قالوا: أَ فَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ «۶» و قالوا: أَ إِنَّا لَتارِکُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ «۷» و قال الذین کفروا: إِنْ هذا إِلَّا إِفْکٌ افْتَراهُ وَ أَعانَهُ عَلَیْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ «۸» فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَ زُوراً. وَ قالُوا أَساطِیرُ الْأَوَّلِینَ اکْتَتَبَها فَهِیَ تُمْلی عَلَیْهِ بُکْرَةً وَ أَصِیلًا «۹» و قوله سبحانه: وَ قالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً «۱۰» و قوله: الَّذِینَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ

(۱) آیة (۹۷) سورة مریم. (۲) آیة (۴) سورة النحل. (۳) آیة (۳۱) سورة الأنفال. (۴) آیة (۳۶) سورة القصص. (۵) آیة (۶) سورة الحجر. (۶) آیة (۳) سورة الأنبیاء. (۷) آیة (۳۶) سورة الصافات. (۸) آیة (۴) سورة الفرقان. (۹) آیة (۵) سورة الفرقان. (۱۰) آیة (۸) سورة الفرقان. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۲۰ عِضِینَ «۱». إلی آیات کثیرة فی نحو هذا، تدل علی أنهم کانوا متحیرین فی أمرهم، متعجبین من عجزهم، یفزعون إلی نحو هذه الأمور من تعلیل، و تعذیر، و مدافعة، بما وقع التحدی إلیه، و عرف الحث علیه. و قد علم منهم أنهم ناصبوه الحرب، و جاهروه و نابذوه و قطعوا الأرحام، و أخطروا بأنفسهم، و طالبوه بالآیات، و الإتیان بغیر ذلک من المعجزات، یریدون تعجیزه لیظهروا علیه بوجه من الوجوه. فکیف یجوز أن یقدروا علی معارضته القریبة السهلة علیهم، و ذلک یدحض حجّته و یفسد دلالته، و یبطل أمره، فیعدلون عن ذلک إلی سائر ما صاروا إلیه من الأمور التی لیس علیها مزید فی المنابذة و المعاداة، و یترکون الأمر الخفیف؟ هذا مما یمتنع وقوعه فی العادات، و لا یجوز إتقانه من العقلاء. و إلی هذا قد استقصی أهل العلم الکلام، و أکثروا فی هذا المعنی و أحکموه. و یمکن أن یقال: إنهم لو کانوا قادرین علی معارضته، و الإتیان بمثل ما أتی به، لم یجز أن یتفق منهم ترک المعارضة، و هم علی ما هم علیه من الذرابة و السلاقة و المعرفة بوجوه الفصاحة. و هو یستطیل علیهم بأنهم عاجزون عن مباراته، و إنهم یضعفون عن مجاراته، و یکرر فیما جاء به ذکر عجزهم عن مثل ما یأتی به، و یقرعهم و یؤنبهم علیه، و یدرک آماله فیهم، و ینجح ما یسعی له بترکهم

المعارضـة. و هو يـذكر فيمـا يتلوه تعظيم شـأنه و تفخيم أمره، حتى يتلو قوله تعالى: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً «۲» و قوله: يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ «۳» و قوله: وَ لَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ «۴» و قوله: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ «۵» و قوله: إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ

(۱) آية (۹۱) سورة الحجر. (۲) آية (۸۸) سورة الإسراء. (۳) آية (۲) سورة النحل. (۴) آية (۸۷) سورة الحجر. (۵) آية (۹) سورة الحجر. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۲۱

تُسْئَلُونَ «۱» و قوله: هُدىً لِلْمُتَّقِينَ «۲» و قوله: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ «۳» إلى. غير ذلك من الآيات التى تتضمن تعظيم شأن القرآن، فمنها ما يتكرر فى السورة فى مواضع منها، و منها ما ينفرد فيها. و ذلك مما يدعوهم إلى المباراة، و يحضّهم على المعارضة، و إن لم يكن متحديا إليه. أ لا ترى أنهم قد كان ينافر شعراؤهم بعضهم بعضا و لهم فى ذلك مواقف معروفة، و أخبار مشهورة، و أيام منقولة، و كانوا يتنافسون على الفصاحة و الخطابة و الذلاقة، و يتبجحون بذلك و يتفاخرون بينهم. فلن يجوز و الحالة هذه، أن يتغافلوا عن معارضته لو كانوا قادرين عليها، تحداهم إليها أو لم يتحداهم. و لو كان هذا القبيل مما يقدر عليه البشر، لوجب فى ذلك أمر آخر، و هو أنه لو كان مقدورا للعباد لكان قد اتفق إلى وقت مبعثه من هذا القبيل ما كان يمكنهم أن يعارضوه به. و كانوا لا يفتقرون إلى تكلف وضعه، و تعمل نظمه فى الحال. فلما لم نرهم احتجوا عليه بكلام سابق، و خطبة متقدمة، و رسالة سالفة، و نظم بديع، و لا عارضوه به، فقالوا هذا أفصح مما جئت به، و أغرب منه، أو هو مثله، علم أنه لم يكن إلى ذلك سبيل، و أنه لم يوجد له نظير. و لو كان وجد له مثل لكان ينقل إلينا، و لعرفناه كما نقل إلينا أشعار أهل الجاهلية، و كلام الفصحاء و الحكماء من العرب، و أدى إلينا كلام الكهان و أهل الرجز و السجع و القصيد و غير ذلك من أنواع بلاغاتهم و صنوف فصاحاتهم. فإن قيل الذى بنى عليه الأمر فى تثبيت معجزة القرآن، أنه وقع التحدى إلى الإتيان بمثله، و أنهم عجزوا عنه بعد التحدى إليه. فإذا نظر الناظر و عرف وجه النقل المتواتر فى هذا الباب، وجب له العلم بأنهم كانوا عاجزين عنه، و ما ذكرتم يوجب سقوط تأثير التحدى. و أن ما أتى به قد عرف العجز عنه بكل حال. قيل: إنما احتيج إلى التحدّى لإقامة الحجة و إظهار وجه البرهان، لأن المعجزة إذا ظهرت فإنما تكون حجة، بأن يدعيها من ظهرت عليه، و لا تظهر على مدّع لها إلا و هى معلومة أنها من عند اللّه. فإذا كان يظهر وجه الإعجاز فيها للكافة، بالتحدى وجب فيها

(۱) آية (۴۴) سورة الزخرف. (۲) آية (۲) سورة البقرة. (۳) آية (۲۳) سورة الزمر. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۲۲

التحدى، لأنه تزول بذلك الشبهة عن الكل، و ينكشف للجميع أن العجز واقع عن المعارضة. و إلا فإن مقتضى ما قدمناه من الفصل أن من كان يعرف وجوه الخطاب، و يتقن مصارف الكلام، و كان كاملا فى فصاحته، جامعا للمعرفة بوجوه الصناعة، لو أنه احتج عليه بالقرآن، و قيل له إن الدلالة على النبوة و الآية على الرسالة ما أتلوه عليك منه، لكان ذلك بلاغا فى إيجاب الحجة، و تماما فى إلزامه فرض المصير إليه. و مما يؤكد هذا، أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، قد دعا الآحاد إلى الإسلام محتجا عليهم بالقرآن؛ لأنّا نعلم أنه لم يلزمهم تصديقه تقليدا. و نعلم أن السابقين الأولين إلى الإسلام لم يقلدوه. و إنما دخلوا على بصيرة. و لم نعلمه قال لهم ارجعوا إلى جميع الفصحاء، فإن عجزوا عن الإتيان بمثله فقد ثبتت حجتى. بل لما رآهم يعلمون إعجازه، ألزمهم حكمه، فقبلوه و تابعوا الحق، و بادروا إليه مستسلمين، و لم يشكوا فى صدقه، و لم يرتابوا فى وجه دلالته. فمن كانت بصيرته أقوى، و معرفته أبلغ كان إلى القبول منه أسبق. و من اشتبه عليه وجه الإعجاز، و اشتبه عليه بعض شروط المعجزات، و أدلة النبوات كان أبطأ إلى القبول، حتى تكاملت أسبابه، و اجتمعت له بصيرته، و ترادفت عليه موادّه. و هذا فصل يجب أن يتمّم القول فيه بعد، فليس هذا بموضع له، و يبين ما قلناه أن هذه الآية علم يلزم الكل قبوله، و الانقياد له. و قد علمنا تفاوت الناس فى إدراكه و معرفة وجه دلالته، لأن الأعجمى لا يعلم أنه معجز إلا بأن يعلم عجز العرب عنه. و هو يحتاج فى معرفة

ذلک إلی أمور لا یحتاج إلیها من کان من أهل صنعة الفصاحة. فإذا عرف عجز أهل الصنعة حل محلهم، و جری مجراهم، فی توجه الحجة علیه. و کذلک لا یعرف المتوسط من أهل اللسان من هذا الشأن، ما یعرفه العالی فی هذه الصنعة. فربما حل فی ذلک محل الأعجمی فی أن لا یتوجه علیه الحجة. حتی یعرف عجز المتناهی فی الصنعة عنه. و کذلک لا یعرف المتناهی فی معرفة الشعر وحده، أو الغایة فی معرفة الخطب، أو الرسائل وحدها غور هذا الشأن، ما یعرف من استکمل معرفة جمیع تصاریف الخطاب، و وجوه الکلام و طرق البراعة، فلا تکون الحجة قائمة علی المختص ببعض هذه العلوم بانفرادها، دون تحققه بعجز البارع فی هذه العلوم کلها عنه. فأما من کان متناهیا فی معرفة وجوه الخطاب، و طرق البلاغة و الفنون التی یمکن فیها إظهار الفصاحة، فهو متی سمع القرآن عرف إعجازه، و إن لم نقل ذلک أدی هذا القول إلی أن یقال إن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم لم یعرف إعجاز القرآن حین أوحی إلیه، حتی سبر الحال بعجز أهل إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۲۳ اللسان عنه، و هذا خطأ من القول. فصحّ من هذا الوجه، أن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم، حین أوحی إلیه القرآن عرف کونه معجزا، و بأن قیل له إنه دلالة و علم علی نبوتک أنه کذلک، من قبل أن یقرأه علی غیره أو یتحدی إلیه سواه. و لذلک قلنا: إن المتناهی فی الفصاحة و العلم، بالأسالیب التی یقع فیها التفاصح، متی سمع القرآن عرف أنه معجز، لأنه یعرف من حال نفسه أنه لا یقدر علیه، و یعرف من حال غیره، مثل ما یعرف من حال نفسه، فیعلم أن عجز غیره کعجزه هو، و إن کان یحتاج بعد هذا إلی استدلال آخر علی أنه علم علی نبوة، و دلالة علی رسالة، بأن یقال له إن هذه آیة لنبیه، و إنما ظهرت علیه و ادعاها معجزة له و برهانا علی صدقه. فإن قیل: فإن من الفصحاء من یعلم عجز نفسه عن قول الشعر، و لا یعلم مع ذلک عجز غیره عنه. فکذلک التبلیغ. و إن علم عجز نفسه عن مثل القرآن فهو قد یخفی علیه عجز غیره. قیل هو مع مستقر العادة، و إن عجز عن قول الشعر و علم أنه معجز فإنه یعلم أن الناس لا ینفکون من وجود الشعراء فیهم. و متی علم البلیغ المتناهی فی صنوف البلاغات عجزه عن القرآن، علم عجز غیره لأنه کهو، لأنه یعلم أن حاله و حال غیره فی هذا الباب سواء، إذ لیس فی العادة مثل للقرآن یجوز أو یعلم قدرة أحد من البلغاء علیه. فإذا لم یکن لذلک مثل فی العادة، و عرف هذا الناظر جمیع أسالیب الکلام و أنواع الخطاب، و وجد القرآن مباینا لها، علم خروجه عن العادة، و جری مجری ما یعلم أن إخراج الید البیضاء من الجیب خارج عن العادات، فهو لا یجوزه من نفسه، و کذلک لا یجوز وقوعه من غیره إلا علی وجه نقض العادة. بل یری وقوعه موقع المعجزة، و هذا و إن کان یفارق فلق البحر، و إخراج الید البیضاء. و نحو ذلک من وجه. و هو أن یستوی الناس فی معرفة عجزهم عنه، فکونه ناقضا للعادة من غیر تأمل شدید، و لا نظر بعید. فإن النظر فی معرفة إعجاز القرآن یحتاج إلی تأمل، و یفتقر إلی مراعاة مقدمات، و الکشف عن أمور نحن ذاکروها بعد هذا الموضع. فکل واحد منها یؤول إلی مثل حکم صاحبه فی الجمع الذی قدمنا. و مما یبین ما قلناه من أن البلیغ المتناهی فی وجوه الفصاحة، یعرف إعجاز القرآن. و تکون معرفته حجة علیه إذا تحدی إلیه و عجز عن مثله. و إن لم ینتظر وقوع التحدی فی غیره. و ما الذی یصنع ذلک الغیر، و هو ما روی فی الحدیث: أن جبیر «۱» بن مطعم ورد علی النبی صلّی اللّه علیه و سلّم، فی معنی حلیف له أراد أن یفادیه فدخل

(۱) جبیر بن مطعم بن عدی القرشی النوفلی المکی ثم المدنی. أسلم یوم الفتح، و قیل قبلها، و حسن إسلامه، و کان سیدا حکیما وقورا. مات بالمدینة سنة (۵۸) أو (۵۹). له ترجمة فی: الریاض- إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۲۴ و النبی صلّی اللّه علیه و سلّم، یقرأ سورة: وَ الطُّورِ وَ کِتابٍ مَسْطُورٍ «۱» فی صلاة الفجر، قال: فلما انتهی إلی قوله: إِنَّ عَذابَ رَبِّکَ لَواقِعٌ ما لَهُ مِنْ دافِعٍ «۲» قال: خشیت أن یدرکنی العذاب فأسلم. و فی حدیث آخر أن عمر «۳» بن الخطاب رضی اللّه عنه سمع سورة طه فأسلم. و قد روی أن قوله عز و جل فی أول حم «السجدة» إلی قوله: فَأَعْرَضَ أَکْثَرُهُمْ فَهُمْ لا یَسْمَعُونَ «۴» نزلت فی شیبة و عتبة ابنی ربیعة و أبی سفیان بن حرب و أبی جهل. و ذکر أنهم بعثوا هم و غیرهم من وجوه قریش بعتبة بن ربیعة إلی النبی صلّی اللّه علیه و سلّم لیکلمه، و کان حسن الحدیث، عجیب الشأن، بلیغ الکلام، و أرادوا أن یأتیهم بما عنده، فقرأ النبی صلّی اللّه علیه و سلّم سورة حم السجدة من أولها حتی انتهی إلی قوله: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ

أَنْذَرْتُكَمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ «۵» فوثب مخافة العذاب، فاستحكوه ما سمع، فذكر أنه لم يسمع منه كلمة واحدة، و لا اهتدى لجوابه، و لو كان ذلك من جنس كلامهم لم يخف عليه وجه الاحتجاج و الرد. فقال عثمان «۶» بن مظعون لتعلموا أنه من عند اللّه إذ لم يهتد لجوابه. و أبين من ذلك قول اللّه عز و جل: وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ «۷» فجعل سماعه حجة عليه بنفسه، فدل على أن فيهم من يكون سماعه إياه حجة عليه. فإن قيل: لو كان ما قلتم لوجب أن يكون حال الفصحاء الذين كانوا فی عصر النبی صلّى اللّه عليه و سلّم على طريقة واحدة فی إسلامهم عند سماعه، قيل: لا يجب ذلك، لأن صوارفهم كانت كثيرة، منها أنهم كانوا يشكّون، منهم من يشك فی إثبات الصانع، و فيهم من يشك فی التوحيد، و فيهم من يشك فی النبوة، أ لا ترى أن أبا سفيان «۸» بن حرب لما جاء إلى رسول

\- المستطابة ص (۴۸). (۱) آية (۱) سورة الطور. (۲) آية (۸) سورة الطور. (۳) سبقت ترجمته. (۴) آية (۴) سورة فصلت. (۵) آية (۱۳) سورة فصلت. (۶) عثمان بن مظعون. قال ابن إسحاق: أسلم بعد ثلاثة عشر رجلا، و هاجر إلى الحبشة. له ترجمة فی: الإصابة ۲/ ۴۶۴. (۷) آية (۶) سورة التوبة. (۸) أبو سفيان بن حرب بن أمية القرشی الأموی المكی. ولد قبل الفيل بعشر سنين، و كان شيخ مكة، و رئيس قريش. مات بالمدينة سنة (۳۱) أو (۳۲). له ترجمة فی: الرياض المستطابة ص (۱۲۸- ۱۲۹). إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۲۵ اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ليسلم عام الفتح، قال له النبی عليه السلام: أما آن لک أن تشهد أن لا إله إلا اللّه؟ قال: بلى، فشهد. قال: أما آن لک أن تشهد أنی رسول اللّه؟ قال: أما هذه ففی النفس منها شیء. فكانت وجوه شكوكهم مختلفة. و طرق شبههم متباينة، فمنهم من قلت شبهه، و تأمل الحجة حق تأملها و لم يستكبر فأسلم. و منهم من كبرت شبهه، و أعرض عن تأمل الحجة حق تأملها، أو لم يكن فی البلاغة على حدود النهاية، فتطاول عليه الزمان إلى أن نظر و استبصر، و راعى و اعتبر، و احتاج إلى أن يتأمل عجز غيره عن الإتيان بمثله، فلذلک وقف أمره. و لو كانوا فی الفصاحة على مرتبة واحدة، و كانت صوارفهم و أسبابهم متفقة، لتوافقوا إلى القبول جملة واحدة. فإن قيل: فكيف يعرف البليغ الذی وصفتموه: إعجاز القرآن؟ و ما الوجه الذی يتطرق به إليه؟ و المنهاج الذی يسلكه حتى يقف به على جلية الأمر فيه؟ قيل: هذا سبيله أن يفرد له فصل، فإن قيل: فلم زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات و تصرفهم فی أجناس الفصاحات؟ و هلا قلتم: إن من قدر على جميع هذه الوجوه البديعة، و توجه من هذه الطرق الغريبة، كان على مثل نظم القرآن قادرا، و إنما يصرفه اللّه عنه ضربا من الصرف، أو يمنعه من الإتيان بمثله، ضربا من المنع، أو تقصر دواعيه دونه مع قدرته عليه ليتكامل ما أراده اللّه من الدلالة، و يحصل ما قصده من إيجاب الحجة. لأن من قدر على نظم كلمتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلها. و إذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية إلى الأولى، و كذلک الثالثة حتى يتكامل قدر الآية و السورة. فالجواب أنه لو صح ذلك، صح لكل من أمكنه نظم ربع بيت، أو مصراع من بيت، أن ينظم القصائد و يقول الأشعار. و صح لكل ناطق قد يتفق فی كلامه الكلمة البديعة، نظم الخطب البليغة، و الرسائل العجيبة، و معلوم أن ذلك غير سائغ، و لا ممكن. على أن ذلك لو لم يكن معجزا على ما وصفناه من جهة نظمه الممتنع، لكان مهما حط من رتبة البلاغة فيه، و وضع من مقدار الفصاحة فی نظمه كان أبلغ فی الأعجوبة، إذا صرفوا عن الإتيان بمثله، و منعوا عن معارضته و عدلت دواعيهم عنه. فكان يستغنى عن إنزاله على النظم البديع، و إخراجه فی المعرض الفصيح العجيب، على أنه لو كانوا صرفوا على ما ادعاه لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به فی الفصاحة و البلاغة و حسن النظم و عجيب الرصف، لأنهم لم يتحدوا إليه و لم يلزمهم حجته. فلما لم يوجد فی كلام من قبله مثله علم أن ما ادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان. و فيه معنى آخر، و هو: أن أهل الصنعة فی هذا الشأن إذا سمعوا كلاما مطمعا لم يخف عليهم، و لم يشتبه لديهم. و من كان متناهيا فی فصاحته، لم يجز أن يطمع فی مثل هذا القرآن بحال. فإن قال صاحب السؤال إنه قد يطمع فی ذلك. قيل له: أنت تزيد على هذا، إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۲۶ فتزعم أن كلام الآدمی قد يضارع القرآن، و قد يزيد عليه فی الفصاحة و لا يتحاشاه. و يحسب أن ما ألفه فی الجزء و الطفرة هو أبدع و أغرب من القرآن لفظا و معنى! و لكن ليس الكلام

على ما يقدره مقدر فى نفسه، و يحسبه ظان من أمره، و المرجوع فى هذا إلى جملة الفصحاء دون الآحاد. و نحن نبين بعد هذا وجه امتناعه عن الفصيح البليغ، و نميزه فى ذلك عن سائر أجناس الخطاب، ليعلم أن ما يقدره من مساواة كلام الناس به تقدير ظاهر الخطأ، بيّن الغلط، و أن هذا التقدير من جنس من حكى اللّه تعالى قوله فى محكم كتابه: إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ فَقالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ. إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ «۱» فهم يعبرون عن دعواهم أنهم يمكنهم أن يقولوا مثله، بأن ذلك من قول البشر، لأن ما كان من قولهم فليس يقع فيه التفاضل إلى الحد الذى يتجاوز إمكان معارضته. و مما يبطل ما ذكروه من القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة، و إنما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزا، و إنما يكون المنع معجزا، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره فى نفسه. و ليس هذا بأعجب مما ذهب إليه فريق منهم أن الكلّ قادرون على الإتيان بمثله، و إنما يتأخرون عنه لعدم العلم بوجه ترتيب لو تعلموه لوصلوا إليه به. و لا- بأعجب من قول فريق منهم إنه لا فرق بين كلام البشر و كلام اللّه تعالى فى هذا الباب، و إنه يصح من كل واحد منهما الإعجاز على حد واحد. فإن قيل: فهل تقولون بأن غير القرآن من كلام اللّه عز و جل معجز كالتوراة و الإنجيل و الصحف، قيل: ليس شيء من ذلك بمعجز فى النظم و التأليف. و إن كان معجزا كالقرآن، فيما يتضمن من الإخبار بالغيوب. و إنما لم يكن معجزا لأن اللّه تعالى لم يصفه بما وصف به القرآن، و لأنّا قد علمنا أنه لم يقع التحدى إليه كما وقع التحدى إلى القرآن. و لمعنى آخر و هو أن ذلك اللسان لا يتأتى فيه من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذى ينتهى إلى حد الإعجاز. و لكنه يتقارب، و قد رأيت أصحابنا يذكرون هذا فى سائر الألسنة و يقولون: ليس يقع فيها من التفاوت ما يتضمن التقديم العجيب، و يمكن بيان ذلك بأنا لا نجد فى القدر الذى نعرفه من الألسنة للشيء الواحد من الأسماء ما نعرف من اللغة. و كذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعانى الكثيرة على ما تتناول العربية. و كذلك التصرف فى الاستعارات، و الإشارات، و وجوه الاستعمالات البديعة التى يجىء تفصيلها بعد.

(۱) آية (۱۸ : ۲۵) سورة المدثر.

إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۲۷ هذا و يشهد لذلك من القرآن أن اللّه تعالى وصفه بأنه بلسان عربى مبين. و كرر ذلك فى مواضع كثيرة، و بين أنه رفعه عن أن يجعله أعجميا. فلو كان يمكن فى لسان العجم إيراد مثل فصاحته، لم يكن ليرفعه عن هذه المنزلة. و أنه و إن كان يمكن أن يكون من فائدة قوله إنه عربى مبين، أنه مما يفهمونه و لا يفتقرون فيه إلى الرجوع إلى غيرهم، و لا يحتاجون فى تفسيره إلى من سواهم، فلا يمتنع أن يفيد ما قلنا أيضا كما أفاد بظاهره ما قدمناه. و يبين ذلك أن كثيرا من المسلمين قد عرفوا تلك الألسنة و هم من أهل البراعة فيها، و فى العربية، فقد وقفوا على أنه ليس يقع فيها من التفاضل و الفصاحة ما يقع فى العربية. و معنى آخر و هو أنّا لم نجد أهل التوراة و الإنجيل ادعوا الإعجاز لكتابهم، و لا ادعى لهم المسلمون. فعلم أنّ الإعجاز مما يختص به القرآن. و يبين هذا أن الشعر لا يتأتى فى تلك الألسنة على ما قد اتفق فى العربية. و إن كان قد يتفق منها صنف أو أصناف ضيقة، لم يتفق فيها من البديع ما يمكن و يتأتى فى العربية. و كذلك لا يتأتى فى الفارسية جميع الوجوه التى يتبين فيها الفصاحة على ما يتأتى فى العربية. فإن قيل: فإن المجوس تزعم أن كتاب «زرادشت» و كتاب «مانى» معجزان، قيل: الذى يتضمنه كتاب «مانى» من طريق النيرنجات و ضروب من الشعوذة ليس يقع فيها إعجاز. و يزعمون أن فى الكتاب الحكم و هى حكم منقولة متداولة على الألسن لا يختص بها أمة دون أمة. و إن كان بعضهم أكثر اهتماما بها و تحصيلا لها و جمعا لأبوابها. و قد ادعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن، و إنما فزعوا إلى الدّرة اليتيمة، و هما كتابان أحدهما يتضمن حكما منقولة، توجد عند حكماء كل أمة، مذكورة بالفضل، فليس فيها شيء بديع من لفظ، و لا معنى. و الآخر فى شيء من الديانات و قد تهوس فيه مما لا يخفى على متأمل، و كتابه الذى بيّناه فى الحكم منسوخ من كتاب «بزرجمهر» فى الحكمة. فأى صنع له فى ذلك؟ و أى فضيلة حازها فيما جاء به؟ و بعد، فليس يوجد له كتاب يدعى مدع أنه عارض فيه القرآن، بل يزعمون أنه اشتغل بذلك مدة، ثم مزّق ما جمع و استحيا لنفسه من إظهاره. فإن كان كذلك فقد أصاب و أبصر القصد، و لا يمتنع أن يشتبه عليه الحال فى الابتداء ثم يلوح له رشده، و يتبين له أمره، و ينكشف له عجزه.

و لو کان بقی علی اشتباه الحال علیه لم یخف علینا موضع غفلته، و لم یشتبه لدینا وجه شبهته. و متی أمکن أن تدعی الفرس فی شیء من کتبهم أنه معجز فی حسن تألیفه و عجیب نظمه! إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۲۸

فصل: فی جملة وجوه إعجاز القرآن

فصل: فی جملة وجوه إعجاز القرآن ذکر أصحابنا و غیرهم فی ذلک ثلاثة أوجه من الإعجاز: الوجه الأول: یتضمن الإخبار عن الغیوب، و ذلک مما لا یقدر علیه البشر. لا سبیل لهم إلیه: فمن ذلک ما وعد اللّه تعالی نبیه علیه السلام أنه سیظهر دینه علی الأدیان بقوله عز و جل: هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدی وَ دِینِ الْحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَی الدِّینِ کُلِّهِ وَ لَوْ کَرِهَ الْمُشْرِکُونَ «۱» ففعل ذلک و کان أبو بکر «۲» الصدیق رضی اللّه عنه إذا أغزی جیوشه، عرّفهم ما وعدهم اللّه من إظهار دینه، لیثقوا بالنصر، و یستیقنوا بالنجاح. و کان عمر «۳» بن الخطاب رضی اللّه عنه یفعل کذلک فی أیامه، حتی وقف أصحاب جیوشه علیه، فکان سعد بن أبی وقاص رحمه اللّه، و غیره من أمراء الجیوش من جهته یذکر ذلک لأصحابه، و یحرضهم به، و یوثق لهم. و کانوا یلقون الظفر فی مواجهاتهم، حتی فتح إلی آخر أیام عمر رضی اللّه عنه إلی بلخ، و بلاد الهند و فتح فی أیامه مرو الشاهجان و مرو الروذ و منعهم من العبور بجیحون. و کذلک فتح فی أیامه فارس إلی اصطخر و کرمان، و مکران و سجستان و جمیع ما کان من مملکة کسری، و کل ما کان یملکه ملوک الفرس بین البحرین من الفرات إلی جیحون. و أزال ملک ملوک الفرس فلم یعد إلی الیوم. و لا یعود أبدا إن شاء اللّه تعالی. ثم إلی حدود أرمینیة و إلی باب الأبواب، و فتح أیضا ناحیة الشام، و الأردن، و فلسطین، و فسطاط مصر. و أزال ملک قیصر عنها، و ذلک من الفرات إلی بحر مصر، و هو ملک قیصر. و غزت الخیول فی أیامه إلی عموریة، فأخذ الضواحی کلها و لم یبق دونها إلا ما حجز دونه بحر، أو (______ ۱) آیة (۳۳) سورة التوبة.

(۲) أبو بکر الصدیق هو: عبد اللّه بن عثمان بن عامر بن عمرو القرشی التیمی. کان أول من أسلم من الرجال، و لم یتردد حین عرض علیه الإسلام، و ثبت له أفضل الفضائل بصحبة الهجرة، و کانت بیعته إجماعا من الصحابة. مات سنة (۱۳). له ترجمة فی: أسد الغابة ۳/ ۳۰۹، و شذرات الذهب ۱/ ۲۷، و مروج الذهب ۲/ ۳۰۵. (۳) سبقت ترجمته. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۲۹ حال عنه جبل منیع، أو أرض خشنة، و أو بادیة غیر مسلوکة. و قال اللّه عز و جل: قُلْ لِلَّذِینَ کَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلی جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمِهادُ «۱» فصدق فیه و قال فی أهل بدر: وَ إِذْ یَعِدُکُمُ اللَّهُ إِحْدَی الطَّائِفَتَیْنِ أَنَّها لَکُمْ «۲» و وفی لهم بما وعد. و جمیع الآیات التی یتضمنها القرآن، من الإخبار عن الغیوب، یکثر جدّا، و إنما أردنا أن ننبه بالبعض علی الکل. و الوجه الثانی: أنه کان معلوما من حال النبی صلّی اللّه علیه و سلّم، أنه کان أمیا لا یکتب و لا یحسن أن یقرأ. و کذلک کان معروفا من حاله أنه لم یکن یعرف شیئا من کتب المتقدمین، و أقاصیصهم، و أنبائهم، و سیرهم. ثم أتی بجملة ما وقع و حدث من عظیمات الأمور، و مهمات السیر، من حین خلق اللّه آدم علیه السلام، إلی حین مبعثه. فذکر فی الکتاب الذی جاء به معجزة له: قصة آدم علیه السلام، و ابتداء خلقه، و ما صار إلیه أمره من الخروج من الجنة، ثم جملا من أمر ولده و أحواله و توبته. ثم ذکر قصه نوح علیه السلام، و ما کان بینه و بین قومه و ما انتهی إلیه أمره. و کذلک أمر إبراهیم علیه السلام. إلی ذکر سائر الأنبیاء المذکورین فی القرآن، و الملوک و الفراعنة الذین کانوا فی أیام الأنبیاء صلوات اللّه علیهم. و نحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبیل إلیه، إلا عن تعلم، و إذا کان معروفا أنه لم یکن ملابسا لأهل الآثار و حملة الأخبار، و لا مترددا إلی التعلم منهم. و لا کان ممن یقرأ فیجوز أن یقع إلیه کتاب فیأخذ منه علم أنه لا یصل إلی علم ذلک إلا بتأیید من جهة الوحی. و لذلک قال عز و جل: وَ ما کُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ کِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِیَمِینِکَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ «۳» و قال: وَ کَذلِکَ نُصَرِّفُ الْآیاتِ وَ لِیَقُولُوا دَرَسْتَ وَ لِنُبَیِّنَهُ لِقَوْمٍ (______ ۱) آیة (۱۲) سورة آل عمران. (۲) آیة (۷) سورة الأنفال. (۳) آیة (۴۸) سورة العنکبوت. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۳۰ یَعْلَمُونَ «۱» و قد بینا أن من کان یختلف إلی

تعلم علم و يشتغل بملابسة أهل صنعة، لم يخف على الناس أمره. و لم يختلف عندهم مذهبه، و قد كان يعرف فيهم من يحسن هذا العلم و إن كان نادرا. و كذلك كان يعرف من يختلف إليه للتعليم، و ليس يخفى فى العرف عالم كل صنعة و متعلمها فلو كان منهم لم يخف أمره. و الوجه الثالث: أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه فى البلاغة، إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه. و الذى أطلقه العلماء هو على هذه الجملة. و نحن نفصل ذلك بعض التفصيل، و نكشف الجملة التى أطلقوها. فالذى يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز وجوه منها: ما يرجع إلى الجملة. و ذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه، و اختلاف مذاهبه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم و مباين للمألوف من ترتيب خطابهم، و له أسلوب يختص به و يتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد. و ذلك أن الطرق التى يتقيد بها الكلام البديع المنظوم، تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع، ثم إلى معدل موزون غير مسجع، ثم إلى ما يرسل إرسالا، فتطلب فيه الإصابة و الإفادة و إفهام المعانى المعترضة على وجه بديع، و ترتيب لطيف، و إن لم يكن معتدلا فى وزنه. و ذلك شبيه بجملة الكلام الذى لا يتعمل و لا يتصنع له. و قد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه، و مباين لهذه الطرق، و يبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب السجع، و لا فيه شىء منه. و كذلك ليس من قبيل الشعر لأن من الناس من زعم أنه كلام مسجع، و منهم من يدعى أن فيه شعرا كثيرا، و الكلام عليهم يذكر بعد هذا الموضع، فهذا إذا تأمله المتأمل تبين بخروجه عن أصناف كلامهم، و أساليب خطابهم، أنه خارج عن العادة، و أنه معجز، و هذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن. و تميّز حاصل فى جميعه. و منها أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة، و الغرابة و التصرف البديع و المعانى اللطيفة، و الفوائد الغزيرة، و الحكم الكثيرة، و التناسب فى البلاغة، و التشابه فى البراعة، على هذا الطول، و على هذا القدر. و إنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة، و ألفاظ قليلة، و إلى شاعرهم قصائد محصورة، يقع فيها ما نبينه بعد هذا من الاختلال، و يعترضها ما نكشفه من الاختلاف، و يقع فيها ما نبديه من التعمل و التكلف و التجوز و التعسف (____. ١) آية (١٠٥)

سورة الأنعام. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ٣١ و قد حصل القرآن على كثرته و طوله متناسبا فى الفصاحة على ما وصفه اللّه تعالى به فقال عز من قائل: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ «١» وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً «٢» فأخبر أن كلام الآدمى إن امتد وقع فيه التفاوت، و بان عليه الاختلال. و هذا المعنى هو غير المعنى الأول الذى بدأنا بذكره، فتأمله تعرف الفضل. و فى ذلك معنى ثابت و هو أن عجيب نظمه، و بديع تأليفه، لا يتفاوت و لا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التى يتصرف فيها من ذكر قصص، و مواعظ، و احتجاج و حكم، و أحكام و أعذار، و إنذار، و وعد و وعيد و تبشير، و تخويف و أوصاف، و تعليم أخلاق كريمة و شيم رفيعة، و سير مأثورة، و غير ذلك من الوجوه التى يشتمل عليها. و نجد كلام البليغ الكامل، و الشاعر المفلق، و الخطيب المصقع، يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور. فمن الشعراء من يجود فى المدح دون الهجو. و منهم من يبرز فى الهجو دون المدح. و منهم يسبق فى التقريظ دون التأبين. و منهم من يجود فى التأبين دون التقريظ. و منهم من يغرب فى وصف الإبل و الخيل، أو سير الليل، أو وصف الحرب، أو وصف الروض، أو وصف الخمر، أو الغزل أو غير ذلك، مما يشتمل عليه الشعراء و يتداوله الكلام. و لذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب، و النابغة إذا رهب، و بزهير إذا رغب. و مثل ذلك يختلف فى الخطب و الرسائل و سائر أجناس الكلام. و متى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت فى شعره على حسب الأحوال التى يتصرف فيها، فيأتى بالغاية فى البراعة فى معنى، فإذا جاء إلى غيره قصر عنه، و وقف دونه، و بان الاختلاف على شعره، و لذلك ضرب المثل بالذين سميتهم لأنه لا خلاف فى تقدمهم فى صنعة الشعر، و لا شك فى تبريزهم فى مذهب النظم، فإذا كان الاختلال بيّنا فى شعرهم لاختلاف ما يتصرفون فيه، و استغنينا عن ذكر من هو دونهم. و كذلك يستغنى به عن تفصيل نحو هذا فى الخطب و الرسائل و نحوها. ثم نجد فى الشعراء من يجوّد فى الرجز، و لا يمكنه نظم القصيد أصلا. و منهم من ينظم القصيد، و لكن يقصّر فيه مهما تكلفه أو عمله. و من الناس من يجوّد فى الكلام المرسل، فإذا أتى

بالموزون قصـر و نقص نقصانا عجيبا. و منهم من يوجـد بضد ذلک. و قد تأملنا نظم القرآن، فوجدنا جميع ما يتصـرف فيه من الوجوه التى قدمنا ذكرها (____ ، ۱) آية (۲۳) سورة الزمر. (۲) آية (۸۲) سورة النسـاء. إعجـاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۳۲ على حـد واحـد فى حسن النظم، و بـديع التـأليف و الرصف، لا تفـاوت فيه، و لا انحطاط عن المنزلـة العليا، و لا إسـفال فيه إلى الرتبـة الـدنيا. و كـذلك قـد تأملنا ما يتصـرف إليه وجوه الخطاب من الآيـات الطويلـة و القصـيرة، فرأينا الإعجاز فى جميعها على حـد واحـد لا يختلف. و كـذلك قـد يتفاوت كلام الناس عنـد إعادة ذكر القصة الواحدة، فرأيناه غير مختلف و لا متفاوت، بل هو على نهاية البلاغة و غاية البراعة. فعلمنا بذلک أنه مما لا يقدر عليه البشـر. لأن الـذى يقـدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير عند التكرار، و عند تباين الوجوه و اختلاف الأسباب التى يتضـمن. و معنى الرابع: و هو أن كلام الفصـحاء يتفاوت تفاوتا بيّنا فى الفصل و الوصل، و العلو و النزول، و التقريب و التبعيـد، و غير ذلک مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم، و يتصرف فيه القول عند الضم و الجمع، أ لا ترى أن كثيرا من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى إلى غيره، و الخروج من باب إلى سواه، حتى أن أهل الصـنعة قد اتفقوا على تقصير البحترى مع جودة نظمه و حسن وصفه فى الخروج من النسيب إلى المديـح. و أطبقوا على أنه لاـ يحسـنه و لا يأتى فيه بشـىء. و إنما اتفق له فى مواضع معـدودة خروج يرتضـى و تنقل يسـتحسن. و كذلک يختلف سبيل غيره عند الخروج من شيء إلى شيء، و التحول من باب إلى باب. و نحن نفصل بعد هذا و نفسر هذه الجملة، و نـبين على أن القرآن على اختلاـف مـا يتصـرف فيه من الوجـوه الكـثيرة، و الطرق المختلفـة، يجعـل المختلف كـالمؤتلف، و المتبـاين كالمتناسب، و المتنافر فى الإفراد إلى حـد الآحاد. و هـذا أمر عجيب تتبين فيه الفصاحـة، و تظهر به البلاغة، و يخرج به الكلام عن حد العادة، و يتجاوز العرف. و معنى خامس: و هو أن نظم القرآن وقع موقعا فى البلاغة يخرج عن عادة كلام الإنس و الجن. فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا، و يقصـرون دونه كقصورنا. و قـد قال اللّه عز و جل: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هـذَا الْقُرْآنِ لاـ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُـهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً «۱» فـإن قيل: هـذه دعوى منكم، و ذلک أنه لا سبيل لنا إلى أن نعلم عجز الجن عن مثله، و قـد يجوز أن يكونوا قادرين على الإتيان بمثله، و إن كنا عاجزين كما أنهم قـد يقدرون على أمور لطيفة و أسـباب غامضة، دقيقـة لاـ نقـدر نحن عليهـا، و لا سبيل لنا للطفها إليها، و إذا كان كـذلک لم يكن إلى علم ما ادعيتم سبيل. قيل: قـد يمكن أن تعرف ذلک بخبر اللّه عز و جل. و قد يمكن أن يقال إن هذا الكلام خرج على ما كانت العرب تعتقده من مخاطبة الجن، و ما يروون لهم من الشـعر، و يحكون (____ ۱) آية (۸۸) سورة الإسـراء. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۳۳ عنهم من الكلام. و قـد علمنا أن ذلک محفوظ عنـدهم، منقول عنهم، و القـدر الذى نقلوه قد تأملناه، فهو فى الفصاحة لا يتجاوز حد فصاحة الإنس، و لعله يقصـر عنها، و لا يمتنع أن يسـمع الناس كلامهم، و يقع بينهم و بينهم محـاورات فى عهـد الأنبيـاء صلوات اللّه عليهم. و ذلـک الزمـان ممـا لاـ يمتنـع فيه وجود مـا ينقض العـادات. على أن القوم إلى الآن يعتقدون مخاطبة الغيلان، و لهم أشـعار محفوظة مروية فى دواوينهم قال تأبط شـرا «۱»: و أدهم قـد جبت جلبابه كما احتابت الكاعب الخيعلا إلى أن حدا الصبح أثناءه و مزّق جلبابه الأليلا على شيم نار تنوّرتها فبتّ لها مدبرا مقبلا فأصبحت و الغول لى جارة فيا جارتا أنت مـا أهولاـ و طالبتهـا بضـعها فـالتوت بوجه تهول و اسـتغولا فمن سـأل أين ثوب جـارتى فإن لها باللوى منزلا و كنت إذ ما هممت اعتزمت ت و أحر إذا قمت أن أفعلاـ و قـال آخر: عشوا نـارى فقلت منون أنتم؟ فقالوا: الجنّ، قلت: عموا ظلاما فقمت إلى الطعام فقال منهم زعيم يحسـد الإنس الطعاما و يذكرون لامرئ القيس «۲» قصـيدة مع عمرو الجنى و أشـعارا لهما كرهنا ذكرها لطولها و قال عبيد بن أيوب: فلله درّ الغول أى رفيقـة لصاحب قفر خائف متقفر أرنّت بلحن بعـد لحن و أوقدت حوالىّ نيرانا تلوح و تزهر و قال ذو الرمة «۳» بعـــد قـــوله: قـــد أعســـف النـــازح المجهـــول معســـفه فى ظـــل أخضـــر يـــدعو هـــامه البـــوم (____ ۱) تأبط شـرا هو: ثابت بن جابر، كان أسمع العرب و أبصرهم و أكيدهم، و كان أعدى رجل ينظر إلى الظباء فينتقى أسمنها، ثم يعدو خلفه فلا يفوته. مات سنة (۵۳۰ م). له

ترجمة فی: الأغانی ۱۸/ ۲۰۹، و الشعر و الشعراء (۱۷۴)، و خزانة الأدب ۱/ ۶۶. (۲) سبقت ترجمته. (۳) ذو الرمة هو: غیلان بن عقبة بن نهیس، یعد من الشعراء المتیمین، و صاحبته میة بنت مقاتل المنقری، و کانت جمیلة، و کان هو دمیما أسود، و سمعت تشبیبه بها، و لم تره ثم رأته، فقالت: «وا سوأتاه» فغضب، و هجاها. مات سنة (۱۱۷). له ترجمة فی: وفیات الأعیان ۱/ ۴۰۴، و خزانة الأدب ۱/ ۵۱. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۳۴ للجنّ باللیل فی حافاتها زجل کما تناوح یوم الرّیح عیثوم دویّة و دجی لیل کأنهما یمّ تراطن فی حافاته الروم و قال أیضا: و کم عرّست بعد النوی من معرّس لها من کلام الجن أصوات سامر و قال: و رمل عزیف الجن فی عقباته هزیز کتضراب المغنّین بالطبل و إذا کان القوم یعتقدون کلام الجن و مخاطباتهم، و یحکون عنهم، و ذلک القدر المحکی لا یزید أمره علی فصاحة العرب، صح ما وصف عندهم من عجزهم عنه، کعجز الإنس. و یبین ذلک من القرآن أن اللّه تعالی حکی عن الجن ما تفاوضوا فیه من القرآن، فقال: وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَیْکَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ یَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا، فَلَمَّا قُضِیَ وَلَّوْا إِلی قَوْمِهِمْ مُنْذِرِینَ «۱» إلی آخر ما حکی عنهم فیما یتلوه. فإذا ثبت أنه وصف کلامهم، و وافق ما یعتقدونه من نقل خطابهم، صح أن یوصف الشیء المألوف بأنه ینحط عن درجة القرآن فی الفصاحة. و هذان الجوابان أسدّ عندی من جواب بعض المتکلمین عنه؛ بأن عجز الإنس عن القرآن یثبت له حکم الإعجاز، فلا یعتبر غیره. أ لا تری أنه لو عرفنا من طریق المشاهدة عجز الجن عنه، فقال لنا قائل: فدلوا علی أن الملائکة تعجز عن الإتیان بمثله، لم یکن لنا فی الجواب غیر هذه الطریقة التی قد بیناها. و إنما ضعّفنا هذا الجواب؛ لأن الذی حکی و ذکر عجز الجن و الإنس عن الإتیان بمثله، فیجب أن نعلم عجز الجن عنه کما علمنا عجز الإنس عنه. و لو کان وصف عجز الملائکة عنه لوجب أن نعرف ذلک أیضا بطریقه فإن قیل: أنتم قد انتهیتم إلی ذکر الإعجاز فی التفاصیل، و هذا الفصل إنما یدل علی الإعجاز فی الجملة. قیل هذا: کما أنه یدل علی التفصیل أیضا. فصح أن یلحق هذا القبیل، کما کان یصح أن یلحق بباب الجمل. و معنی سادس: و هو أن الذی ینقسم علیه الخطاب، من البسط و الاقتصار، و الجمع، و التفریق «۲»، و الاستعارة و التصریح، و التجوز و التحقیق، و نحو ذلک من الوجوه التی توجد

(۱) آیة (۲۹) سورة الأحقاف. (۲) قال السیوطی فی «الاتقان» ۱/ ۲۷۵، «هو أن تدخل شیئین فی معنی، و تفرق بین جهتی الإدخال. و جعل منه الطیبی قوله: «اللّه یتوفی الأنفس حین موتها» الآیة. جمع النفسین فی حکم التوفی، ثم فرق بین جهتی التوفی بالحکم بالإمساک و الإرسال. أی: اللّه یتوفی بالإمساک و الإرسال. أی: اللّه یتوفی الأنفس التی تقبض و التی لم تقبض، فیمسک إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۳۵ فی کلامهم، موجود فی القرآن. و کل ذلک مما یتجاوز حدود کلامهم المعتاد بینهم فی الفصاحة و الإبداع و البلاغة. و قد ضمّنا بیان ذلک بعد؛ لأن الوجه هاهنا ذکر المقدمات دون البسط و التفصیل. و معنی سابع: و هو أن المعانی التی تتضمن فی أصل وضع الشریعة و الأحکام و الاحتجاجات فی أصل الدین، و الرد علی الملحدین علی تلک الألفاظ البدیعة، و موافقة بعضها بعضا فی اللطف و البراعة، مما یتعذر علی البشر، و یمنع ذلک أنه قد علم أن تخیر الألفاظ للمعانی المتداولة المألوفة، و الأسباب الدائرة بین الناس، أسهل و أقرب من تخیّر الألفاظ لمعان مبتکرة، و أسباب مؤسسة مستحدثة. فلو أبرع اللفظ فی المعنی البارع، کان ألطف و أعجب من أن یوجد اللفظ البارع فی المعنی المتداول المتکرر، و الأمر المتقرر المتصور. ثم إن أضیف ذلک التصرف البدیع فی الوجوه التی تتضمن تأیید ما یبتدأ تأسیسه، و یراد تحقیقه، بان التفاضل فی البراعة و الفصاحة. ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعنی، و المعانی وفقها، لا یفضل أحدهما علی الآخر، فالبراعة أظهر، و الفصاحة أتم. و معنی ثامن: و هو أن الکلام یبین فضله و رجحان فصاحته؛ بأن نذکر منه الکلمة فی تضاعیف کلام، أو نقذف ما بین شعر فتأخذه الأسماع، و تتشوف إلیه النفوس و یری وجه رونقه بادیا غامرا سائر ما یقرن به، کالدرّة التی تری فی سلک من خرز، و کالیاقوتة فی واسطة العقد. و أنت تری الکلمة من القرآن یتمثل بها فی تضاعیف کلام کثیر. و هی غرة جمیعه، و واسطة عقده، و المنادی علی نفسه بتمییزه و تخصصه برونقه، و جماله و اعتراضه فی جنسه و مائه. و هذا الفصل أیضا مما یحتاج فیه إلی تفصیل و شرح و نص لیتحقق ما ادعیناه منه. و لو لا هذه الوجوه التی بیّناها لم یتحیر فیه أهل الفصاحة، و

لکانوا یفزعون إلی التعمل للمقابلة، و التصنع للمعارضة، و کانوا ینظرون فی أمرهم، و یراجعون أنفسهم. أو کان یراجع بعضهم بعضا فی معارضته، و یتوقفون لها. فلما لم نرهم اشتغلوا بذلک، علم أن أهل المعرفة منهم بالصنعة، إنما عدلوا عن هذه الأمور لعلمهم بعجزهم عنه، و قصور فصاحتهم دونه. و لا- یمتنع أن یلتبس علی من لم یکن بارعا فیهم و لا متقدما فی الفصاحة منهم هذه الحال، حتی لا- یعلم إلا- بعد نظر و تأمل، و حتی یعرف حال عجز غیره. إلا- أنا رأینا صنادیدهم و أعیانهم و وجوههم سلموا و لم یشتغلوا بذلک تحققا بظهور العجز و تبینا له.

الأولی و یرسل الأخری». إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۳۶ و أما قوله تعالی حکایة عنهم: قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا «۱» فقد یمکن أن یکونوا کاذبین فیما أخبروا به عن أنفسهم، و قد یمکن أن یکون هذا الکلام إنما خرج منهم و هو یدل علی عجزهم. و لذلک أورده اللّه مورد تقریعهم، لأنه لو کانوا علی ما وصفوا به أنفسهم لکانوا یتجاوزون الوعد إلی الإنجاز، و الضمان إلی الوفاء. فلما لم یستعملوا ذلک مع استمرار التحدی، و تطاول زمان الفسحة فی إقامة الحجة علیهم بعجزهم. إذ لو کانوا قادرین علی ذلک، لم یقتصروا علی الدعوی فقط. و معلوم من حالهم و حمیتهم أن الواحد منهم یقول فی الحشرات، و الهوام، و الحیات. و فی وصف الأزمة و الاتساع و الأمور التی لا یؤبه لها، و لا یحتاج إلیها، و یتنافسون فی ذلک أشد التنافس، و یتبجحون به أشد التبجح، فکیف یجوز أن تمکنهم معارضته فی هذه المعانی الفسیحة، و العبارات الفصیحة، مع تضمن المعارضة تکذیبه و الذب عن أدیانهم القدیمة، و إخراجهم أنفسهم من تسفیهه رأیهم، و تضلیله إیاهم، و التخلص من منازعته، ثم من محاربته و مقارعته، ثم لا یفعلون شیئا من ذلک، و إنما یحیلون أنفسهم علی التعالیل و یعللونها بالأباطیل. و معنی تاسع: و هو أن الحروف التی بنی علیها کلام العرب تسعة و عشرون حرفا، و عدد السور التی افتتح فیها بذکر الحروف ثمان و عشرون سورة، و جملة ما ذکر من هذه الحروف فی أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة، و هو أربعة عشر حرفا لیدل بالمذکور علی غیره، و لیعرفوا أن هذا الکلام منتظم من الحروف التی ینظمون بها کلامهم، و الذی ینقسم إلیه هذه الحروف علی ما قسمه أهل العربیة و بنوا علیها وجوهها أقسام نحن ذاکروها. فمن ذلک أنهم قسموها إلی حروف مهموسة و أخری مجهورة، فالمهموسة منها عشرة، و هی الحاء، و الهاء، و الخاء، و الکاف، و الشین، و الثاء، و الفاء، و التاء، و الصاد، و السین. و ما سوی ذلک من الحروف فهی مجهورة. و قد عرفنا أن نصف الحروف المهموسة مذکورة فی جملة الحروف المذکورة فی أوائل السور، و کذلک نصف الحروف المجهورة علی السواء، لا زیادة و لا نقصان. و المجهور معناه: أنه حرف أشبع الاعتماد فی موضعه، و منع أن یجری معه، حتی ینقضی الاعتماد. و یجری الصوت و المهموس کل حرف ضعف الاعتماد فی موضعه، حتی جری معه النفس. و ذلک مما یحتاج إلی معرفته لتبتنی علیه أصول العربیة. و کذلک مما یقسمون إلیه الحروف. یقولون إنها علی ضربین: أحدهما حروف

(۱) آیة (۳۱) سورة الأنفال. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۳۷ الحلق، و هی ستة أحرف: العین، و الحاء، و الهمزة، و الهاء، و الخاء، و الغین. و النصف من هذه الحروف مذکور فی جملة الحروف التی تشتمل علیها الحروف المبینة فی أوائل السور. و کذلک النصف من الحروف التی لیست بحروف الحلق. و کذلک تنقسم هذه الحروف إلی قسمین آخرین: أحدهما حروف غیر شدیدة، و إلی الحروف الشدیدة، و هی التی تمنع الصوت أن یجری فیه و هی: الهمزة، و القاف، و الکاف، و الجیم، و الظاء، و الذال، و الطاء، و الباء. و قد علمنا أن نصف هذه الحروف أیضا هی مذکورة فی جملة تلک الحروف التی بنی علیها تلک السور، و من ذلک الحروف المطبقة، و هی أربعة أحرف، و ما سواها منفتحة فالمطبقة: الطاء، و الظاء، و الضاد، و الصاد. و قد علمنا أن نصف هذه فی جملة الحروف المبدوء بها فی أوائل السور. و إذا کان القوم الذین قسموا فی الحروف هذه الأقسام، لأغراض لهم فی ترتیب العربیة و تنزیلها بعد الزمان الطویل من عهد النبی صلّی اللّه علیه و سلّم، و رأوا مبانی اللسان علی هذه الجهة. و قد نبه بما ذکر فی أوائل السور علی ما لم یذکر علی حد التصنیف الذی وصفنا، دل علی أن وقوعها الموقع الذی یقع التواضع علیه بعد العهد الطویل لا یجوز أن یقع إلا من اللّه عز و جل. لأن ذلک یجری

مجری علم الغیوب. و إن کان إنما نبهوا علی ما بنی علیه اللسان فی أصله، و لم یکن لهم فی التقسیم شیء، و إنما التأثیر لمن وضع أصل اللسان. فذلک أیضا من البدیع الذی یدل علی أن أصل وضعه وقع موقع الحکمة التی یقصر عنها اللسان. فإن کان أصل اللغة توقیفا فالأمر فی ذلک أبین. و إن کان علی سبیل التواضع، فهو عجیب أیضا؛ لأنه لا یصح أن تجتمع هممهم المختلفة علی نحو هذا إلا بأمر من عند اللّه تعالی. و کل ذلک یوجب إثبات الحکمة فی ذکر هذه الحروف علی حد یتعلق به الإعجاز من وجه، و قد یمکن أن تعاد فاتحة کل سورة لفائدة تخصها فی النظم إذا کانت حروفا کنحو (الم) لأن الألف المبدوء بها هی أقصاها مطلعا، و اللام متوسطة، و المیم متطرفة. لأنها تأخذ فی الشفة، فنبه بذکرها علی غیرها من الحروف. و بین أنه إنما أتاهم بکلام منظوم، بما یتعارفون من الحروف التی تردد بین هذین الطرفین. و یشبه أن یکون التصنیف وقع فی هذه الحروف دون الألف لأن الألف قد تلغی، و قد تقع الهمزة و هی موقعا واحدا. و معنی عاشر: و هو أنه سهّل سبیله، فهو خارج عن الوحشیّ المستکره، و الغریب المستنکر، و عن الصنعة المتکلّفة. و جعله قریبا إلی الأفهام، یبادر معناه لفظه إلی القلب، و یسابق المغزی منه عبارته إلی النفس، و هو مع ذلک ممتنع المطلب، عسیر المتناول، غیر مطمع مع قربه فی نفسه، و لا موهم مع دنوّه فی موقعه، أن یقدر علیه، أو یظفر به. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۳۸ فأما الانحطاط عن هذه الرتبة إلی رتبة الکلام المبتذل، و القول المسفسف، فلیس یصحّ أن تقع فیه فصاحة أو بلاغة، فیطلب فیه التمنع، أو یوضع فیه الإعجاز. و لکن لو وضع فی وحشی مستکره، أو غمر بوجوه الصنعة، و أطبق بأبواب التعسف و التکلف، لکان لقائل أن یقول فیه: و یعتذر و یعیب و یقرع. و لکنه أوضح مناره، و قرب منهاجه، و سهل سبیله، و جعله فی ذلک متشابها متماثلا. و بین مع ذلک إعجازهم فیه. و قد علمت أن کلام فصحائهم، و شعر بلغائهم، لا ینفک من تصرف فی غریب مستنکر، أو وحشی مستکره، و معان مستبعدة. ثم عدولهم إلی کلام مبتذل وضیع، لا یوجد دونه فی الرتبة. ثم تحولهم إلی کلام معتدل بین الأمرین، متصرف بین المنزلتین، فمن شاء أن یتحقق هذا نظر فی قصیدة امرئ القیس «۱»: «قفا نبک من ذکری حبیب و منزل» «۲». و نحن نذکر بعد هذا علی التفصیل، ما یتصرف إلیه هذه القصیدة و نظائرها و منزلتها من البلاغة، و نذکر وجه فوت نظم القرآن محلها، علی وجه یؤخذ بالید و یتناول من کتب، و یتصور فی النفس کتصور الأشکال، لیبین ما ادعیناه من الفصاحة العجیبة للقرآن. و اعلم أن من قال من أصحابنا إن الأحکام معللة بعلل موافقة مقتضی العقل، جعل هذا وجها من وجوه الإعجاز، و جعل هذه الطریقة دلالة فیه کنحو ما یعللون به الصلاة، و معظم الفروض و أصولها. و لهم فی کثیر من تلک العلل طرق قریبة، و وجوه تستحسن. و أصحابنا من أهل خراسان یولعون بذلک. و لکن الأصل الذی یبنون علیه عندنا غیر مستقیم، و فی ذلک کلام یأتی فی کتابنا فی الأصول. و قد یمکن فی تفاصیل ما أوردنا من المعانی الزیادة و الإفراد، فإنا جمعنا بین أمور و ذکرنا المزیة المتعلقة بها، و کل واحد من تلک الأمور مما قد یمکن اعتقاده فی إظهار الإعجاز فیه. فإن قیل: فهل تزعمون أنه معجز لأنه حکایة لکلام القدیم سبحانه، أو لأنه عبارة عنه، أو لأنه قدیم فی نفسه، قیل: لسنا نقول بأن الحروف قدیمة، فکیف یصح الترکیب علی الفاسد؟ و لا نقول أیضا إن وجه الإعجاز فی نظم القرآن أنه حکایة عن الکلام القدیم. لأنه لو

(۱) سبقت ترجمته. (۲) صدر البیت الأول من معلقته. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۳۹ کان کذلک لکانت التوراة و الإنجیل، و غیرهما من کتب اللّه عز و جل، معجزات فی النظم و التألیف. و قد بینا أن إعجازها فی غیر ذلک. و کذلک کان یجب أن تکون کل کلمة مفردة معجزة بنفسها، و متفردها، و قد ثبت خلاف ذلک. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۴۰

فصل: فی شرح ما بیّنا من وجوه إعجاز القرآن

فصل: فی شرح ما بیّنا من وجوه إعجاز القرآن فأما الفصل الذی بدأنا بذکره من الإخبار عن الغیوب، و الصدق، و الإصابة فی ذلک کله، فهو کقوله تعالی: قُلْ لِلْمُخَلَّفِینَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلی قَوْمٍ أُولِی بَأْسٍ شَدِیدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ یُسْلِمُونَ «۱» فأغزاهم أبو بکر «۲»، و

عمر «۳» رضـى اللّه عنهما، إلى قتال العرب و الفرس و الروم. و كقوله: الم، غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ «۴»، و راهن أبو بكر الصديق رضـى اللّه عنه فى ذلك، و صدق اللّه وعده. و كقوله فى قصة أهل بدر: سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ يُوَلُّونَ الدُّبُرَ «۵» و كقوله: لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ «۶». و كقوله: وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ «۷» فى قصـة أهل بدر و كقوله: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَما اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً «۸» و صـدق اللّـه تعـالى وعـده فى كـل ذلـك، و قـال فى قصـة المتخلفيـن عنـه فى غزوتـه: لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ

(۱) آية (۱۶) سورة الفتح. (۲) سبقت ترجمته. (۳) سبقت ترجمته. (۴) آية (۱: ۴) سورة الروم. (۵) آية (۴۵) سورة القمر. (۶) آية (۲۷) سورة الفتح. (۷) آية (۵) سورة الأنفال. (۸) آية (۵۵) سورة النور. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۴۱

أَبَداً وَ لَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا «۱» فحق ذلك كله و صـدق و لم يخرج من المخالفين الـذين خوطبوا بذلك معه أحد. و كقوله: لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ «۲» و كقوله: فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَكُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكاذِبِينَ «۳» فـامتنعوا من المباهلـة و لو أجابوا إليها اضـطرمت عليهم الأوديـة نارا، على ما ذكر فى الخبر. و كقوله: قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. وَ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ «۴» و لو تمنوه لوقع بهم هذا و ما أشبهه. و أما الوجه الثانى: الذى ذكرناه من إخباره عن قصـص الأولين، و سير المتقدمين، فمن العجيب الممتنع على من لم يقف على الأخبار، و لم يشتغل بدرس الآثار، و قد حكى فى القرآن تلك الأمور حكايـة من شـهدها، و حضـرها. و لذلك قال اللّه تعالى: وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ «۵» و قال: وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ وَ ما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ «۶» و قال: وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَ لكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ «۷» فبين وجه دلالـته من إخبـاره بهـذه الأمور الغائبة السالفة. و قال: تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا «۸» الآية. فأما الكلام فى الوجه الثالث: و هو الـذى بينـاه من الإعجـاز الواقع فى النظم و التـأليف و الرصف، فقـد ذكرنا من هـذا الوجه وجوها منها أنا قلنا: إنه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتـاد فى كلامهم، و مبـاين لأساليب خطابهم. و من ادعى ذلك لم يكن له بـد من أن يصـحح أنه ليس من قبيل الشـعر، و لا السـجع، و لا الكلام المـوزون غير المقفى، لأن قـوما

(۱) آيـة (۸۳) سـورة التوبـة. (۲) آية (۲۳) سورة التوبة. (۳) آية (۶۱) سورة آل عمران. (۴) آية (۹۴، ۹۵) سورة البقرة. (۵) آية (۶) سورة العنكبوت. (۶) آية (۴۴) سورة القصص. (۷) آية (۴۶) سورة القصص. (۸) آية (۴۹) سورة هود. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۴۲ من كفار قريش ادعوا أنه شعر، و من الملحدة من يزعم أن فيه شعرا، و من أهل الملة من يقول: إنه كلام مسجّع، إلا أنه أفصح مما قد اعتادوه من أسجاعهم، و منهم من يدعى أنه كلام موزون، فلا يخرج بذلك عن أصناف ما يتعارفونه من الخطاب. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۴۳

فصل: فى نفى الشعر من القرآن

فصل: فى نفى الشعر من القرآن قد علمنا أن اللّه تعالى نفى الشعر من القرآن، و عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ «۱» و قال فى ذم الشعراء: وَ الشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ. أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ «۲» إلى آخر ما وصـفهم به فى هـذه الآيات فقال: وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ «۳» و هـذا يـدل على أن ما حكاه عن الكفار، من قولهم إنه شاعر، و إن هـذا شعر، لا ـ بـد من أن يكون محمولا ـ على أنهم نسبوه فى القرآن إلى أن الـذى أتـاهم به هو من قبيـل الشـعر الـذى يتعارفونه على الأعـاريض المحصورة المألوفـة؛ أو يكون محمولا ـ على ما كان يطلق الفلاسـفة على حكمائهم و أهل الفطنـة منهم فى وصـفهم إياهم

بالشعر، لدقة نظرهم فی وجوه الکلام، و طرق لهم فی المنطق. و إن کان ذلک الباب خارجا عما هو عند العرب شعر علی الحقیقة، أو یکون محمولا علی أنه أطلق من بعض الضعفاء منهم فی معرفة أوزان الشعر، و هذا أبعد الاحتمالات. فإن حمل علی الوجهین الأولین کان ما أطلقوه صحیحا؛ و ذلک أن الشاعر یفطن لما لا یفطن له غیره. و إذا قدر علی صنعة الشعر کان علی ما دونه فی رأیهم و عندهم أقدر فنسبوه إلی ذلک لهذا السبب. فإن زعم زاعم أنه قد وجد فی القرآن شعرا کثیرا، فمن ذلک ما یزعمون أنه بیت تام، أو أبیات تامة، و منه ما یزعمون أنه مصراع کقول القائل: «قد قلت لما حاولوا سلوتی هیهات هیهات لما توعدون» و مما یزعمون أنه بیت قوله سبحانه: وَ جِفانٍ کَالْجَوابِ وَ قُدُورٍ راسِیاتٍ «۴». قالوا هو من الرمل من البحر الذی قیل فیه: «ساکن الریح نطوف ال مزن منحلّ العزالی (________________________________» ۱) آیة (۶۹) سورة یس. (۲) آیة (۲۲۴– ۲۲۵) سورة الشعراء. (۳) آیة (۴۱) سورة الحاقة. (۴) آیة (۱۳) سورة سبأ. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۴۴ و کقوله: وَ مَنْ تَزَکَّی فَإِنَّما یَتَزَکَّی لِنَفْسِهِ «۱» کقوله الشاعر من بحر الخفیف: «کل یوم بشمسه و غد مثل أمسه» و کقوله عز و جل: وَ مَنْ یَتَّقِ اللَّهَ یَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً. وَ یَرْزُقْهُ مِنْ حَیْثُ لا یَحْتَسِبُ «۲». و کقوله: وَ دانِیَةً عَلَیْهِمْ ظِلالُها وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِیلًا «۳» و یشبعون حرکة المیم فیزعمون أنه من الرجز، و ذکر عن أبی نواس «۴» أنه ضمن ذلک شعرا و هو قوله: و فتیة فی مجلس وجوههم ریحانهم قد عدموا التثقیلا- «دانیة علیهم ظلالها و ذللت قطوفها تذلیلا» و قوله عز و جل: وَ یُخْزِهِمْ وَ یَنْصُرْکُمْ عَلَیْهِمْ وَ یَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِینَ «۵». زعموا أنه من الوافر کقوله الشاعر: لنا غنم نسوّقها غزار کأنّ قرون جلّتها عصیّ و کقوله عز و جل: أَ رَأَیْتَ الَّذِی یُکَذِّبُ بِالدِّینِ. فَذلِکَ الَّذِی یَدُعُّ الْیَتِیمَ «۶» ضمنه أبو نواس فی شعره ففصل و قال: فذاک الذی. و شعره: و قرا معلنا لیصدع قلبی و الهوی یصدع الفؤاد السقیما أ رأیت الذی یکذب بالدی ن فذاک الذی یدعّ الیتیما و هذا من الخفیف کقول الشاعر: و فؤادی کعهده بسلیمی یهوی لم یحل و لم یتغیّر و کما ضمنه فی شعره من قوله: «سبحان من سخر هذا لنا «حقا» و ما کنا له مقرنین» فزاد فیه حتی انتظم له الشعر، و کما یقولونه فی قوله عز و جل: وَ الْعادِیاتِ ضَبْحاً* فَالْمُورِیاتِ قَدْحاً «۷» و نحو ذلک فی القرآن کثیر کقوله: وَ الذَّارِیاتِ ذَرْواً فَالْحامِلاتِ (________________________________ ۱) آیة (۱۸) سورة فاطر. (۲) آیة (۲، ۳) سورة الطلاق. (۳) آیة (۱۴) سورة الإنسان. (۴) أبو نواس هو: الحسن بن هانئ، ولد فی «الأهواز» سنة (۱۴۵) فی خلافة أبی جعفر المنصور، و قبل أن یتجاوز السنة الثانیة من عمره انتقل والداه إلی البصرة فنشأ فیها. مات سنة (۱۹۸). له ترجمة فی: الأغانی ۱۸ /۲، و وفیات الأعیان ۱/ ۱۳۵، و الفهرست (۱۶۰). (۵) آیة (۱۴) سورة التوبة. (۶) آیة (۱۴، ۱۵) سورة الماعون. (۷) آیة (۱، ۲) سورة العادیات. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۴۵ وِقْراً. فَالْجارِیاتِ یُسْراً «۱» و هو عندهم شعر من بحر البسیط. و الجواب عن هذه الدعوی التی ادعوها من وجوه أولها أنّ الفصحاء منهم حین أورد علیهم القرآن، لو کانوا یعتقدونه شعرا، و لم یروه خارجا عن أسالیب کلامهم، لبادروا إلی معارضته، لأن الشعر مسخر لهم، سهل علیهم، فیه ما قد علمت من التصرف العجیب و الاقتدار اللطیف. فلما لم نرهم اشتغلوا بذلک و لا عولوا علیه، علم أنهم لم یعتقدوا فیه شیئا مما یقدره الضعفاء فی الصنعة، و المرملون فی هذا الشأن. و إن استدراک من یجیء الآن علی فصحاء قریش، و شعراء العرب قاطبة فی ذلک الزمان، و بلغائهم و خطبائهم و زعمه أنه قد ظفر بشعر فی القرآن ذهب أولئک النفر عنه، و خفی علیهم شدة حاجاتهم إلی الطعن فی القرآن و الغض عنه و التوصل إلی تکذیبه بکل ما قدروا علیه. فلن یجوز أن یخفی علی أولئک و أن یجهلوه و یعرفه من جاء الآن و هو بالجهل حقیق. و إذا کان کذلک علم أن الذی أجاب به العلماء عن هذا السؤال شدید، و هو أنهم قالوا: إن البیت الواحد و ما کان علی وزنه لا یکون شعرا، و أقل الشعر بیتان فصاعدا. و إلی ذلک ذهب أکثر أهل صناعة العربیة من أهل الإسلام. و قالوا أیضا: إن ما کان وزن بیتین، إلا أنه یختلف رویهما و قافیتهما، فلیس بشعر. ثم منهم من قال: إن الرجز لیس بشعر أصلا، لا سیما إذا کان مشطورا، أو منهوکا. و کذلک ما کان یقارنه فی قلة الأجزاء. و علی هذا یسقط السؤال. ثم یقولون: إن الشعر إنما یطلق متی قصد القاصد إلیه علی الطریق الذی یتعمد و یسلک، و لا یصح أن یتفق مثله إلا من الشعراء، دون ما یستوی فیه العامیّ و الجاهل، و العالم بالشعر و اللسان و تصرفه. و ما یتفق من کل واحد،

فليس يكتسب اسم الشعر، و لا صاحبه اسم شاعر، لأنه لو صح أن يسمى كل من اعترض فى كلامه ألفاظ تتزن بوزن الشعر، أو تنتظم انتظام بعض الأعاريض، كان الناس كلهم شعراء. لأن كل متكلم لا ينفك من أن يعرض فى جملة كلام كثير يقوله ما قد يتزن بوزن الشعر، و ينتظم انتظامه، أ لا ترى أن العامى قد يقول لصاحبه: أغلق الباب و ائتنى بالطعام، و يقول الرجل لأصحابه: أكرموا من لقيتم من تميم. و متى تتبع الإنسان هذا، عرف أنه يكثر فى تضاعيف الكلام مثله، و أكثر منه. و هذا القدر الذى يصح فيه التوارد ليس يعده أهل الصناعة سرقة، إذ لم تعلم فيه حقيقة

(۱) آية (۱: ۳) سورة الذاريات. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۴۶ الأخذ، كقول امرئ القيس «۱»: وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى و تجلد «۲» و مثل هذا كثير. فإذا صح مثل ذلك فى بعض البيت، و لم يمتنع التوارد فيه، فكذلك لا يمتنع وقوعه فى الكلام المنثور اتفاقا غير مقصود إليه. فإذا اتفق، لم يكن شعرا. و كذلك يمتنع التوارد على بيتين، و كذلك يمتنع فى الكلام المنثور وقوع البيتين و نحوهما، فثبت بهذا أن ما وقع هذا الموقع لم يعد شعرا، و إنما يعد شعرا ما إذا قصده صاحبه، تأتى له و لم يمتنع عليه. فإذا كان هو مع قصده، لا يتأتى له، و إنما يعرض فى كلامه عن غير قصد إليه، لم يصح أن يقال إنه شعر، و لا أن صاحبه شاعر، و لا يصح أن يقال: إن هذا يوجب أن مثل هذا لو اتفق من شاعر، فيجب أن يكون شعرا؛ لأنه لو قصده لكان يتأتى منه. و إنما لم يصح ذلك؛ لأن ما ليس بشعر، فلا يجوز أن يكون شعرا من أحد. و ما كان شعرا من أحد من الناس، كان شعرا من كل أحد. أ لا ترى أن السوقىّ قد يقول أسقنى الماء يا غلام سريعا؟ قد يتفق ذلك مع الساهى، و من لا يقصد النظم. فأما الشعر إذا بلغ الحد الذى بيّنّا، فلا يصح أن يقع إلا من قاصد إليه. فأما الرجز فإنه يعرض فى كلام العوام كثيرا. فإذا كان بيتا واحدا فليس ذلك بشعر. و قد قيل إنّ أقل ما يكون منه شعرا أربعة أبيات، بعد أن تتفق قوافيها. و لم يتفق ذلك فى القرآن بحال. فأما دون أربعة أبيات منه، أو ما يجرى مجراه فى قلة الكلمات، فليس بشعر. و ما اتفق فى ذلك من القرآن مختلف الروى. و يقولون إنه متى اختلف الروى خرج من أن يكون شعرا. و هذه الطرق التى سلكوها فى الجواب معتمدة، أو أكثرها. و لو كان ذلك شعرا، لكانت النفوس تتشوف إلى معارضته، لأن طريق الشعر غير مستصعب على أهل الزمان الواحد، و أهله يتقاربون فيه، أو يضربون فيه بسهم. فإن قيل: فى القرآن كلام موزون كوزن الشعر، و إن كان غير مقفى، بل هو مزاوج، متساوى الضروب، و ذلك آخر أقسام كلام العرب. قيل: من سبيل الموزون من كلام، أن يتساوى أجزاءه فى الطول و القصر و السواكن و الحركات. فإن خرج عن ذلك لم يكن موزونا

(۱) سبقت ترجمته. (۲) بيت من معلقته الشهيرة. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۴۷ كقوله: «رب أخ كنت به مغتبطا أشدّ كفّى بعرى صحبته تمسكا منى بالود و لا أحسبه يزهد فى ذى أمل تمسكا منى بالود و لا أحسبه بغير العهد و لا يحول عنه أبدا فخاب فيه أملى» و قد علمنا أن هذا القرآن ليس من هذا القبيل، بل هذا قبيل غير ممدوح، و لا مقصود من جملة الفصيح. و ربما كان عندهم مستنكرا، بل أكثره على ذلك. و كذلك ليس فى القرآن من الموزون الذى وصفناه أولا، و هو الذى شرطنا فيه التعادل و التساوى فى الأجزاء، غير الاختلاف الواقع فى التقفية، و يبين ذلك أن القرآن خارج عن الوزن الذى بيّنا، و تتم فائدته بالخروج منه. و أما الكلام الموزون فإن فائدته تتم بوزنه. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۴۸

فصل: فى نفى السجع من القرآن

فصل: فى نفى السجع من القرآن ذهب أصحابنا كلهم إلى نفى السجع من القرآن. و ذكره أبو الحسن «۱» الأشعرى فى غير موضع من كتبه. و ذهب كثير ممن يخالفهم إلى إثبات السجع فى القرآن، و زعموا أن ذلك مما يبين به فضل الكلام. و أنه من الأجناس التى يقع بها التفاضل فى البيان، و الفصاحة كالتجنيس، و الالتفات و ما أشبه ذلك من الوجوه التى تعرف بها الفصاحة. و أقوى ما يستدلون

به علیه اتفاق الکل علی أن موسی أفضل من هارون علیهما السلام، و لمکان السجع قیل فی موضع هارُونَ وَ مُوسی «۲» و لما کانت الفواصل فی موضع آخر بالواو و النون قبل مُوسی وَ هارُونَ «۳» قالوا: هذا لا یفارق أمر الشعر؛ لأنه لا یجوز أن یقع فی الخطاب إلا مقصودا إلیه. و إذا وقع غیر مقصود إلیه، کان دون القدر الذی یسمی شعرا. و ذلک القدر ما یتفق وجوده من المفحم، کما یتفق وجوده من الشاعر. و أما ما فی القرآن من السجع فهو کثیر، لا یصح أن یتفق کله غیر مقصود إلیه. و یبنون الأمر فی ذلک علی تحدید معنی السجع. قال أهل اللغة «هو موالاة الکلام علی وزن واحد». قال ابن درید «۴»: «سجعت الحمامة معناها رددت صوتها». و أنشد: طربت فأبکتک الحمام السواجع تمیل بها ضحوا غصون نوائع النوائع الموائل، من قولهم جائع نائع أی متمایل ضعفا. و هذا الذی یزعمونه غیر (______________________________ ۱) أبو الحسن الأشعری

هو: علی بن إسماعیل بن إسحاق الأشعری، من ولد أبی موسی الأشعری، صاحب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم. مات سنة (۳۲۴). له ترجمة فی: تاریخ بغداد ۱۱/ ۳۴۶، و وفیات الأعیان ۳/ ۲۸۴، و شذرات الذهب ۲/ ۳۰۳. (۲) آیة (۷۰) سورة طه. (۳) آیة (۱۲۲) سورة الأعراف. (۴) ابن درید هو: أبو بکر محمد بن الحسین بن درید الأزدی، ولد بالبصرة، و نشأ و تعلم فیها، و قد نبغ فی اللغة، و کان من أکابرها، مقدما فیها. مات سنة (۳۲۱). له ترجمة فی: تاریخ بغداد ۲/ ۱۹۵، و شذرات الذهب ۲/ ۲۸۹، و وفیات الأعیان ۱/ ۴۹۷. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۴۹ صحیح. و لو کان القرآن سجعا، لکان غیر خارج عن أسالیب کلامهم، و لو کان داخلا فیها، لم یقع بذلک إعجازا. و لو جاز أن یقال هو سجع معجز لجاز لهم أن یقولوا شعر معجز. و کیف و السجع مما کان یألفه الکهان من العرب، و نفیه من القرآن أجدر بأن یکون حجة من نفی الشعر، لأن الکهانة تنافی النبوات، و لیس کذلک الشعر. و قد روی أن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم قال للذین جاءوا و کلموه فی شأن الجنین: کیف ندی من لا أکل و لا شرب و لا صاح. فاستهل: أ لیس دمه قد یطل؟ فقال: «أ سجاعة کسجاعة الجاهلیة؟ و فی بعضها أ سجعا کسجع الکهان» «۱»؟ فرأی ذلک مذموما لم یصح أن یکون فی دلالته، و الذی یقدرونه أنه سجع فهو و هم، لأنه قد یکون الکلام علی مثال السجع، و إن لم یکن سجعا، لأن ما یکون به الکلام سجعا یختص ببعض الوجوه دون بعض، لأن السجع من الکلام یتبع المعنی فیه اللفظ الذی یؤدی السجع، و لیس کذلک ما اتفق مما هو فی تقدیر السجع من القرآن. لأن اللفظ یقع فیه تابعا للمعنی. و فصل بین أن ینتظم الکلام فی نفسه بألفاظه التی تؤدی المعنی المقصود فیه، و بین أن یکون المعنی منتظما دون اللفظ. و متی ارتبط المعنی بالسجع، کانت إفادة السجع کإفادة غیره. و متی ارتبط المعنی بنفسه دون السجع، کان مستجلبا لتجنیس الکلام دون تصحیح المعنی. فإن قیل: فقد یتفق فی القرآن ما یکون من القبیلین جمیعا، فیجب أن تمسّوا أحدهما سجعا. قیل: الکلام فی تفصیل هذا خارج عن عرض کتابنا، و إلا کنا نأتی علی فصل فصل من أول القرآن إلی آخره، و نبین فی الموضع الذی یدعون الاستغناء عن السجع من الفوائد ما لا یخفی. و لکنه خارج عن غرض کتابنا، و هذا القدر یحقق الفرق بین الموضعین. ثم إن سلم لهم مسلم موضعا أو مواضع معدودة، و زعم أن وقوع ذلک موقع الاستراحة فی الخطاب إلی الفواصل لتحسین الکلام بها، و هی الطریقة التی یباین القرآن بها سائر الکلام. و زعم أن الوجه فی ذلک أنه من باب الفواصل. أو زعم أن ذلک وقع غیر مقصود إلیه، و أن ذلک إذا اعترض فی الخطاب لم یعد سجعا، علی ما قد بینا من القلیل من الشعر کالبیت الواحد، و المصراع، و البیتین من الرجز. و نحو ذلک یعرض فیه فلا یقال إنه شعر؛ لأنه لا یقع مقصودا إلیه، و إنما یقع مغمورا فی الخطاب. فکذلک حال السجع، الذی یزعمونه و یقدرونه. و یقال لهم: لو کان الذی فی القرآن (______________________________ ۱) النسائی ۸/ ۵۲، و الطبرانی ۱۷/

۱۴۲، و المجمع ۶/ ۳۰۰، و عزاه إلی الأخیر من طریق محمد بن سلیمان بن مسمول، و هو ضعیف. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۵۰ علی ما تقدرونه سجعا، لکان مذموما مرذولا؛ لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه، و اختلفت طرقه، کان قبیحا من الکلام. و للسجع منهج مرتب، محفوظ، و طریق مضبوط، متی أخل به المتکلم أوقع الخلل فی کلامه، و نسب إلی الخروج عن الفصاحة. کما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود، کان مخطئا، و کان شعره مرذولا، و ربما أخرجه عن کونه شعرا. و قد علمنا أن بعض ما یدعونه سجعا،

متقارب الفواصل، متدانى المقاطع، و بعضها مما يمتد حتى يتضاعف طوله عليه. و ترد الفاصلة على ذلك الوزن الأول بعد كلام كثير. و هذا فى السجع غير مرضى، و لا محمود. فإن قيل: متى خرج السجع المعتدل إلى نحو ما ذكرتموه، خرج من أن يكون سجعا. و ليس على المتكلم أن يلتزم بأن يكون كلامه كله سجعا. بل يأتى به طورا، ثم يعدل عنه إلى غيره، ثم قد يرجع إليه. قيل: متى وقع أحد مصراعى البيت مخالفا للآخر، كان تخليطا و خبطا. و كذلك متى اضطرب أحد مصراعى الكلام المسجع و تفاوت كان خبطا. و علم أن فصاحة القرآن غير مذمومة فى الأصل، فلا يجوز أن يقع فيها نحو هذا الوجه من الاضطراب. و لو كان الكلام الذى هو فى صورة السجع منه، لما تحيروا فيه، و كانت الطباع تدعو إلى المعارضة؛ لأن السجع غير ممتنع عليهم، بل هو عادتهم. فكيف تنقص العادة بما هو نفس العادة. و هو غير خارج عنها، و لا مميز منها. و قد يتفق فى الشعر كلام على منهاج السجع و ليس بسجع عندهم. و ذلك نحو قول البحترى «۱»: تشكّى الوجى و الليل ملتبس الدّجى عزيزية الأنساب مرت نقيعها و قوله: قريب المدى حتى يكون إلى النّدى عدو البنا حتى يكون معالى و رأيت بعضهم يرتكب هذا، فيزعم أنه سجع مداخل، و نظيره من القرآن قوله تعالى: ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُخْزِيهِمْ وَ يَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ «۲» و قوله: أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها «۳» و قوله: أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهادٍ فِي (______________________________ ۱) البحترى هو: أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائى، ولد بمنبج من أعمال الشام، و تخرج بها، و انتقل إلى العراق فى خدمة المتوكل و وزيره الفتح بن خاقان، و له الحرمة التامة حتى قتلا، فرجع إلى منبج. مات سنة (۲۸۴). له ترجمة فى: شذرات الذهب ۲/ ۱۸۶، و وفيات الأعيان ۲/ ۱۷۵، و الفهرست (۱۶۵). (۲) آية (۲۷) سورة النحل. (۳) آية (۱۶) سورة الإسراء. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۵۱ سَبِيلِهِ «۱» و قوله: وَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ رَسُولًا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ «۲» و قوله: إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي «۳» و لو كان ذلك عندهم سجعا لم يتحيروا فيه ذلك التحير، حتى سماه بعضهم سحرا، و تصرفوا فيما كانوا يسمونه به، و يصرفونه إليه، و يتوهمونه فيه. و هم فى الجملة عارفون بعجزهم عن طريقه، و ليس القوم بعاجزين عن تلك الأساليب المعتادة عندهم، المألوفة لديهم، و الذى تكلمنا به فى هذا الفصل كلام على جملة دون التفصيل. و نحن نذكر بعد هذا فى التفصيل، ما يكشف عن مباينة ذلك وجوه السجع. و من جنس السجع المعتاد عندهم قول أبى طالب، لسيف بن ذى يزن «۴»: «انبتك منبتا طابت أرومته، و عزت جرثومته، و ثبت أصله، و بسق فرعه، و نبت زرعه، فى أكرم موطن و أطيب معدن» و ما يجرى هذا المجرى من الكلام. و القرآن مخالف لنحو هذه الطريقة، مخالفته للشعر، و سائر أصناف كلامهم الدائر بينهم. و لا معنى لقولهم إن ذلك مشتق من ترديد الحمامة صوتها على نسق واحد، و روىّ غير مختلف. لأن ما جرى هذا المجرى لا يبنى على الاشتقاق وحده، و لو بنى عليه لكان الشعر سجعا، لأن رويّه يتفق و لا يختلف، و تتردد القوافى على طريقة واحدة. و أما الأمور التى يستريح إليها الكلام، فإنها تختلف. فربما كان ذلك يسمى قافية، و ذلك إنما يكون فى الشعر. و ربما كان ما ينفصل عنده الكلامان يسمى مقاطع السجع. و ربما سمى ذلك فواصل. و فواصل القرآن مما هو مختص بها، لا شركة بينه و بين سائر الكلام فيها، و لا تناسب. و أما ما ذكروه من تقديم موسى على هارون عليهما السلام فى موضع، و تأخيره عنه فى موضع لمكان السجع، و لتساوى مقاطع الكلام، فليس بصحيح. لأن الفائدة عندنا غير ما ذكروه. و هى أن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدى معنى واحدا من الأمر الصعب الذى تظهر فيه الفصاحة، و تتبين فيه البلاغة. و أعيد كثير من القصص فى مواضع مختلفة على ترتيبات متفاوتة، و نبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ به و مكررا. و لو كان فيهم تمكن من المعارضة لقصدوا تلك القصة فعبروا عنها بألفاظ لهم تؤدى معناها، و تحويها، و جعلوها بإزاء ما جاء به، و توصلوا بذلك إلى تكذيبه و إلى مساواته فيما جاء به (______________________________ ۱) آية (۲۴) سورة التوبة. (۲) آية (۴۸، ۴۹) سورة آل عمران. (۳) آية (۴) سورة مريم. (۴) ابن ذى أصبح بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع ابن العرنجج، و هو: حمير بن سبأ. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۵۲ كيف و قد قال لهم: فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ «۱» فعلى هذا يكون المقصد بتقديم بعض

الكلمـات، و تأخيرهـا إظهارا للإعجاز على الطريقين جميعا، دون التسـجيع الـذى توهموه. فإن قال قائل: القرآن مختلط من أول أوزان كلام العرب، ففيه من جنس خطبهم و رسائلهم و سجعهم و موزون كلامهم الـذى هو غير مقفى. و لكنه أبـدع فيه ضـربا من الإبـداع لبراعته و فصـاحته، قيل: قـد علمنا أن كلامهم ينقسم إلى نظم، و نثر، و كلام مقفى غير موزون، و نظم موزون، ليس بمقفى، كالخطب و السـجع، و نظم مقفى موزون له روىّ، و من هـذه الأقسام ما هو سـجية الأغلب من الناس، فتناوله أقرب، و سـلوكه لا يتعذر، و منه ما هو أصعب تناولا، كالموزون عند بعضهم، أو الشعر عند الآخرين، و كل هذه الوجوه لا تخرج عن أن يقع لهم بأحد أمرين: إما بتعمل، أو بتكلـف و تعلم و تصـنع، أو باتفـاق من الطبـع و قـذف من النفس على اللسـان للحاجـة إليه. و لو كـان ذلـك ممـا يجوز اتفـاقه من الطبـائع، لم ينفـك العـالم من قوم يتفق ذلك منهم و يتعرض على ألسـنتهم، و تجيش به خواطرهم. و لا ينصـرف عنـد الكل مع شـدة الدواعى إليه. و لو كان طريقه التعلم لتصنعوه و لتعلموه فالمهلة لهم فسيحة، و الأمد واسع. و قد اختلفوا فى الشعر كيف اتفق لهم؟ فقد قيل: إنه اتفاق فى الأصل غير مقصود إليه على ما يعرض من أصـناف النظام فى تضاعيف الكلام، ثم لما استحسـنوه و استطابوه و رأوا أنه تـألفه الأسـماع و تقبله النفـوس، تتبعـوه من بعـد و تعلموه. و حكى لى بعضـهم عن أبى عمر «۲» و غلاـم ثعلـب، عن ثعلب «۳»: أن العرب تعلّم أولادها قول الشـعر بوضع غير معقول يوضع على بعض أوزان الشعر كأنه على وزن: «قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل» و يسـمون ذلك الوضع الميتر، و اشـتقاقه من المتر، و هو الجـذب أو القطع، يقال مترت الحبل، بمعنى قطعته أو جـذبته. و لم يـذكر هذه الحكايهٔ عنهم غيره فيحتمل ما قاله، و أما ما وقع السبق إليه فيشبه أن يكون على ما قدمنا ذكره أولا. و قد يحتمل على قول من قال: بأن اللغـهٔ اصـطلاح، أنهم تواضـعوا على هذا الوجه من النظم. و قد يمكن أن يقال مثله على المذهب الآخر، و أنهم وقفوا على ما ينصـرف إليـه (______________________________ ۱) آيـهٔ (۳۴) سـورهٔ الطـور. (۲)

اختلف فى اسـمه على أحـد و عشـرين قولاـ أصـحها زبان. (۳) ثعلب هـو: أبـو العبـاس ثعلب إمـام الكـوفيين فى النحـو و اللغـهٔ. و من مصـنفاته: معانى القرآن، و معانى الشـعر، و القراءات، و غريب القرآن. مات سـنهٔ (۲۹۱). له ترجمـهٔ فى: بغيهٔ الوعاهٔ ۱/ ۳۹۶، و وفيات الأعيان ۱/ ۳۰، و معجم الأدباء ۲/ ۱۳۳، و الفهرست (۷۴). إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۵۳ القول من وجوه التفاصح، أو توافقوا هم بينهم على ذلك، و يمكن أن يقال: إن التواضع وقع على أصل الباب، و كـذلك التوقيف، و لم يقع على فنون تصـرف الخطاب، و إن اللّه تعـالى أجرى على لسـان بعضـهم من النظم ما أجرى، و فطنوا لحسـنه فتتبعوه من بعـد و بنوا عليه و طلبوه و رتبوا فيه المحاسن التى يقع الاضـطراب بوزنها، و تهش النفوس إليها، و جمع دواعيهم و خواطرهم على استحسان وجوه من ترتيبها، و اختيار طرق من تنزيلها. و عرفهم محاسن الكلام و دلهم على كل طريقـهٔ عجيبهٔ، ثم أعلمهم عجزهم عن الإتيان بالقرآن، و القدر الذى يتناهى إليه قدرهم، هو ما لم يخرج عن لغتهم، و لم يشذ من جميع كلامهم. بل قد عرض فى خطابهم و وجدوا أن هذا إنما تعذر عليهم مع التحدى و التقريع الشديد، و الحاجهٔ الماسهٔ إليه مع علمهم بطريق وضع النظم و النثر. و تكامل أحوالهم فيه دل على أنه اختص به ليكون دلالهٔ على النبوهٔ و معجزهٔ على الرسالهٔ، و لو لا ذلك لكان القوم إذا اهتدوا فى الابتداء إلى وضع هذه الوجوه التى يتصـرف إليها الخطاب على براعته و حسن انتظـامه، فلأـن يقـدروا بعـد التنبيه على وجهه، و التحـدى إليه أولى أن يبادروا إليه لو كان لهم إليه سبيل، فلو كان الأمر على ما ذكره السائـل، لوجب أن لاـ يتحيروا فى أمرهم، و لاـ تـدخل عليهم شـبههٔ فيمـا نـابهم، و لكانوا يسـرعون إلى الجواب، و يبادرون إلى المعارضهٔ. و معلوم من حالهم أن الواحد منهم يقصد إلى الأمور البعيدهٔ عن الوهم و الأسباب التى لا يحتاج إليها، فيكثر فيها من شعر و رجز، و نجـد من يعينه على نقله عنه على ما قدمنا ذكره من وصف الإبل و نتاجها. و كثير من أمرها لا فائدهٔ فى الاشـتغال به فى دين و لا دنيا. ثم كانوا يتفاخرون باللسن و الذلاقهٔ و الفصاحهٔ و الذرابهٔ، و يتنافرون فيه. و تجرى بينهم فيه الأسـباب المنقولهٔ فى الآثار على ما لاـ يخفى على أهله. فاسـتدللنا بتحيّرهم فى أمر القرآن على خروجه عن عـادهٔ كلاـمهم، و وقوعه موقعـا يخرق العـادات، و هـذه سـبيل المعجزات، فبـان بمـا قلنـا إن الحروف التى وقعت فى الفواصل متناسـبهٔ موقع النظائر التى تقع فى الإسـجاع، لا يخرجها عن حـدها و لا يـدخلها فى بـاب السـجع. و قـد بينـا أنهم يـذمون كـل سـجع خرج عن اعتـدال الأـجزاء، فكان بعض مصاريعه كلمتين، و بعضـها تبلغ

کلمات، و لا یرون فی ذلک فصاحة؛ بل یرونه عجزا. فلو رأوا أن ما تلی علیهم من القرآن سجعا، لقالوا: نحن نعارضه بسجع معتدل، فنزید فی الفصاحة علی طریقة القرآن، و نتجاوز حده فی البراعة و الحسن، و لا- معنی لقول من قدر أنه ترک السجع إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۵۴ تارة إلی غیره ثم رجع إلیه؛ لأن ما تخلل بین الأمرین یؤذن بأن وضع الکلام غیر ما قدروه من التسجیع لأنه لو کان من باب السجع، لکان أرفع نهایاته و أبعد غایاته، و لا بد لمن جوز السجع فیه و سلک ما سلکوه من أن یسلم ما ذهب إلیه النظام، و عباد بن سلمان، و هشام القرطی، و یذهب مذهبهم فی أنه لیس فی نظم القرآن و تألیفه إعجاز، و أنه یمکن معارضته، و إنما صرفوا عنه ضربا من الصرف، و یتضمن کلامه تسلیم الخبط فی طریقة النظم، و أنه منتظم من فرق شتی، و من أنواع مختلفة ینقسم إلیها خطابهم و لا یخرج عنها، و یستهین ببدیع نظمه و عجیب تألیفه الذی وقع التحدی إلیه، و کیف یعجزهم الخروج عن السجع و الرجوع إلیه. و قد علمنا عادتهم فی خطبهم و کلامهم، أنهم کانوا لا یلزمون أبدا طریقة السجع و الوزن، بل کانوا یتصرفون فی أنواع مختلفة، فإذا ادّعوا علی القرآن مثل ذلک، لم یجدوا فاصلة بین نظمی الکلامین. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۵۵

فصل: فی ذکر البدیع من الکلام

فصل: فی ذکر البدیع من الکلام إن سأل سائل فقال: «هل یمکن أن یعرف إعجاز القرآن من جهة ما یتضمنه من البدیع؟». و قیل: ذکر أهل الصنعة و من صنّف فی هذا المعنی من صفة البدیع ألفاظا نحن نذکرها، ثم نبین ما سألوا عنه، لیکون الکلام واردا علی أمر مبیّن مقرر، و باب مصور. ذکروا أن من البدیع فی القرآن قوله عز ذکره: وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ «۱» و قوله: وَ إِنَّهُ فِی أُمِّ الْکِتابِ لَدَیْنا لَعَلِیٌّ حَکِیمٌ «۲» و قوله: وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَیْباً «۳» و قوله: وَ آیَةٌ لَهُمُ اللَّیْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ «۴» و قوله: أَوْ یَأْتِیَهُمْ عَذابُ یَوْمٍ عَقِیمٍ «۵» و قوله: نُورٌ عَلی نُورٍ «۶». و قد یکون البدیع من الکلمات الجامعة الحکیمة کقوله: وَ لَکُمْ فِی الْقِصاصِ حَیاةٌ «۷» و فی الألفاظ الفصیحة کقوله: فَلَمَّا اسْتَیْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِیًّا «۸» و فی الألفاظ الإلهیة کقوله: وَ لَهُ کُلُّ شَیْءٍ «۹» و قوله: وَ ما بِکُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ «۱۰» و قوله: لِمَنِ الْمُلْکُ الْیَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ «۱۱». و یذکرون من البدیع قول النبی صلّی اللّه علیه و سلّم: (خیر الناس رجل ممسک عنان فرسه فی سبیل

(۱) آیة (۲۴) سورة الإسراء. (۲) آیة (۴) سورة الزخرف. (۳) آیة (۴) سورة مریم. (۴) آیة (۳۷) سورة یس. (۵) آیة (۵۵) سورة الحج. (۶) آیة (۳۵) سورة النور. (۷) آیة (۱۷۹) سورة البقرة. (۸) آیة (۸۰) سورة یوسف. (۹) آیة (۹۱) سورة النمل. (۱۰) آیة (۵۳) سورة النحل. (۱۱) آیة (۱۶) سورة غافر.

إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۵۶ اللّه، کلما سمع هیعة «۱» طار إلیها) «۲». و قوله: (ربنا تقبل توبتی و اغسل حوبتی) «۳» و قوله: (غلب علیکم داء الأمم قبلکم؛ الحسد و البغضاء، و هی الحالقة، حالقة الدین لا حالقة الشّعر) «۴». و کقوله: (الناس کإبل مائة لا تجد فیها راحلة) «۵». و کقوله: (و هل یکب الناس علی مناخرهم فی نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم) «۶». و کقوله: (إن مما ینبت الربیع ما یقتل حبطا أو یلمّ) «۷». و کقول أبی بکر الصدیق «۸» رضی اللّه عنه فی کلام له قد نقلناه بعد هذا علی وجهه، و قوله لخالد بن الولید «۹»: «احرص علی الموت توهب لک الحیاة». و قوله: (فر من الشرف یتبعک الشرف) و کقول علی بن أبی طالب «۱۰» رضی اللّه عنه و کرم اللّه وجهه فی کتابه إلی ابن عباس «۱۱» و هو عامله علی البصرة: «أرغب راغبهم،

(۱) قوله: «هیعة». قال ابن الأثیر فی «النهایة» ۵/ ۲۸۸: «الهیعة: الصوت الذی تفزع منه و تخافه من عدو، و قد هاع یهیع هیوعا: إذا جبن». (۲) أورده ابن الأثیر فی «النهایة» ۵/ ۲۸۸. (۳) أبو داود فی: الوتر (۲۵)، و الترمذی فی: الدعوات (۱۰۳) و قال: حسن صحیح، و ابن ماجة فی: الدعاء (۲) و أحمد ۱/ ۲۲۷. (۴) الترمذی ۲/ ۸۳ و أحمد ۱/ ۱۶۵ و ۱۶۷، و البیهقی ۱۰/ ۲۳۲، و شرح السنة ۱۲/ ۲۵۹، و الإرواء ۳/ ۲۳۸ و عزاه إلی «البزار» بسند جید. (۵) البخاری فی: الرقاق (۳۵)، و مسلم فی: فضائل الصحابة (۲۳۲)، و الترمذی فی: الأدب (۸۲)، و ابن ماجة فی: الفتن

(۱۶)، و أحمد ۲/ ۷ و ۵۵ و ۷۰ و ۸۸ و ۱۰۹ و ۱۲۱– ۱۲۳ و ۱۳۹. (۶) الترمذى فى: الإيمان (۸)، و ابن ماجة فى: الفتن (۱۲)، و أحمد ۵/ ۲۳۱ و ۲۳۶ و ۲۳۷. (۷) البخارى فى: الجهاد (۳۷) و الرقاق (۷)، و مسلم فى: الزكاة (۱۲۱)، و ابن ماجة فى: الفتن (۱۸)، و أحمد ۳/ ۷ و ۲۱ و ۹۱. (۸) سبقت ترجمته. (۹) خالد بن الوليد بن المغيرة أبو سليمان القرشى المخزومى. أسلم قبل غزوة مؤتة بشهرين، و كان له الأثر العظيم فى قتال أهل الرّدة، و فتوح الشام و العراق. مات سنة (۲۱) بحمص. له ترجمة فى: الرياض المستطابة ص (۶۲- ۶۴). (۱۰) على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم القرشى الهاشمى المكى ثم المدنى الكوفى. ابن عم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و أقرب العشرة نسبا إليه. كان أول من أسلم من الصبيان، و أول من هاجر بعد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و أبى بكر، و أول من صلى من المسلمين. مات سنة (۴۰). له ترجمة فى: أسد الغابة ۴/ ۹۱. و الإصابة ۲/ ۱۰۵، و تاريخ بغداد ۱/ ۱۳۳. (۱۱) ابن عباس هو: عبد اللّه بن عباس بن عبد المطلب القرشى الهاشمى المكى، و هو حبر الأمة، و ترجمان القرآن. توفى بالطائف سنة (۷۰). له ترجمة فى: أسد الغابة ۳/ ۲۹۰، و الإصابة ۱/ ۳۲۲،- إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۵۷ و احلل عقدة الخوف عنهم» و قوله حين سئل عن قول النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنما قال ذلك و الدين فى قلّ، فأما و قد اتسع نطاق الإسلام فكل امرئ و ما اختار». و سأل على رضى اللّه عنه بعض كبراء فارس عن أحمد ملوكهم عندهم، فقال: «لأردشير فضيلة السبق، غير أن أحمدهم أنو شروان» قال: «فأى أخلاقه كان أغلب عليه؟» قال: «الحلم و الإناءة». فقال على رضى اللّه عنه: «هما توأمان ينتجهما علوّ الهمة». و قال: «قيل كل امرئ ما يحسن» و قال: «العلم قفل و مفتاحه المسألة». و كتب خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس: «أما بعد، فالحمد للّه الذى فض خدمتكم، و فرق كلمتكم». و الخدمة الحلقة المستديرة؛ و لذلك قيل للخلاخيل خدام. و قال الحجاج «دلونى على رجل سمين الأمانة» و لما عقدت الرئاسة لعبد اللّه بن وهب الراسبى على الخوارج أرادوه على الكلام فقال: «لا خير فى الرأى الفطير» و قال: «دعوا الرأى يغب». و قال أعرابى فى شكر نعمة: «ذاك عنوان نعمة اللّه عز و جل». و وصف أعرابى قوما فقال: «إذا اصطفوا سفرت بينهم السهام، و إذا تصافحوا بالسيوف قعد الحمام» و سئل أعرابى عن رجل فقال: «صفرت عياب الود بينى و بينه بعد امتلائها و اكفهرت وجوه كانت بمائها». و قال آخر: «من ركب ظهر الباطل نزل دار الندامة». و قيل لرؤبة: «كيف خلفت ما وراءك»؟ فقال: «التراب يابس، و المال عابس». و من البديع فى الشعر طرق كثيرة قد نقلنا منها جملة لنستدل بها على ما بعدها، فمن ذلك قول امرئ القيس «۱»: و قد أغتدى و الطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل قوله: «قيد الأوابد» عندهم من البديع، و من الاستعارة. و يرونه من الألفاظ الشريفة. و عنى بذلك أنه إذا أرسل هذا الفرس على الصيد، صار قيدا لها، و كانت بحالة المقيد من جهة سرعة إحضاره. و اقتدى به الناس و اتبعه الشعراء، فقيل: قيد النواظر، و قيد الألحاظ، و قيد الكلام، و قيد الحديث، و قيد الرهان. و قال الأسود بن يعفر: بمقلص عنز جهير شدة قيد الأوابد و الرهان جواد - ____ و شذرات الذهب ۱/ ۷۵. (۱) سبقت ترجمته. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۵۸ و قال أبو تمام «۱»: لها منظر قيد الأوابد لم يزل يروح و يغدو فى خفارته الحب و قال آخر: ألحاظه قيد عيون الورى فليس طرف يتعداه و قال آخر: «قيد الحسن عليه الحدقا». و ذكر الأصمعى «۲» و أبو عبيدة «۳» و حماد و قبلهم أبو عمرو أنه أحسن فى هذه اللفظة، و أنه أتبع فيها فلم يلحق، و ذكروه فى باب الاستعارة البليغة، و سماها بعض أهل الصنعة باسم آخر، و جعلوها من باب الإرداف، و هو أن يريد الشاعر دلالة على معنى فلا يأتى باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظ هو تابع له و ردف، قالوا و مثله قوله: «نئوم الضحى لم تنتطق عن تفضل» و إنما أراد و ترفهها بقوله: «نئوم الضحى» و من هذا الباب قول الشاعر: بعيدة مهوى القرط إما لنوفل أبوها و إما عبد شمس و هاشم و إنما أراد أن يصف طول جيدها فأتى بردفه، و من ذلك قول امرئ القيس «۴»: «و ليل كموج البحر أرخى سدوله»، و ذلك من الاستعارة المليحة، و يجعلون من هذا القبيل ما قدمنا ذكره من القرآن وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً «۵» وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ «۶» و مما يعدونه من البديع التشبيه الحسن كقول امرئ القيس: كأن عيون الوحش حول خبائنا و أرحلنا الجزع الذى لم يثقب ____ (۱) أبو تمام هو: حبيب بن أوس

الطائى، ولـد فى منبج فى بلاد الشام، و جاء مصر صـغيرا، و كان يسـقى الماء فى الجامع بالفسـطاط، ثم جالس الأدباء، و أخذ عنهم و تعلم. مات سنهٔ (۲۳۲). له ترجمهٔ فى: تاريخ بغداد ۸/ ۲۴۸، و مروج الذهب ۷/ ۱۴۷، و وفيات الأعيان ۱/ ۱۲۱. (۲) الأصمعى هو: عبد الملك بن قريب من قيس، و قد اشتهر بكنيته «الأصمعى»، و كان أتقن القوم و أعلمهم بالشعر، و أحضرهم حفظا. مات سنهٔ (۲۱۴). له ترجمهٔ فى: وفيات الأعيان ۱/ ۲۸۸، و الفهرست (۵۵)، و تاريخ بغداد ۱۰/ ۴۱۰. (۳) أبو عبيدهٔ هو: معمر بن المثنى التيمى، كان أجمع سـائر الرواهٔ لعلوم العرب و أخبـارهم و أنسابهم. مات سـنهٔ (۲۰۹). له ترجمـهٔ فى: وفيات الأعيان ۲/ ۱۰۵، و الفهرست (۵۳)، و تاريخ بغداد ۱۳/ ۲۵۲. (۴) سبقت ترجمته. (۵) آيهٔ (۴) سورهٔ مريم. (۶) آيهٔ (۲۴) سورهٔ الإسـراء. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۵۹ و قوله: كأن قلوب الطير رطبا و يابسا لدى و كرها العناب و الحشف البالى و اسـتبدعوا تشبيهه شـيئين بشيئين على حسن تقسيم، و يزعمون أن أحسن ما وجـد فى هذا للمحدثين قول بشار «۱»: كأن مثار النقع فوق رءوسـنا و أسـيافنا ليل تهاوى كواكبه و قد سبق امرؤ القيس إلى صحهٔ التقسـيم فى التشبيه، و لم يتمكن بشار إلا من تشبيه إحدى الجملتين بالأخرى دون صحهٔ التقسيم و التفصيل. و كذلك عدّوا من البـديع قول امرئ القيس فى أذنى الفرس: و سامعتـان يعرف العتق فيهمـا كسامعتى مـذعورهٔ وسط ديرب و اتبعه طرفـهٔ «۲» فقال فيه: و سامعتـان يعرف العتق فيهمـا كسـامعتى شـاهٔ بحومل مفرد و مثله قول امرئ القيس فى وصف الفرس: و عينان كالماويتين و محجر إلى سنـد مثـل الصـفيح المنصب و قـال طرفـهٔ فى وصف عينى نـاقته: و عينان كالماويتين اسـتكنتا بكهفى حجابى صـخرهٔ قلت مورد و من البـديع فى التشبيه قول امرئ القيس: له أيطلا ظبى و ساقا نعامـهٔ و إرخاء سـرحان و تقريب تتفل و ذلك فى تشبيه أربعـهٔ أشـياء بأربعهٔ أشـياء أحسن فيهـا. و من التشبيه الحسن فى القرآن قوله تعالى: وَ لَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ «۳» و قوله تعالى: كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ «۴» و مواضع نـذكرها بعـد هـذا. و من البـديع فى الاسـتعارهٔ قول امرئ القيس: و ليـل كموج البحر أرخى سـدوله علىّ بـأنواع الهمـــــــــــوم ليبتلى فقلــــــــــت لـــــــــه لمــــــــا تمطى بصــــــــلبه و أردف إعجــــــــازا و نــــــــاء بكلكل

(____۱) بشار هو: ابن برد الفارسى، نشأ فى البصـرهٔ، ثم قدم بغداد بعد أن بناها المنصور، و ولد أعمى، و كان ضخما طويلا عظيم الخلق و الوجه مجدرا. و كان أطبع الشعراء على الشعر. مات سنهٔ (۱۱۷) له ترجمـهٔ فى: وفيات الأعيان ۱/ ۸۸، و الفهرست (۱۵۹)، و تاريخ بغداد ۷/ ۱۱۲. (۲) طرفـهٔ هو: ابن العبد أبو عمرو. نبغ فى الشعـر منـذ حـداثته، حتى صار يعد من الطبقهٔ الأولى، و توفى صـغير السن سـنهٔ (۵۰۰). له ترجمـهٔ فى: خزانـهٔ الأدب ۱/ ۴۱۴. (۳) آيهٔ (۲۴) سورهٔ الرحمن. (۴) آيهٔ (۴۹) سورهٔ الصافات. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۶۰ و هذه كلها استعارات أتى بها فى ذكر طول الليـل، و من ذلك قول النابغـهٔ «۱»: و صـدر أراح الليـل عـازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب فاسـتعاره من إراحهٔ الراعى إبله إلى مواضـعها التى تأوى إليها بالليل و أخذ منه ابن الدمينهٔ فقال: أقضى نهارى بالحديث و بالمنى و يجمعنى و الهم و الليل جـامع و من ذلـك قول زهير «۲»: صـحا القلب عن ليلى و أقصـر بـاطله و عرى أفراس الصـبا و رواحله و من ذلـك قـول امرئ القيس: سموت إليهـا بعـد ما نام أهلها سـمو حباب الماء حالا على حال و أخـذه أبو تمام فقال: «سـمو عباب الماء جاشت غواربه»، و إنما أراد امرؤ القيس إخفـاء شـخصه، و من ذلـك قوله: «كـأنى و أصـحابى على قرن أعفرا» يريـد أنهم غير مطمئنين. و من ذلـك ما كتب إلى الحسن بن عبـد اللّه بن سـعيد قـال: أخبرنى أبى، قال أخبرنا عسل بن ذكوان، أخبرنا أبو عثمان المازنى، قال سـمعت الأصـمعى يقول: أجمع أصـحابنا أنه لم يقل أحسن و لا أجمع من قول النابغـهٔ: فإنك كالليل الـذى هو مـدركى و إن خلت أن المنتأى عنك واسع قال الحسن بن عبـد اللّه: و أخبرنا محمـد بن يحيى، أخبرنا عون بن محمد الكندرى، أخبرنا قعنب بن محرز قال: سـمعت الأصـمعى يقول: سمعت أبا عمرو يقول: كان زهير يمـدح السوق، و لو ضـرب على أسـفل قـدميه مائتا دقل، على أن يقول كقول النابغـهٔ: فإنك كالليل الـذى هو مـدركى و إن خلت أن المنتأى عنك واسع لما قال يريد أنه سـلطانه كالليل يصل إلى كل مكان، و اتبعه الفرزدق «۳» فقال: لـــــــــو حملتنى الريــــــــــح ثـــــــــم طلبتنى لكنــــــــــت كشـــــــــــىء أدركتنى مقـــــــــــادره

(____۱) النابغـهٔ هـو: زيـاد بـن معـاوية

الذبيانى، أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء، كان يفد هو و حسان بن ثابت على صاحب الحيرة فيمدحانه، لكن النابغة كان مقدما على الجميع. مات سنة (۶۰۴ م). له ترجمة فى: تاريخ ابن عساكر ۵/ ۴۲۴، و الأغانى ۹/ ۱۶۲. (۲) زهير بن أبى سلمى، أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء. مات سنة (۶۱۵ م). له ترجمة فى الأغانى ۹/ ۴۸ و ۱۴۶، و خزانة الأدب ۱/ ۳۷۵، و الشعر و الشعراء (۵۷). (۳) الفرزدق هو: همام بن غالب بن صعصعة. ولد بالبصرة، و أقام فى باديتها مع أبيه، و ظهرت فيه ملكة الشعر و هو غلام، و لم يكن من مداح بنى أمية لأنه كان يتشيع لعلى. مات سنة (۱۱۰). له ترجمة فى: خزانة الأدب ۱/ ۱۰۵، و وفيات الأعيان ۲/ ۱۹۶. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۶۱ فلم يأت بالمعنى و لا اللفظ على ما سبق إليه النابغة، ثم أخذه الأخطل «۱» فقال: و إن أمير المؤمنين و فعله لكالدهر لا عار بما فعل الدهر و قد روى نحو هذا عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: (نصرت بالرعب، و جعل رزقى تحت ظل رمحى، و ليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل) «۲». و أخذه على بن ... فقال: و ما لامرئ حاولته عنك مهرب و لو كان فى جوف السماء المطالع بل هارب لا يهتدى لمكانه ظلام و لا ضوء من الصبح طالع و مثله قول سلم الخاسر «۳»: فأنت كالدهر مبثوثا حبائله و الدهر لا ملجأ منه و لا هرب و لو ملكت عنان الريح أصرفه فى كل ناحية ما فاتك الطلب فأخذه البحترى «۴» فقال: و لو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن ينجيهم من خوف بأسك مهرب و من بديع الاستعارة قول زهير «۵»: فلما وردن الماء زرقا حمامه وضعن عصى الحاضر المتخيم و قول الأعشى: و إن عناق العيس سوف يزوركم ثناء على إعجازهن معلق و منه أخذ نصيب فقال: فعاجوا فاثنوا بالذى أنت أهله و لو سكتوا أثنت عليك الحقائب و من ذلك قول تأبط شرا «۶»: فخالط سهل الأرض لم يكدح الصفا به كدحة و الموت خزيان ينظر (______________________________ ۱) الأخطل هو: غياث بن غوث بن الصلت، و الأخطل لقب له. ظهرت الشاعرية فى الأخطل منذ حداثته و كان يشرب الخمر، و لا يجيد النظم إلّا إذا شرب. مات سنة (۹۵). له ترجمة فى: الأغانى ۷/ ۱۶۹، و خزانة الأدب ۱/ ۲۲۰. (۲) البخارى ۴/ ۴۹، و أحمد ۲/ ۵۰ و ۹۲، و ابن أبى شيبة ۵/ ۳۱۳ و ۳۲۲. (۳) سلم الخاسر هو: سلم بن عمرو، أحد موالى أبى بكر الصديق، نشأ بالبصرة، و كان شاعرا مطبوعا متصرفا فى فنون الشعر، و كان متظاهرا بالخلاعة و الفسوق و المجون. مات سنة (۱۸۶). له ترجمة فى: الأغانى ۲۱/ ۱۱۰، و وفيات الأعيان ۱/ ۱۹۸، و تاريخ بغداد ۹/ ۱۳۶. (۴) سبقت ترجمته. (۵) سبقت ترجمته. (۶) تقدمت ترجمته. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۶۲ و من الاستعارة فى القرآن كثير كقوله: وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ «۱» يريد ما يكون الذكر عنه شرفا. و قوله: صِبْغَةَ اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً «۲» قيل دين اللّه أراد و قوله: اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ «۳» و من البديع عندهم الغلو كقول النمر بن تولب: أبقى الحوادث و الأيام من نمر إسناد سيف قديم أثره بادى تظل تحفر عنه إن ضربت به بعد الذراعين و القدين و الهادى و كقول النابغة «۴»: تقدّ السّلوقىّ المضاعف نسجه و يوقدن بالصّفاح نار الحباحب و كقول عنترة «۵»: فازورّ من وقع القنا بلبانه و شكا إلىّ بعبرة و تحمحم و كقول أبى تمام «۶»: لو يعلم الركن من قد جاء يلثمه لخرّ يلثم منه موطئ القدم و كقول البحترى «۷»: و لو أن مشتاقا تكلف فوق ما فى وسعه لمشى إليك المنبر و من هذا الجنس فى القرآن: يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ «۸» و قوله: إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَ زَفِيراً «۹» و قوله: تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ «۱۰». و مما يعدونه من البديع المماثلة و هو ضرب من الاستعارة، و ذلك أن يقصد الإشارة إلى معنى فيضع ألفاظا تدل عليه. و ذلك المعنى بألفاظه مثال للمعنى الذى قصد الإشارة إليه (______________________________ ۱) آية (۴۴) سورة الزخرف. (۲) آية (۸۸) سورة البقرة. (۳) آية (۱۶) سورة البقرة. (۴) سبقت ترجمته. (۵) عنترة هو: ابن شداد من قبيلة عبس، و هو من الشعراء الفرسان الشجعان، و عشق فهاجت شاعريته، و اتسع خياله. مات سنة (۶۱۵ م). له ترجمة فى: الأغانى ۷/ ۱۴۸، و خزانة الأدب ۱/ ۶۲. (۶) سبقت ترجمته. (۷) سبقت ترجمته. (۸) آية (۳۰) سورة ق. (۹) آية (۱۲) سورة الفرقان. (۱۰) آية (۸) سورة الملك. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۶۳ نظيره من المنثور: أن يزيد «۱» بن الوليد: بلغه أن مروان بن محمد يتلكأ عن بيعته فكتب إليه: «أما بعد، فإنى أراك تقدم رجلا و تؤخر أخرى، فاعتمد على أيتهما شئت» و كنحو ما كتب به الحجاج إلى المهلّب: «فإن أنت فعلت ذاك و إلا

أشرعت إليك الرمح»، فأجابه المهلّب: (فإن أشرع الأمير الرمح قلبت إليه ظهر المجنّ) و كقول زهير: و من يعص أطراف الزّجاج فإنه يطيع العوالى ركّبت كلّ لهذم و كقول امرئ القيس: و ما ذرفت عيناك إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتّل و كقول عمر «۲» بن معديكرب: فلو أنّ قومى أنطقتنى رماحهم نطقت و لكنّ الرماح أجرّت و كقول القائل: بنى عمّنا لا تذكروا الشعر بعد ما دفنتم بصحراء الغمير القوافيا و كقول الآخر: أقول و قد شدوا لسانى بنسعة أ معشر تيم أطلقوا عن لسانيا و من هذا الباب فى القرآن كقوله: فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ «۳» و كقوله وَ ثِيابَكَ فَطَهِّرْ «۴» قال الأصمعى «۵»: «أراد البدن». قال: و تقول العرب: «فدى لك ثوباى يريد نفسه». و أنشد: ألا أبلغ أبا حفص رسولا فدا لك من أخى ثقة إزارى و يرون من البديع أيضا ما يسمونه المطابقة، و أكثرهم على أن معناها أن يذكر الشيء و ضده، كالليل و النهار، و السواد و البياض، و إليه ذهب الخليل «۶» بن أحمد و الأصمعى،

(۱) له ترجمة فى: تاريخ الخلفاء ص (۲۵۰). (۲) عمرو بن معدى كرب، أدرك الإسلام و أسلم، و جاهد حتى مات فى آخر خلافة عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه. مات سنة (۶۴۳ م). له ترجمة فى: الأغانى ۱۴/ ۲۵، و خزانة الأدب ۱/ ۴۲۵. (۳) آية (۱۷۵) سورة البقرة. (۴) آية (۴) سورة المدثر. (۵) سبقت ترجمته. (۶) الخليل بن أحمد أبو عبيد الرحمن البصرى الفراهيدى الأزدى، كان من تلامذة أبى عمرو العلاء، و عنه أخذ سيبويه، و هو أول من استخرج علم العروض. مات سنة (۱۸۰ ه). له ترجمة فى: وفيات الأعيان ۱/ ۱۷۲، و تاريخ ابن خلدون ۱/ ۴۸۲. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۶۴ و من المتأخرين؛ عبد اللّه بن المعتز. و ذكر ابن المعتز من نظائره من المنثور، ما قاله بعضهم: «أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع، فأدخلتنا فى ضيق الضمان» و نظيره من القرآن: وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ «۱» و قوله: يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ «۲» و قوله: يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ «۳» و مثله كثير جدا. و كقول النبى صلّى اللّه عليه و سلّم للأنصار: «إنكم تكثرون عند الفزع، و تقلون عند الطمع» و قال آخرون: بل المطابقة أن يشترك معنيان بلفظة واحدة، و إليه ذهب قدامة بن جعفر الكاتب، فمن ذلك قول الأفوه «۴» الأودى: و أقطع الهواجل مستأنسا بهوجل مستأنس عنتريس عنى بالهوجل الأول الأرض و بالثانى الناقة. و مثله قول زياد «۵» الأعجم: و نبّئتهم يستنصرون بكاهل و للّؤم فيهم كاهل و سنام و مثله قول أبى داود: عهدت لها منزلا دائرا و آلا على الماء يحملن آلا فالآل الأول: أعمدة الخيام تنصب على البئر للسقى، و الآل الثانى: السراب. و ليس عنده قول من قال المطابقة، إنما تكون باجتماع الشيء و ضده بشيء. و من المعنى الأول قول الشاعر: أهين لهم نفسى لأكرمها بهم و لن تكرم النّفس التى لا تهينها و مثله قول امرئ القيس: و تردى على صمّ صلاب ملاطس شديدات عقد ليّنات متان و كقول النابغة: و لا يحسبون الخير لا شرّ بعده و لا يحسبون الشرّ ضربة لازب

(۱) آية (۱۷۹) سورة البقرة. (۲) آية (۱۹) سورة الروم. (۳) آية (۶۱) سورة الحج. (۴) الأفوه الأودى هو: صلاءة بن عمرو من أود و ينتهى نسبه إلى مذحج من قبائل اليمن، و كان سيد قومه و قائدهم، و كانوا يصدرون عن رأيه، و العرب تعده من حكمائها. مات سنة (۵۷۰ م). له ترجمة فى: الأغانى ۱۱/ ۴۴، و الشعر و الشعراء (۱۱۰). (۵) زياد الأعجم، كان ينزل اصطخر، فغلبت العجمة على لسانه، فسمى الأعجم، و كان شاعرا جزل الشعر، فصيح الألفاظ. مات سنة (۱۰۰ ه). له ترجمة فى: خزانة الأدب ۴/ ۱۹۳، و فوات الوفيات ۱/ ۱۶۴. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۶۵ و كقول زهير و قد جمع فيه طباقين: بعزمة مأمور مطيع و آمر مطاع فلا يلفى لحزمهم مثل و كقول الفرزدق: و الشيب ينهض فى الشباب كأنه ليل يصيح بجانبيه نهار و مما قيل فيه ثلاث تطبيقات قول جرير: و باسط خير فيكم بيمينه و قابض شر عنكم بشماليا و كقول رجل من بلعنبر: يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة و من إساءة أهل السوء إحسانا و روى عن الحسن «۱» بن على رضى اللّه عنهما أنه تمثل بقول القائل: فلا الجود يفنى المال و الجدّ مقبل و لا البخل يبقى المال و الجدّ مدبر و كقول الآخر: فسرّى كإعلانى و تلك سجيّتى و ظلمة ليلى مثل ضوء نهاريا و كقول قيس «۲» بن الخطيم: إذا أنت لم تنفع فضرّ؛ فإنما يرجّى الفتى كيما يضرّ و ينفعا و كقول السموأل: و ما ضرنا أنا قليل و جارنا عزيز و جار الأكثرين ذليل فهذا باب يرونه من البديع. و باب آخر و هو «التجنيس»؛ و معنى

ذلک: أن تأتی بکلمتین متجانستین، فمنه ما تکون الکلمهٔ فی تجانس الأخری فی تألیف حروفها، و إلیه ذهب الخلیل. و منهم من زعم أن المجانسهٔ أن تشترک اللفظتان علی جههٔ الاشتقاق کقوله عز و جل: فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ الْقَیِّمِ «۳» و کقوله: وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَیْمانَ «۴» و کقوله: یـا أَسَفی عَلی یُوسُفَ «۵» و کقوله: الَّذِینَ آمَنُوا وَ لَمْ یَلْبِسُوا إِیمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِکَ لَهُمُ

(_______________ ۱) الحسن بن علی بن أبی طالب الهاشمی سبط رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، و ریحانته فی الدنیا، و أحد سیدی شباب أهل الجنهٔ. روی عن جده رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، و کان أشبه الناس به. له ترجمهٔ فی: تهذیب التهذیب ۲۰/ ۲۵۷– ۲۶۱/ ۵۲۸. (۲) قیس بن الخطیم، کان شاعرا فارسا من الأوس. مات سنهٔ (۶۱۲ م). له ترجمهٔ فی: الأغانی ۲/ ۱۵۹، و الجمهرهٔ (۱۲۳)، و خزانهٔ الأدب ۳/ ۱۶۸. (۳) آیهٔ (۴۲) سورهٔ الروم. (۴) آیهٔ (۴۴) سورهٔ النمل. (۵) آیهٔ (۸۴) سورهٔ یوسف. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۶۶ الْأَمْنُ «۱» و کقوله: وَ هُمْ یَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ یَنْأَوْنَ عَنْهُ «۲». و کقول النبی صلّی اللّه علیه و سلّم: (أسلم سالمها اللّه، و غفار غفر اللّه لها، و عصیّهٔ عصت اللّه. و رسوله) «۳». و کقوله: (الظلم ظلمات یوم القیامهٔ) «۴» و قوله: (لا یکون ذو الوجهین وجیها عند اللّه). * و کتب بعض الکتاب: (العذر مع التعذر واجب، فرأیک فیه) و قال معاویهٔ «۵» لابن عباس «۶»: «ما لکم یا بنی هاشم تصابون فی أبصارکم؟» فقال: «کما تصابون فی بصائرکم». و قال عمر «۷» بن الخطاب رضی اللّه عنه: «هاجروا و لا تهجروا» و من ذلک قول قیس ابن عاصم: و نحن حفرنا الحوفزان بطعنهٔ کسته نجیعا من دم الجوف أشکلا و قال آخر: «أمل علیها بالبلی الملوان» «۸». و قال الآخر: و ذاکم أن ذل الجار حالفکم و إن أنفکم لا تعرف الأنفا و کتب إلی بعض مشایخنا قال: أنشدنا الأخفش عن المبرد «۹» عن التوزی:

(_______________ ۱) آیهٔ (۸۲) سورهٔ الأنعام. (۲) آیهٔ (۲۶) سورهٔ الأنعام. (۳) البخاری ۲/ ۳۳ و ۴/ ۲۲۰، و مسلم فی: فضائل الصحابهٔ (۱۳۲، ۱۸۴، ۱۸۵، ۱۸۶، ۱۸۷)، و الترمذی (۳۹۴۱ و ۳۹۴۹)، و أحمد ۲/ ۲۰ و ۵۰ و ۱۰۷ و ۱۱۷. (۴) البخاری ۳/ ۱۶۹، و الترمذی (۲۰۳۰)، و أحمد ۲/ ۱۳۷ و ۱۵۶ و ۱۵۹، و البیهقی ۶/ ۹۳ و ۱۰/ ۱۳۴. (۵) معاویهٔ هو: ابن أبی سفیان صخر بن حرب القرشی الأموی، أسلم یوم الفتح، و کتب لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم بعد ذلک، و کان من الموصوفین بالدهاء و الحلم. مات بدمشق سنهٔ (۶۰). له ترجمهٔ فی: الریاض المستطابهٔ ص (۲۵۴– ۲۵۶). (۶) سبقت ترجمته. (۷) سبقت ترجمته. (۸) الملوان: اللیل و النهار. (۹) المبرد هو: أبو العباس محمد بن یزید بن عبد الأکبر الثمالی، نسبهٔ إلی ثمالهٔ قبیلهٔ من الأزد. کان شیخ أهل النحو و العربیهٔ، و إلیه انتهی علمهما، و کان قوی الذاکرهٔ، کثیر الحفظ، و له مؤلفات منها: الکامل فی الأدب و غیر ذلک. مات سنهٔ (۲۸۵ ه). له ترجمهٔ فی: وفیات الأعیان ۱/ ۴۹۵، و الفهرست (۵۹)، و انباه الرواهٔ ۳/ ۲۴۱. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۶۷ و قالوا: حمامات فحمّ لقاؤها و طلح فزیرت و المطیّ طلوح عقاب بأعقاب من النأی بعد ما جرت نیهٔ تنسی المحبّ طروح و قال صحابی: هدهد فوق بانهٔ هدی و بیان بالنجاح یلوح و قالوا: دم دامت مواثیق عهده و دام لنا حسن الصفاء صریح و قال آخر: «أقبلن من مصر یبارین البری». و قال القطامی: و لما ردّها فی الشّول شالت بذیّال یکون لها لفاعا و قد یکون التجنیس بزیادهٔ حرف؛ أو ما یقارب ذلک، کقول البحتری: هل لما فات من تلاف تلاف أم لشاک من الصبابهٔ شاف؟ و قال ابن مقبل: یمشین هیل النّقا مالت جوانبه ینهال حینا و ینهاه الثّری حینا و قال زهیر: هم یضربون حبیک البیض إذ لحقوا لا ینکلون إذا ما استلحموا و حموا و من ذلک قول أبی تمام: یمدون من أید عواص عواصم تصول بأسیاف قواض قواضب و أبو نواس یقصد فی مصراعی مقدمات شعره هذا الباب کقوله: ألا دارها بالماء حتی تلینها فلن تکرم الصهباء حتی تهینها و کذلک قوله: دیار نوار ما دیار نوار کسونک شجوا هنّ منه عوار و کقول ابن المعتز «۱»: سأثنی علی عهد المطیرهٔ و القصر و أدعو لها بالساکنین و بالقطر و کقوله أیضا: هی الدار إلا أنها منهم قفر و أنّی بها ثاو و أنهم سفر و کقوله: للأمانیّ حدیث [قد] یقر و یسوء الدهر من قد یسر

(_______________ ۱) ابن المعتز هو: أبو العباس عبد اللّه بن المعتز بن المتوکل من أبناء الخلفاء العباسیین، کان شاعرا مطبوعا مقتدرا علی الشعر، جید القریحهٔ. مات سنهٔ (۲۹۶ ه). له ترجمهٔ

فى: وفيات الأعيان ۱/ ۲۵۸، و الأغانى ۹/ ۱۴۰، و شذرات الذهب ۲/ ۲۲۱. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۶۸ و كقول المتنبى: و قد أرانى الشباب الرّوح فى بدنى و قد أرانى المشيب الرّوح فى بدلى و قد قيل إن من هذا القبيل قوله عز و جل: خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ «۱» و قوله تعالى: قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي. فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ «۲». و يعدون من البديع المقابلة، و هى أن يوفق بين معان و نظائرها، و المضاد بضده، و ذلك مثل قول النابغة «۳» الجعدى: فتى تم فيه ما يسرّ صديقه على أنّ فيه ما يسوء الأعاديا و قال تأبط شرا: أهزّ به فى ندوة الحى عطفه كما هزّ عطفى بالهجان الأوارك و كقول الآخر: و إذا حديث ساءنى لم أكتئب و إذا حديث سرّنى لم أشرز و كقول الآخر: و ذى إخوة قطّعت أرحام بينهم كما تركونى واحدا لا أخاليا و نظيره من القرآن ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ. ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ «۴». و يعدون من البديع «الموازنة»، و ذلك كقول بعضهم: «اصبر على حرّ اللقا و مضض النزال و شدة المصاع». و كقول امرئ القيس: سليم الشّطا عبل الشّوى شنج النّسا له حجبات مشرفات على الفال و نظيره من القرآن: وَ السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ. وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ. وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ «۵». و يعدون من البديع المساواة، و هى أن يكون اللفظ مساويا للمعنى، لا يزيد عليه و لا

(۱) آية (۳۷) سورة الأنبياء. (۲) آية (۱۴، ۱۵) سورة الزمر. (۳) النابغة الجعدى من «جعدة» قيس، مخضرم، قال الشعر فى الجاهلية، و سكت دهرا، ثم نبغ فى الإسلام. له ترجمة فى: الأغانى ۴/ ۱۲۸، و خزانة الأدب ۱/ ۵۱۲. (۴) آية (۵۳، ۵۴) سورة النحل. (۵) آية (۱: ۳) سورة البروج. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۶۹ ينقص عنه، و ذلك يعد من البلاغة، و ذلك كقول زهير: و مهما تكن عند امرئ من خليقة و إن خالها تخفى على الناس تعلم و كقول جرير «۱»: فلو شاء قومى كان حلمى فيهم و كان على جهّال أعدائهم جهلى و كقول الآخر: إذا أنت لم تقصر عن الجهل و الخنا أصبت حليما أو أصابك جاهل و كقول الهزلى: فلا تجزعن من سنّة أنت سرتها و أوّل راض سنة من يسيرها و كقول الآخر: فإن هم طاوعوك فطاوعيهم و إن عاصوك فاعصى من عصاك و نظير ذلك فى القرآن كثير .. و مما يعدّونه من البديع «الإشارة»؛ و هو اشتمال اللفظ القليل على المعانى الكثيرة. و قال بعضهم فى وصف البلاغة: لمحة دالة. و من ذلك قول طرفة «۲»: فظل لنا يوم لذيذ بنعمة فقل فى مقيل نحسه متغيّب و كقول زيد الخيل «۳»: فخيبة من يخيب على غنيّ و باهلة بن أعصر و الرّباب و نظيره من القرآن وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى «۴» و مواضع كثيرة. و يعدون من البديع المبالغة و الغلو، و المبالغة تأكيد معانى القول و ذلك كقول الشاعر: و نكرم جارنا ما كان فينا و نتبعه الكرامة حيث مالا

(۱) جرير هو: ابن عطية بن الخطفى، نشأ فى البادية أيام معاوية، و كان واسع الخيال، قوى الشاعرية مع ميل إلى الهجاء. مات سنة (۱۱۱ ه). له ترجمة فى: وفيات الأعيان ۱/ ۱۰۲، و الشعر و الشعراء (۲۸۳). و خزانة الأدب ۳/ ۳۹۷. (۲) سبقت ترجمته. (۳) زيد الخيل هو: ابن مهلهل من طى، و كان فارسا شجاعا بعيد الصيت فى الجاهلية، و أدرك الإسلام و وفد على النبى، فسر به و لقبه، و سماه زيد الخيل. له ترجمة فى: الأغانى ۱۶/ ۴۷، و خزانة الأدب ۲/ ۴۸۸. (۴) آية (۳۱) سورة الرعد. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۷۰ و من ذلك قول الآخر: و هم تركوكم أسلح من حبارى رأت صقرا و أشرد من نعام فقوله: رأت صقرا مبالغة، و من الغلو قول أبى نواس: توهّمتها فى كأسها فكأنما توهمت شيئا ليس يدركه العقل فما يرتقى التكييف فيها إلى مدى يحدّ به إلا و من قبله قبل و قول زهير: لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأوّلهم أو مجدهم قعدوا و كقول النابغة: بلغنا السماء مجدنا و سناؤنا و إنا لنرجو فوق ذلك مظهرا و كقول الخنساء «۱»: و ما بلغت كفّ امرئ متناول بها المجد إلا حيثما نلت أطول و ما بلغ المهدون فى القول مدحة و إن أطنبوا إلا الذى فيك أفضل و قول الآخر: له همم لا منتهى لكبارها و همته الصغرى أجلّ من الدّهر له راحة لو أن معشار جودها على البرّ صار البرّ أندى من البحر و يرون من البديع «الإيغال» فى الشعر خاصة، فلا يطلب مثله فى القرآن إلا فى الفواصل. كقول امرئ القيس «۲»: كأن عيون الوحش حول خبائنا و أرحلنا الجزع الذى لم يثقّب و قد أوغل بالقافية فى الوصف فأكد التشبيه بها. و المعنى قد يستقبل دونها. و من البديع عندهم «التوشيح» و هو

أن يشيد أول البيت بقافيته، و أول الكلام بآخره، كقول البحترى «۳»: فليس الذى حلّلته بمحلل و ليس الذى حرّمته بحرام و مثله فى القرآن: فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ «۴» و من ذلك

(______________________________ ۱) الخنساء هى: تماضر بنت عمرو بن الشريد، و قد أجمع رواة الشعر على أنه لم تقم امرأة فى العرب قبلها و لا بعدها أشعر منها. ماتت سنة (۶۴۶ م). لها ترجمة فى: خزانة الأدب ۱ / ۲۰۸، و الشعر و الشعراء (۱۹۷). (۲) سبقت ترجمته. (۳) سبقت ترجمته. (۴) آية (۳۹) سورة المائدة. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۷۱ رد عجز الكلام على صدره، كقول اللّه عز و جل: انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَ لَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلًا «۱» و كقوله: لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ، وَ قَدْ خابَ مَنِ افْتَرى «۲» و من هذا الباب قول القائل: و إن لم يكن إلّا تعلّل ساعة قليلا فإنى نافع لى قليلها و كقول جرير «۳»: سقى الرّمل جون مستهل غمامه و ما ذاك إلا حبّ من حلّ بالرمل و كقول الآخر: يود الفتى طول السلامة و الغنى فكيف يرى طول السّلامة يفعل و كقول أبى صخر «۴» الهذلى: عجبت لسعى الدهر بينى و بينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر و كقول الآخر: أصد بأيدى العيس عن قصد أرضها و قلبى إليها بالمودّة قاصد و كقول عمرو بن معدى كرب: إذا لم تستطع شيئا فدعه و جاوزه إلى ما تستطيع و من البديع «صحة التقسيم»، و من ذلك قول نصيب: فقال فريق القوم: لا و فريقهم نعم، و فريق قال: ويحك ما ندرى و ليس فى أقسام الجواب أكثر من هذا. و كقول الآخر: فكأنما فيه نهار ساطع و كأنه ليل عليها مظلم و قول المقفع الكندى: و إن يأكلوا لحمى وفرت لحومهم و إن يهدموا مجدى بنيت لهم مجدا و إن ضيّعوا غيبى حفظت غيوبهم و إن هم هووا غيّى هويت لهم رشدا و إن زجروا طيرا بنحس تمرّ بى زجرت لهم طيرا تمر بهم سعدا و كقول عروة بن حزام: بمن لو رآه غائبا لفديته و من لو رآنى غائبا لفدانى

(______________________________ ۱) آية (۲۱) سورة الإسراء. (۲) آية (۶۱) سورة طه. (۳) سبقت ترجمته. (۴) أبو صخر الهذلى هو: عبد اللّه بن سلم، كان متعصبا لآل مروان، هجا ابن الزبير فحبسه حتى مات. له ترجمة فى: خزانة الأدب ۱/ ۵۵۵، و الأغانى ۲۱/ ۹۴. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۷۲ و نحوه قول اللّه عز و جل: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا، يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ «۱» و نحوه صحة التفسير كقول القائل: ولى فرس للحلم بالحلم ملجم ولى فرس للجهل بالجهل مسرج و من البديع التكميل و التتميم كقول نافع بن خليفة: رجال إذا لم يقبلوا الحق منهم و يعطوه عادوا بالسيوف القواطع و إنما تم جودة المعنى بقوله: و يعطوه، و ذلك كقول اللّه عز و جل إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ «۲» إلى آخر الآية ثم قال إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ «۳». و من البديع «الترصيع» و ذلك من ألوان منها: قول امرئ القيس: مخشّ مجشّ مقبل مدبر معا كتيس ظباء الحلّب فى العدوان و من ذلك كثير من مقدمات أبى نواس: يا منّة امتنّها السّكر ما ينقضى منّى لها الشكر و كقوله، و قد ذكرناه قبل هذا: ديار نوار ما ديار نوار كسونك شجوا هنّ منه عوار و من ذلك: «الترصيع» مع التجنيس كقول ابن المعتز: أ لم نجزع على الربع المحيل و أطلال و آثار محول و نظيره من القرآن كقوله: إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ. وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ «۴» و قوله: ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ. وَ إِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ «۵» و كقوله: وَ إِنَّهُ عَلى ذلِكَ لَشَهِيدٌ. وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ «۶» و كقوله: وَ الطُّورِ. وَ كِتابٍ مَسْطُورٍ «۷» و قوله: وَ السَّابِحاتِ سَبْحاً. فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً «۸» و قد أولع الشعراء بنحو هذا فأكثروا فيه، و منهم من اقتنع بالترصيع فى

(______________________________ ۱) آية (۲۵۷) سورة البقرة. (۲) آية (۳۴) سورة لقمان. (۳) آية (۱۳) سورة الحجرات. (۴) آية (۱، ۲) سورة الأعراف. (۵) آية (۲، ۳) سورة القلم. (۶) آية (۷، ۸) سورة العاديات. (۷) آية (۱، ۲) سورة الطور. (۸) آية (۳، ۴) سورة النازعات. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۷۳ بعض أطراف الكلام، و منهم من بنى كلامه عليه كقول ابن الرومى: أبدانهن و ما لبس ن من الحرير معا حرير أردانهنّ و ما مس ن من العبير معا عبير و كقوله: فلراهب أن لا يريب أمانه و لراغب أن لا يريث نجاحه و مما يقارب الترصيع، ضرب يسمى «المضارعة» و ذلك كقول

الخنساء: حامی الحقیقة محمود الخلیقة مه دیّ الطریقة نفّاع و ضرّار جواب قاصیة جزّاز ناصیة عقّاد ألویة للخیل جرّار و من البدیع باب: «التکافؤ» و ذلک قریب من «المطابقة» کقول المنصور: «لا تخرجوا من عز الطاعة إلی ذل المعصیة» و قول عمر بن ذر: «إنا لم نجد لک إذا عصیت اللّه فینا خیرا من أن نطیع اللّه فیک». و منه قول بشار: إذا أیقظتک حروب العدا فنبه لها عمرا ثم نم و من البدیع باب «التعطف» کقول امرئ القیس: «عود علی عود علی عود خلق»، و قد تقدم مثاله. و من البدیع «السلب» و الإیجاب کقول القائل: و ننکر إن شئنا علی الناس قولهم و لا ینکرون القول حین نقول و من البدیع: «الکنایة و التعریض» کقول القائل: و أحمر کالدیباج أما سماؤه فریّا، و أما أرضه فمحول و من هذا الباب «لحن القول»: و من ذلک «العکس و التبدیل» کقول الحسن: «إن من خوّفک لتأمن، خیر ممن أمنک لتخاف»، و کقوله: «اللهم أغننی بالفقر إلیک و لا تفقرنی بالاستغناء عنک». و کقوله: «بع دنیاک بآخرتک تربحهما جمیعا و لا ـ تبع آخرتک بدنیاک فتخسرهما جمیعا» و کقول القائل: و إذا الدّر زان حسن وجوه کان للدرّ حسن وجهک زینه و قد یدخل فی هذا الباب قوله تعالی: یُولِجُ اللَّیْلَ فِی النَّهارِ وَ یُولِجُ النَّهارَ فِی اللَّیْلِ. و من البدیع «الالتفات» فمن ذلک ما کتب إلی الحسن بن عبد اللّه العسکری، أخبرنا محمد بن عبد اللّه الصولی، حدثنی یحیی بن علی المنجم عن أبیه عن إسحاق بن إبراهیم إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۷۴ قال: قال لی الأصمعی أ تعرف التفاتات جریر؟ قلت: لا. فما هی؟ قال: أ تنسی إذ تودعنا سلیمی بفرع بشامة سقی البشام و مثل ذلک لجریر «۱»: متی کان الخیام بذی طلوح سقیت الغیث أیتها الخیام و معنی الالتفاتات أنه اعترض فی الکلام قوله: (سقیت الغیث) و لو لم یعترض لم یکن ذلک التفاتا، و کان الکلام منتظما، و کان یقول: متی کان الخیام بذی طلوح أیتها الخیام، متی خرج عن الکلام الأول ثم رجع إلیه علی وجه یلطف، کان ذلک التفاتا. و مثله قول النابغة «۲» الجعدی: أ لا زعمت بنی سعد بأنی ألا کذبوا کبیر السن فانی و مثله قول کثیر «۳»: لو أن الباذلین و أنت منهم رأوک تعلّموا منک المطالا و مثله قول أبی تمام: و أنجدتم من بعد اتهام دارکم فیا دمع أنجدنی علی ساکنی نجد و کقول جریر: طرب الحمام بذی الأراک فشاقنی لا زلت فی غلل و أیک ناضر التفت إلی الحمام فدعا لها. و مثله قول حسان «۴»: إن التی ناولتنی فرددتها قتلت قتلت فهاتها لم تقتل و منه قول عبد اللّه بن معاویة بن عبد اللّه بن جعفر: و أجمل إذا ما کنت لا بدّ مانعا و قد یمنع الشیء الفتی و هو مجمل و کقول ابن میادة: فلا صرمه یبدو و فی الیأس راحة و لا وصله یصفو لنا فنکارمه

(۱) سبقت ترجمته. (۲) سبقت ترجمته. (۳) کثیر هو: ابن عبد الرحمن، و یعرف بکثیر عزة نسبة إلی حبیبته التی کان یشبب بها، و کان شیعیا، شدید التعصب لآل أبی طالب. مات سنة (۱۰۵ ه). له ترجمة فی: الأغانی ۱۱/ ۴۶، و خزانة الأدب ۲/ ۳۸۱. (۴) حسان هو: ابن ثابت، عاصر الجاهلیة و الإسلام فهو من المخضرمین، و اشتهر فی الجاهلیة بمدح ملوک غسان و ملوک الحیرة، و اختص بعد الإسلام بمدح النبی و الدفاع عنه. مات سنة (۵۴ ه). له ترجمة فی: خزانة الأدب ۱/ ۱۱۱، و الشعر و الشعراء (۱۷۰). إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۷۵ و نظیر ذلک من القرآن ما حکی اللّه تعالی عن إبراهیم الخلیل من قوله: اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً وَ تَخْلُقُونَ إِفْکاً «۱» إلی قوله: فَما کانَ جَوابَ قَوْمِهِ «۲» و قوله عز و جل إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ وَ یَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِیدٍ. وَ ما ذلِکَ عَلَی اللَّهِ بِعَزِیزٍ. وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِیعاً «۳» و مثله قوله: حَتَّی إِذا کُنْتُمْ فِی الْفُلْکِ وَ جَرَیْنَ بِهِمْ بِرِیحٍ طَیِّبَةٍ «۴» إلی آخر الآیة. و مثله قوله: وَ اتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ الَّذِی آتَیْناهُ آیاتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها إلی قوله: فَمَثَلُهُ کَمَثَلِ الْکَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَیْهِ یَلْهَثْ أَوْ تَتْرُکْهُ یَلْهَثْ «۵» و مثله قوله تعالی: وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَیْدِیَهُما جَزاءً بِما کَسَبا نَکالًا مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَزِیزٌ حَکِیمٌ. فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ «۶» و منهم من لا یعد الاعتراض و الرجوع من هذا الباب، و منهم من یفرده عنه کقول زهیر: قف بالدیار التی لم یعفها القدم نعم و غیّرها الأرواح و الدّیم و کقول الأعرابی: أ لیس قلیلا ـ نظرة إن نظرتها إلیک و کلّا لیس منک قلیل و کقول ابن هرمة: لیت حظی کلحظة العین منها و کثیر منها القلیل المهنّا و من الرجوع قول القائل: بکلّ تداوینا فلم یشف ما بنا علی أنّ قرب الدار خیر من البعد و قال الأعشی: صرمت و لم أصرمکم و کصارم أخ قد طوی کشحا و آب لیذهبا و کقول بشار: لی حیلة فیمن ینم م و لیس فی الکذّاب حیلة من کان یخلق ما یقو ل فحیلتی فیه قلیله و

قـال آخر: و مـا بى انتصـار إن عـدا الـدهر ظالمـا علىّ، بلى إن كـان مـن عنـدك النصـر

(______________________________________۱) آيـة (۱۶، ۱۷) سـورة العنكبوت.

(۲) آية (۲۴) سورة العنكبوت. (۳) آية (۱۹: ۲۱) سورة إبراهيم. (۴) آية (۲۲) سورة يونس. (۵) آية (۱۷۵، ۱۷۶) سورة الأعراف. (۶) آيۀ (۳۸، ۳۹) سورة المائـدة. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۷۶ و باب آخر من البديع، يسـمى «التذييل»، و هو ضـرب من «التأكيد» و هو ضـد ما قـدمنا ذكره من الإشارة كقول أبى داود: إذا ما عقـدنا له ذمّة شددنا العناج و عقد الكرب و أخذه الحطيئة «۱» فقال: فدعوا نزال فكنت أول نـازل و علام أركبه إذا لم أنزل و كقول جرير: لقـد كنت فيها يا فرزدق تابعا و ريش الـذّنابى تابع للقوادم و مثله قوله عز و جـل: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً إلى قوله: إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ. وَ نُرِيـدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ. إلى قوله: خاطِئِينَ «۲». و باب من البديع يسـمى الاستطراد، فمن ذلك ما كتب إلى الحسن بن عبـد اللّه قال: أنشدنى أبو بكر بن دريد قال: أنشدنا أبو حاتم عن أبى عبيدة، لحسان بن ثابت رضـى اللّه تعالى عنه: إن كنت كاذبة التى حدّثتنى فنجوت منجى الحرث بن هشام ترك الأحبّة أن يقاتل دونهم و رمى برأس طمرّة و لجام و كقول السموأل: و إنا لقوم لا نرى القتل سبّة إذا ما رأته عامر و سلول و كقول الآخر: خليلىّ من كعب أعينا أخاكما على دهره، إن الكريم معين و لا تبخلا بخل ابن قزعة إنه مخافة أن يرجى تراه حزين و كقول الآخر: فما ذرّ قرن الشّمس حتّى كأننا من العىّ نحكى أحمد بن هشام و كقول زهير: إن البخيـل ملـوم حيـث كـان و ل كـنّ الجـواد على علّـاته هرم

(______________________________________۱) الحطيئة هـو: جرول بـن أوس من بنى عبس، و من فحول الشعراء و مقدميهم و فصحائهم، متين الشعر، و كان إذا نزل فى مدينة أو نجع دب الخوف فى أهله، و أرصدوا له العطايـا خوفـا من لسانه. له ترجمـة فى: خزانـة الأدب ۱/ ۴۰۹، و الجمهرة (۱۵۳)، و الشعر و الشعراء (۱۸۰). (۲) آية (۴: ۸) سورة القصص. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۷۷ و فيما كتب إلى الحسن بن عبد اللّه قال: أخبرنى محمد بن يحيى، حدثنى محمد بن على الأنبارى قال: سـمعت البحترى يقول: أنشدنى أبو تمام لنفسه: و سابح هطل التّعداء هتّان على الجراء أمين غير خوّان أظمئ الفصوص و لم تظمأ قوائمه فجـل عينك فى ريان ظمئان و لو تراه مشيحا و الحصـى قلق بين السـنابك من مثنى و وحـدان أيقنت إن لم تثبت أن حافره من صـخر تدمر أو من وجه عثمان و قال لى: ما هذا من الشـعر؟ قلت: لا أدرى. قال: هذا المستطرد، أو قال: الاستطراد قلت: و ما معنى ذلـك، قـال: يرى أنه يصف الفرس، و يريـد هجـاء عثمـان، فقـال: و قـال البحترى: مـا إن يعـاف قـذى و لو أوردته يومـا خلائق حمـدويه الأحـول قال: فقيل للبحترى: إنك أخـذت هـذا من أبى تمام، فقال: ما يعاب علىّ أن آخـذ منه و اتبعه فيما يقول. و من هـذا البـاب قول أبى تمـام: صبّ الفراق علينـا صبّ من كتب عليه إسـحاق يوم الرّوع منتقمـا و منه قول السـرى الرفـاء: نزع الوشاة لنا بسـهم قطيعة يرمى بسـهم الحين من يرمى به ليت الزمان أصاب حب قلوبهم بقنا ابن عبد اللّه أو بحرابه و نظيره من القرآن: أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَ الشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَ هُمْ داخِرُونَ. وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَ الْمَلائِكَةُ وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ «۱» كأنه كان المراد أن يجرى بالقول الأول إلى الإخبار عن أن كل شـىء يسجد للّه عز و جل، و إن كان ابتـداء الكلام فى أمر خـاص. و من البـديع عنـدهم التكرار كقول الشاعر: هلّا سألت جموع كن دة يوم ولّوا أين أينا و كقول الآخر: و كـانت فزارة تصـلى بنـا فـأولى فزارة أولى لهـا و نظيره مـن القرآن كـثير كقـوله: فَـإِنَّ مَـعَ الْعُسْـرِ يُسْـراً. إِنَّ مَـعَ الْعُسْـرِ

(______________________________________۱) آية (۴۸، ۴۹) سورة النحل. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۷۸ يُسْراً «۱»، و كالتكرار فى قوله: قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ «۲» و هذا فيه معنى زائد على التكرار؛ لأنه يفيد الإخبار عن الغيب. و من البـديع عندهم ضـرب من الاسـتثناء كقول النابغة «۳»: و لا عيب فيهم غير أن سـيوفهم بهن فلول من قراع الكتـائب و كقول النابغـة الجعدى «۴»: فتى كملت أخلاقه غير أنه جواد فلا يبقى من المـال باقيـا فتى تم فيه ما يسر صـديقه على أن فيه ما يسوء الأعاديا و كقول الآخر: حليم إذا ما الحلم زيّن أهله مع الحلم فى عين العدو مهيب كقول أبى تمام «۵»: تنصّل ربّها من غير جرم إليك

سوى النصيحة و الوداد و وجوه البـديع كثيرة جـدا، فاقتصـرنا على ذكر بعضـها، و نبهنا بذلك على ما لم نذكر كراهة التطويل، فليس الغرض ذكر جميع أبواب البـديع. و قـد قـدر مقـدرون أنه يمكن اسـتفادة إعجاز القرآن من هذه الأبواب التى نقلناها، و إن ذلك مما يمكن الاسـتدلال به عليه، و ليس كـذلك عندنا؛ لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدرب و التعود و التصـنع لها، و ذلك كالشعر الذى إذا عرف الإنسان طريقه صح منه التعمل له، و أمكنه نظمه. و الوجوه التى تقول إن إعجاز القرآن يمكن أن يعلم منها، فليس مما يقدر البشـر على التصـنع له و التوصل إليه بحال. و يبين ما قلنا: أن كثيرا من المحدثين قد تصـنّع لأبواب الصـنعة، حتى حشـى جميع شـعره منها، و اجتهد أن لا يفوته بيت إلا و هو يملؤه من الصـنعة، كما صـنع أبو تمام فى لاميته: متى أنت عن ذهليّة الحى ذاهـــــــــــل و صـــــــــــدرك منهـــــــــــــدرك منهـــــــــــــا مـــــــــــــــــــدة الـــــــــــــدهر آهل

(____١) آيـة (۵، ۶) سورة الانشـراح. (٢) آية (١) سورة الكـافرون. (٣) سـبقت ترجمته. (۴) سبقت ترجمته. (۵) سـبقت ترجمته. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ٧٩ تطل طلول الـدمع فى كـلّ موقف و تمثـل بـالصبر الـديار المواثل دوارس لم يحف الربيع ربوعها و لا مرّ فى أغفالها و هو غافل فقـد سـحبت فيها السـحاب ذيولها و قد اخملت بالنور تلك الخمائل تعفين من زاد العفاة إذا انتحى على الحىّ صـرف الأزمة المتماحل لهم سـلف سـمر العوالى و سـامر و فهم جمال لا يعيض و جامل ليالى أضـللت العزاء و خزّلت بعقلك آرام الخـدور العقائل من الهيف لو أن الخلاخيل صيّرت لهـا و شـحا جـالت عليه الخلاخـل مهـا الوحش إلاـ أن هاتا أو أنس قنا الخطّ إلا أن تلك ذوابل هوى كان خلسا إن من أطيب الهوى هوى جلت فى أفيـائه و هو خامـل و من الأدبـاء من عاب عليه هـذه الأبيات و نحوها على ما قـد تكلف فيها البـديع و تعمل من الصـنعة، فقال: قد أذهب ماء هذا الشـعر و رونقه و فائدته اشتغالا بطلب التطبيق و سائر ما جمع فيه. و قد تعصب عليه أحمد بن عبد اللّه بن عمار، و أسرف حتى تجاوز إلى الغض من محاسنه، و لما قد أولع به من الصنعة ربما غطى على بصره حتى يبدع فى الحسن كقوله فى قصـيدة له أولها: سـرت تسـتجير الـدمع خوف نوى غـد و عاد قتادا عنـدها كلّ مرقـد فقال لها: لعمرى لقـد حرّرت يوم لقيته لو أن القضاء وحـده لم يبرّد و كقوله: لو لم تدارك من المجد مذ زمن بالجود و البأس كان المجد قد خرفا فهذا من الاسـتعارات القبيحة، و البديع المقيت كقوله: تسعون ألفا كآساد الشّرى نضجت أعمارهم قبل نضج التين و العنب و كقوله: لو لم يمت بين أطراف الرماح إذا لمات إذ لم يمت من شـدة الحزن و كقوله: «خشـنت عليه أخت بنى خشـين». و كقوله: ألا لا يمـد الدهر كفا بسيّئ إلى مجتدى نصر فتقطع من الزنـد و قال فى وصف المطايا: لو كان كلّفها عبيـد حاجـة يوما لزنّى شـدقما و جديلا و كقوله: فضـربت الشـتاء فى أخدعيه ضربـة غـادرته عودا ركوبا إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ٨٠ فهـذا و ما أشـبه إنما يحـدث من غلوّه فى محبة الصـنعة، حتى يعميه عن وجه الصواب، و ربما أسـرف فى المطابق و المجانس و وجوه البـديع من الاسـتعارة و غيرها، حتى اسـتقلّ نظمه، و اسـتوخم رصـعه، و كان التكلف باردا، و التصـرف جامـدا، و ربما اتفق مع ذلك فى كلامه النادر المليح، كما يتفق البارد القبيح. فأما البحترى فإنه لا يرى فى التجنيس ما يراه أبو تمام، و يقل التصنع له. فإذا وقع فى كلامه، كان فى الأكثر حسنا رشيقا، و ظريفا جميلا، و تصنعه للمطابق كثير حسن، و تعمقه فى وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة و الرغبة فى السلاسة، فلذلك يخرج سليما من العيب فى الأكثر. و أما وقوف الألفاظ به عن تمام الحسـنى، و قعود العبارات عن الغايـة القصوى، فشـىء لا بد منه، و أمر لا محيص عنه، و كيف و قد وقف على من هو أجل منه و أعظم قدرا فى هذه الصـنعة، و أكبر فى الطبقة، كامرئ القيس، و زهير، و النابغة، و إلى يومه و نحن نبين تميز، كلامه و انحطاط درجـة قولهم، و نزول طبقـة نظمهم عن بـديع نظم القرآن فى باب مفرد، يتصور به ذو الصـنعة ما يجب تصوره، و يتحقق وجه الإعجاز فيه بمشيئة اللّه و عونه. ثم رجع الكلام بنا إلى ما قـدمناه، من أنه لا سبيل إلى معرفـة إعجاز القرآن من البديع الذى ادعوه فى الشـعر و وصـفوه فيه. و ذلك أن هـذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة، و يخرج عن العرف، بل يمكن اسـتدراكه بالتعلم و التـدرب به و التصـنع له، كقول الشعر، و وصف الخطب، و صناعة الرسالة، و الحذق فى البلاغة. و له طريق يسلك، و وجه يقصد، و سلّم يرتقى فيه إليه، و مثال قد يقع طالبه عليه. فرب إنسان يتعود أن ينظم جميع كلامه شـعرا، أو يتعود أن يكون جميع خطابه سجعا، أو صنعة متصلة،

لا یسقط من کلامه حرف، و قد یبادئ به ما قد تعوده، و أنت تری أدباء زماننا یضیفون المحاسن فی جزء، و کذلک یؤلفون أنواع البارع، ثم ینظرون فیه إذا أرادوا إنشاء قصیدة، أو رسالة، أو خطبة، فیحشون به کلامهم. و من کان قد تدرب و تقدم فی حفظ ذلک، اشتغل عن هذا التصنیف و لم یحتج إلی تکلف هذا التألیف، و کان ما أشرف علیه من هذا الشأن باسطا من باع کلامه، و موشحا بأنواع البدیع ما یحاوله من قوله، و هذا طریق لا یتعذر، و باب لا یمتنع، و کل یأخذ فیه مأخذا، و یقف فیه موقفا علی قدر ما معه من المعرفة، و بحسب ما یمده من الطبع. فأما شأو نظم القرآن، فلیس له مثال یحتذی إلیه، و لا إمام یقتدی به، و لا یصح وقوع مثله اتفاقا؛ کما یتفق للشاعر البیت النادر، و الکلمة الشاردة، و المعنی الفذ الغریب، إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۸۱ و الشیء القلیل العجیب. و کما یلحق بکلامه بالوحشیات، و یضاف من قوله إلی الأوابد؛ لأن ما جری هذا المجری، و وقع هذا الموقع، فإنما یتفق للشاعر فی لمع من شعره، و للکاتب فی قلیل من رسائله، و للخطیب فی یسیر من خطبه، و لو کان کل شعره نادرا و مثلا سائرا، و معنی بدیعا، و لفظا رشیقا، و کل کلامه مملوءا من رونقه، و مائه و مملأ ببهجته و حسن روائه، و لم یقع فیه المتوسط بین الکلامین، و المتردد بین الطرفین، و لا البارد المستثقل، و الغث المستنکر، لم یبن الإعجاز فی الکلام، و لم یبن التفاوت العجیب بین النظام و النظام. و هذه جملة تحتاج إلی تفصیل، و مبهم قد یحتاج فی بعض إلی تفسیر، و سنذکر ذلک بمشیئة اللّه و عونه، و لکن قد یمکن أن یقال فی البدیع الذی حکیناه، و أضفناه إلیهم، أن ذلک باب من أبواب البراعة، و جنس من أجناس البلاغة، و أنه لا ینفک القرآن عن فن من فنون بلاغاتهم، و لا وجه من وجوه فصاحاتهم. و إذا أورد هذا المورد، و وضع هذا الموضع، کان جدیرا. و إنما لم نطلق القول إطلاقا، لأنا لا نجعل الإعجاز متعلقا بهذه الوجوه الخاصة، و وقفا علیها. و مضافا إلیها، و إن صح أن تکون هذه الوجوه مؤثرة فی الجملة، آخذة بخطها من الحسن و البهجة متی وقعت فی الکلام علی غیر وجه التکلف المستبشع، و التعمل المستبشع. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۸۲

فصل: فی کیفیة الوقوف علی إعجاز القرآن

اشارة

فصل: فی کیفیة الوقوف علی إعجاز القرآن قد بینا أنه لا یتهیأ لمن کان لسانه غیر العربیة، من العجم و الترک و غیرهم، أن یعرفوا إعجاز القرآن إلا أن یعلموا أن العرب قد عجزوا عن ذلک. فإذا عرفوا هذا بأن علموا أنهم قد تحدّوا علی أن یأتوا بمثله، و قرّعوا علی ترک الإتیان بمثله، و لم یأتوا به، تبینوا أنهم عاجزون عنه. و إذا عجز أهل ذلک اللسان، فهم عنه أعجز. و کذلک نقول إن من کان أهل اللسان العربی إلّا أنه لیس یبلغ فی الفصاحة الحد الذی یتناهی إلی معرفة أسالیب الکلام، و وجوه تصرّف اللغة، و ما یعدّونه فصیحا بلیغا بارعا من غیره، فهو کالأعجمی، فی أنه لا یمکنه أن یعرف إعجاز القرآن، إلا بمثل ما بینا أن یعرف به الفارسی الذی بدأنا بذکره، و هو و من لیس من أهل اللسان سواء. فأما من کان قد تناهی فی معرفة اللسان العربی، و وقف علی طرقها و مذاهبها، فهو یعرف القدر الذی ینتهی إلیه وسع المتکلم من الفصاحة، و یعرف ما یخرج عن الوسع، و یتجاوز حدود القدرة، فلیس یخفی علیه إعجاز القرآن، کما یمیز بین جنس الخطب و الرسائل و الشعر، و کما یمیز بین الشعر الجید و الردیء، و الفصیح و البدیع، و النادر و البارع و الغریب. و هذا کما یمیز أهل کل صناعة صنعتهم، فیعرف الصّیرفیّ من النقد ما یخفی علی غیره، و یعرف البزاز من قیمة الثوب و جودته و رداءته ما یخفی علی غیره، و إن کان یبقی مع معرفة هذا الشأن أمر آخر. و ربما اختلفوا فیه؛ لأن من أهل الصنعة من یختار الکلام المتین و القول الرصین. و منهم من یختار الکلام الذی یروق ماؤه، و تروع بهجته و رواؤه، و یسلس مأخذه، و یسلم وجهه و منفذه، و یکون قریب المتناول، غیر عویص اللفظ و لا غامض المعنی. کما یختار قوم ما یغمض معناه و یغرب لفظه، و لا یختار ما سهل علی اللسان و سبق إلی البیان. و روی أن عمر بن الخطاب رضی اللّه عنه وصف زهیرا فقال: «کان لا یمدح الرجل

إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۸۳ إلا بما فيه» و قال لعبد بنى الحسحاس حين أنشده: «كفى الشيب و الإسلام للمرء ناهيا» أما إنه لو قلت مثل هذا لأجزتك عليه. و روى أن جريرا سأل عن أحسن الشعر، فقال قوله: إن الشقى الذى فى النار منزله و الفوز فوز الذى ينجو من النار كأنه فضله لصدق معناه. و منهم من يختار الغلو فى قول الشعر و الإفراط فيه حتى ربما قالوا «أحسن الشعر أكذبه» كقول النابغة: يقدّ السلوقيّ المضاعف نسجه و يوقدن بالصّيفاح نار الحباحب و أكثرهم على مدح المتوسط بين المذهبين فى الغلو و الاقتصاد، و فى المتانة و السلامة، و منهم من رأى أن أحسن الشعر ما كان أكثر صنعة، و ألطف تعملا، و أن يتخير الألفاظ الرشيقة للمعانى البديعة و القوافى الواقعة، كمذهب البحترى، و على ما وصفه عن بعض الكتاب: فى نظام من البلاغة ما شك ك امرؤ أنه نظام فريد و بديع كأنه الزهر الضا حك فى رونق الربيع الجديد حزن مستعمل الكلام اختيارا و تجنبن ظلمة التعقيد و ركبن اللفظ القريب فأدركن به غاية المراد البعيد و يرون أن من تعدى هذا كان سالكا مسلكا عاميا و لم يروه شاعرا و لا مصيبا. و فيما كتب الحسن بن عبد اللّه أبو أحمد العسكرى قال: أخبرنى محمد بن يحيى، قال: أخبرنى عبد اللّه بن الحسن، قال: قال لى البحترى: دعانى على بن الجهم فمضيت إليه، فأفضنا فى أشعار المحدثين إلى أن ذكرنا شعر أشجع، فقال لى: إنه يخلى، و أعادها مرات، و لم أفهمها؛ و أنفت أن أسأله عن معناها، فلما انصرفت فكرت فى الكلمة، و نظرت فى شعره، فإذا هو ربما مرت له الأبيات مغسولة ليس فيها بيت رائع؛ و إذا هو يريد هذا بعينه، أن يعمل الأبيات، فلا يصيب فيها ببيت نادر، كما أن الرامى إذا رمى برشقة فلم يصب بشىء قيل قد أخلى. قال: و كان على بن الجهم أحسن الناس علما بالشعر. و قوم من أهل اللغة يميلون إلى الرصين من الكلام، الذى يجمع الغريب و المعانى، مثل أبى عمرو بن العلاء، و خلف الأحمر، و الأصمعى. و منهم من يختار الوحشى من الشعر، كما اختار المفضل للمنصور من المفضليات. و قيل: إنه اختار ذلك لميله إلى ذلك الفن. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۸۴ و ذكر الحسن بن عبد اللّه أنه أخبره بعض الكتاب عن على بن العباس قال: «حضرت مع البحترى مجلس عبيد اللّه بن عبد اللّه بن طاهر، و قد سئل البحترى عن أبى نواس و مسلم بن الوليد، أيهما أشعر؟ فقال البحترى: أبو نواس أشعر، فقال عبيد اللّه: إن أبا العباس ثعلبا لا يطابقك على قولك، و يفضل مسلما، فقال البحترى: ليس هذا من عمل ثعلب و ذويه من المتعاطين لعلم الشعر دون عملهن، إنما يعلم ذلك من وقع فى سلك الشعر إلى مضايقه، و انتهى إلى ضروراته. فقال له عبيد اللّه: وريت بك زنادى يا أبا عبادة، و قد وافق حكمك حكم أخيك بشار ابن برد فى جرير و الفرزدق أيهما أشعر؟ فقال: جرير أشعرهما، فقيل له: بما ذا؟ فقال: لأن جريرا يشتد إذا شاء، و ليس كذلك الفرزدق؛ لأنه يشتد أبدا. فقيل له: فإن يونس و أبا عبيدة يفضلان الفرزدق على جرير. فقال: ليس هذا من عمل أولئك القوم. إنما يعرف الشعر من يضطر إلى أن يقول مثله. و فى الشعر ضروب لم يحسنها الفرزدق، و لقد ماتت النّوار امرأته فناح عليها بقول جرير: لو لا الحياء لعادنى استعبار و لزرت قبرك و الحبيب يزار و روى عن أبى عبيدة أنه قال للفرزدق: ما لك لا تنسب كما ينسب جرير؟ فغاب حولا ثم جاء فأنشد: يا أخت ناجية بن سامة إننى أخشى عليك بنىّ إن طلبوا دمى و الأعدل فى الاختيار ما سلكه أبو تمام من الجنس الذى جمعه فى كتاب «الحماسة» و ما اختاره من «الوحشيات» و ذلك أنه تنكر المستنكر الوحشى، و المبتذل العامى، و أتى بالواسطة. و هذه الطريقة من ينصف فى الاختيار، و لا يعدل به غرض يخص؛ لأن الذين اختاروا الغريب فإنما اختاروه لغرض لهم فى تفسير ما يشتبه على غيرهم، و إظهار التقدم فى معرفته و عجز غيرهم عنه، و لم يكن قصدهم جيد الأشعار لشىء يرجع إليها فى أنفسها، و يبين هذا أن الكلام موضوع للإبانة عن الأغراض التى فى النفوس. و إذا كان كذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة على المراد، و أوضح فى الإبانة عن المعنى المطلوب، و لم يكن مستكره المطلع على الأذن، و مستنكر المورد على النفس، حتى يتأبى بغرابته فى اللفظ عن الإفهام، أو يمتنع بتعويض معناه عن الإبانة. و يجب أن يتنكب ما كان عليه اللفظ، مبتذل العبارة، ركيك المعنى، سفسافى إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۸۵ الوضع، مجتنب التأسيس على غير أصل ممهد، و لا طريق موطد، و إنما فضلت العربية على غيرها لاعتدالها فى الوضع. و لذلك وضع أصلها على أكثرها بالحروف المعتدلة، فقد أهملوا الألفاظ المستكرهة فى نظمها، و أسقطوها من كلامهم، فجرى لسانهم على الأعدل، و لذلك صار أكثر كلامهم من الثلاثى لأنهم بدءوا بحرف و سكتوا على آخر، و

جعلوا حرفا وصلة بين الحرفين ليتم الابتداء و الانتهاء على ذلك. و الثنائى أقل، و كذلك الرباعى و الخماسى أقل. و لو كان كله ثنائيا لتكررت الحروف، و لو كـان كله رباعيا أو خماسيا لكثرت الكلمات. و كـذلك بنى أمر الحروف التى ابتدئ بها السور التى ابتـدئت بـذكر الحروف ذكر فيها ثلاثـة أحرف، و ما هو أربعـة أحرف سورتان، و ما ابتـدئ بخمسة أحرف سورتان، فأما ما بدئ بحرف واحد فقـد اختلفوا فيه، فمنهم من لم يجعـل ذلـك حرفـا، و إنما جعله فعلا و اسـما لشـيء خاص. و من جعل ذلك حرفا قال: أراد أن يحقق الحروف مفردها و منظومها. و لضيق ما سوى كلام العرب، أو لخروجه عن الاعتدال يتكرر فى بعض الألسنة الحرف الواحد فى الكلمة الواحدة. و الكلمات المختلفة كثيرا، كنحو تكرر الطاء و السين فى لسان يونان، و كنحو الحروف الكثيرة التى هى اسم لشيء واحد فى لسـان الترك. و لـذلك لا يمكن أن ينظم من الشـعر فى تلك الألسـنة على الأعاريض التى تمكن فى اللغـة العربيـة. و العربيـة أشـدها تمكنا و أشـرفها تصـرفا و أعـدلها، و لـذلك جعلت حلية لنظم القرآن، و علق بها الإعجاز، و صارت دلالة فى النبوة. و إذا كان الكلام إنما يفيـد الإبانـة عن الأغراض القائمة فى النفوس التى لا يمكن التوصل إليها بأنفسـها، و هى محتاجة إلى ما يعبر عنها. فما كان أقرب فى تصويرهـا و أظهر فى كشـفها للفهم الغـائب عنهـا، و كـان مع ذلـك أحكم فى الإبانـة عن المراد، و أشـد تحقيقـا فى الإيضاح عن الطلب، و أعجب فى وضـعه، و أرشق فى تصـرفه، و أبرع فى نظمه، كـان أولى و أحق بـأن يكون شـريفا. و قـد شـبهوا النطق بالخط، و الخط يحتاج مع بيانه إلى رشاقة و صـحة و لطف، حتى يجوز الفضـيلة و يجمع الكمال. و شـبهوا الخط و النطق بالتصوير. و قد أجمعوا أن من أحـذق المصورين من صوّر لـك البـاكى المتضاحك، و الباكى الحزين، و الضاحك المتباكى، و الضاحك المستبشـر. و كما أنه يحتـاج إلى لطف يـد فى تصوير هـذه الأمثلـة، فكـذلك يحتـاج إلى لطف فى اللسـان و الطبع فى تصوير ما فى النفس للغير، و فى جملة الكلام إلى ما تقصر إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۸۶ عبارته و تفضل معانيه. و فى ما تقصر المعانى و تفضل العبارات، و فيه ما يقع كل واحد منهما وفقا للآخر، ثم ينقسم ما يقع وفقا إلى أنه قد يفيدها على تفصيل. و كل واحد منهما قد ينقسم إلى ما يفيدها على أن يكون كل واحد منهما بديعا شـريفا و غريبا لطيفا. و قد يكون كل واحد منهما مستجلبا متكلفا و مصـنوعا متعسفا، و قد يكون كل واحد منهما حسـنا رشـيقا، و بهيجا نضـيرا، و قد يتفق أحد الأمرين دون الآخر، و قد يتفق أن يسلم الكلام و المعنى من غير رشاقة و لا نضارة فى واحـد منهما. إنما يميز من يميز، و يعرف من يعرف، و الحكم فى ذلك صـعب شديـد، و الفضل فيه شأو بعيد. و قد قل من يميز أصـناف الكلام؛ فقـد حكى عن طبقـة أبى عبيدة، و خلف الأحمر و غيرهم، فى زمانهم أنهم قالوا: ذهب من يعرف نقد الشـعر. و قـد بينـا قبـل هـذا اختلاف القوم فى الاختيـار، و مـا يجب أن يجمعوا عليه و يرجعوا عنـد التحقيق إليه. و كلام المقتـدر نمط، و كلام المتوسع باب، و كلام المطبوع له طريق، و كلام المتكلف له منهاج، و الكلام المصـنوع المطبوع له باب. و متى تقدم الإنسان فى هذه الصـنعة لم تخف عليه هـذه الوجوه، و لم تشتبه عنده هذه الطرق. فهو يميز قدر كل متكلم بكلامه، و قدر كل كلام فى نفسه، و يحله محله، و يعتقد فيه ما هو عليه، و يحكم فيه بما يسـتحق من الحكم، و إن كان المتكلم يجود فى شيء دون شيء عرف ذلك منه، و إن كـان يعم إحسانه عرف، أ لا ترى أن منهم من يجود فى المـدح دون الهجو، و منهم من يجود فى الهجو وحـده، و منهم من يجود فى المـدح و السـخف، و منهم من يجود فى الأوصاف. و العالم لا يشذ عنه مراتب هؤلاء، و لا يذهب عليه أقدارهم، حتى أنه إذا عرف له طريقـة شاعر فى قصائـد معـدودة فأنشـد غيرها من شـعر لم يشك أن ذلك من نسـجه، و لم يرتب فى أنه من نظمه. كما أنه إذا عرف خط رجل لم يشـتبه عليه خطه، حيث رآه من بين الخطوط المختلفـة، و حتى يميز بين رسائل كاتب و بين رسائل غيره. و كـذلك أمر الخطب فإن اشتبه البعض، فهو لاشـتباه الطريقين و تماثل الصورتين. كما قد يشتبه شعر أبى تمام بشعر البحترى فى القليل الذى يترك أبو تمام فيه التصـنع، و يقصـد فيه التسـهل و يسـلك الطريقـة الكتابية، و يتوجه فى تقريب الألفاظ و ترك تعويض المعانى، و يتفق له مثل بهجة أشعار البحترى و ألفاظه. و لا يخفى على أحد يميز هذه الصنعة، سبك أبى نواس، و لا نسج ابن الرومى، من نسج البحترى، و ينبهه ديباجـة شـعر البحترى، و كثرة مائه، و بـديع رونقه، و بهجة كلامه، إلا فيما يسترسل فيه، فيشـتبه بشـعر ابن الرومى، و يحركه ما لشـعر أبى نواس من الحلاـوة و الرقـة إعجـاز القرآن(الباقلاـنى)، ص: ۸۷ و الرشاقـة و السـلاسة، حتـى يفرق بينـه و بين شـعر مسـلم. و

كذلك يميز بين شعر الأعشى، فى التصرّف و بين شعر امرئ القيس، و بين شعر النابغة و زهير، و بين شعر جرير و الأخطل، و البعيث و الفرزدق. و كل له منهج معروف، و طريق مألوف. و لا يخفى عليه فى زماننا الفضل بين رسائل عبد الحميد و طبقته، و بين طبقة من بعده، حتى أنه لا يشتبه عليه ما بين رسائل ابن العميد و بين رسائل أهل عصره، و من بعده ممن برع فى صنعة الرسائل، و تقدم فى شأوها حتى جمع فيها بين طرق المتقدمين، و طريقة المتأخرين، حتى خلص لنفسه طريقة، و أنشأ لنفسه منهاجا، فسلك تارة طريقة الجاحظ، و تارة طريقة السجع، و تارة طريقة الأصل، و برع فى ذلك باقتداره، و تقدم بحذقه، و لكنه لا يخفى مع ذلك على أهل الصنعة طريقه من طريق غيره. و إن كان قد يشتبه البعض و يدق القليل و تغمض الأطراف و تشذ النواحى. و قد يتقارب سبك نفر من شعراء عصره، و تتدانى رسائل كتاب دهر، حتى تشتبه اشتباها شديدا، و تتماثل تماثلا قريبا، فيغمض الفصل. و قد يتشاكل الفرع و الأصل و ذلك فيما لا يتعذر إدراك أمده، و لا يتصعب طلاب شأوه، و لا يتمنع بلوغ غايته، و الوصول إلى نهايته، لأن الذى يتفق مع الفضل بين أهل الزمان إذا تفاضلوا و تفاوتوا فى مضمار فصل قريب و أمر يسير. و كذلك لا يخفى عليهم معرفة سارق الألفاظ، و سارق المعانى، و لا من يخترعها، و لا من يسلم بها، و لا من يجاهر بالأخذ ممن يكاتم به، و لا من يخترع الكلام اختراعا، و يبتدهه ابتداها، ممن يروّى فيه، و يجيل الفكر فى تنقيحه، و يصير عليه حتى يتخلص له ما يريد، و حتى يتكرر نظره فيه. قال أبو عبيدة: سمعت أبا عمرو يقول: زهير و الحطيئة و اشباههما عبيد الشعر، لأنهم نقحوه و لم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين؛ و كان زهير يسمّى كبر شعره «الحوليات المنقحة». و قال عدى بن الرقاع: و قصيدة قد بت أجمع بينها حتى أقوّم ميلها و سنادها نظر المثقّف فى كعوب قناته حتى يقيم ثقافة منادها و كقول سويد بن كراع: أبيت بأبواب القوافى كأنما أصادى بها سربا من الوحش نزّعا و منهم من يعرف بالبديهة وحدة الخاطر، و نفاد الطبع و سرعة النظم، يرتجل القول ارتجالا، و يطبعه عفوا صفوا. فلا يقعد به عن قوم قد تعبوا و كدوا أنفسهم، و جاهدوا خواطرهم. و كذلك لا ـ يخفى عليهم الكلام العلوى و اللفظ الملوكى، كما لا يخفى عليهم الكلام إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۸۸ العامى و اللفظ السوقى ثم تراهم ينزلون الكلام تنزيلا، و يعطونه كيف تصرف حقوقه، و يعرفون مراتبه فلا يخفى عليهم ما يختص به كل فاضل تقدم فى وجه من وجوه النظم، من الوجه الذى لا يشاركه فيه غيره، و لا يساهمه سواه. أ لا تراهم وصفوا زهيرا بأنه أمدحهم، و أشدهم أثر شعر. قاله أبو عبيدة، و روى أن الفرزدق انتحل بيتا من شعر جرير، و قال: هذا يشبه شعرى. فكان هؤلاء لا يخفى عليهم ما قد نسبناه إليهم من المعرفة بهذا الشأن، و هذا كما يعلم البزازون هذا الديباج عمل بتستر، و هذا لم يعمل بتستر، و أن هذا من صنعة فلان دون فلان، و من نسج فلان دون فلان، حتى لا يخفى عليه و إن كان قد يخفى على غيره. ثم إنهم يعلمون أيضا من له سمت بنفسه، و رفت برأسه، و من يقتدى فى الألفاظ أو فى المعانى أو فيهما بغيره، و يجعل سواه قدوة له. و من يلم فى الأحوال بمذهب غيره و يأتى فى الأحيان بمخترعه. و هذه أمور ممهدة عند العلماء، و أسباب معروفة عند الأدباء. و كما يقولون إن البحترى يغير على أبى تمام إغارة. و يأخذ منه صريحا و إشارة، و يستأنس بالأخذ منه، بخلاف ما يستأنس بالأخذ من غيره، و يألف اتباعه كما لا يألف اتباع سواه. و كما كان أبو تمام يلم بأبى نواس و مسلم، و كما يعلم أن بعض الشعراء يأخذ من كل أحد لا يتحاشى، و يؤلف ما يقوله من فرق شتى. و ما الذى نفع المتنبى جحوده الأخذ، و إنكاره معرفة الطائيين. و أهل الصنعة يدلون على كل حرف أخذه منهما جهارا، أو ألم بهما فيه سرارا؟! و أما ما لم يأخذ عن الغير، و لكن سلك النمط، و راعى النهج، فهم يعرفونه، و يقولون هذا أشبه به من التمرة بالتمرة، و أقرب إليه من الماء إلى الماء، و ليس بينهما إلا ـ كما بين الليلة و الليلة. فإذا تباينا و ذهب أحدهما فى غير مذهب صاحبه، و سلك فى غير جانبه، قيل بينهما ما بين السماء و الأرض، و ما بين النجم و النون، و ما بين المشرق و المغرب. و إنما أطلت عليك و وضعت جميعه بين يديك، لتعلم أن أهل الصنعة يعرفون دقيق هذا الشأن و جليله، و غامضه و قريبه، و بعيده و معوجه و مستقيمه. فكيف يخفى عليهم الجنس الذى هو بين الناس متداول، و هو قريب متناول، من أمر يخرج عن أجناس كلامهم، و يبعد عما هو فى عرفهم، و يفوت مواقع قدرهم؟ و إذا اشتبه ذلك، فإنما يشتبه على ناقص فى الصنعة، أو قاصر عن معرفة طرق الكلام الذى يتصرفون فيه، و يديرونه بينهم، و لا يتجاوزنه، فكلامهم سبل مضبوطة، و طرق إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۸۹ معروفة محصورة. و

هذا كما يشتبه على من يدّعى الشعر من أهل زماننا، و العلم بهذا الشأن، فيدّعى أنه أشعر من البحترى، و يتوهم أنه أدق مسلكا من أبى نواس و أحسن طريقا من مسلم. و أنت تعلم أنهما متباعدان، و تتحقق أنهما لا يجتمعان، و لعل أحدهما إنما يلحظ عبارة صاحبه، و يطالع ضياء نجمه، و يراعى حقوق جناحه، و هو راكد فى موضعه، و لا يضر البحترى ظنه، و لا يلحقه بشأوه و همه. فإن اشتبه على متأدب أو متشاعر أو ناشئ أو مرمد فصاحة القرآن، و موقع بلاغته، و عجيب براعته، فما عليك منه، إنما يخبر عن نقصه و يدل على عجزه، و يبين عن جهله، و يصرح بسخافة فهمه، و ركاكة عقله. و إنما قدمنا ما قدمناه فى هذا الفصل لتعرف أن ما ادعيناه من معرفة البليغ بعلو شأن القرآن، و عجيب نظمه، و بديع تأليفه أمر لا يجوز غيره و لا يحتمل سواه، و لا يشتبه على ذى بصيرة و لا يخيل عند أخى معرفة كما يعرف الفضل بين طباع الشعراء من أهل الجاهلية، و بين المخضرمين و بين المحدثين و يميز بين من يجرى على شاكلة طبعه و غريزة نفسه، و بين من يشتغل بالتكلف و التصنع، و بين ما يصير التكلف له كالمطبوع، و بين من كان مطبوعه كالتعمل المصنوع. هيهات هيهات، هذا أمر و إن دق فله قوم يقبلونه علما، و أهل يحيطون به فهما، و يعرفونه إليك إن شئت، و يصورونه لديك إن أردت، و يجلونه على خواطرك إن أحببت، و يعرضونه لفطنتك إن حاولت، و قد قال القائل: للحرب و الضرب أقوام لها خلقوا و للدّواوين كتّاب و حسّاب و لكل عمل رجال، و لكل صنعة ناس، و فى كل فرقة الجاهل و العالم و المتوسط. و لكن قد قلّ من يميز فى هذا الفن خاصة، و ذهب من يحصل فى هذا الشأن إلا قليلا، فإن كنت ممن هو بالصفة التى وصفناها من التناهى فى معرفة الفصاحات، و التحقيق بمجارى البلاغات، فإنما يكفيك التأمل و يغنيك التصور، و إن كنت فى الصنعة مرمدا، و فى المعرفة بها متوسطا، فلا بد لك من التقليد، و لا غنى بك عن التسليم. إن الناقص فى هذه الصنعة كالخارج عنها، و الشادى فيها كالبائن منها. فإن أراد أن يقرب عليه أمرا، و يفسح له طريقا، و يفتح له بابا، ليعرف به إعجاز القرآن. فإنا نضع بين يديه الأمثلة، و نعرض عليه الأساليب، و نصور له صورة كل قبيل من النظم و النثر، و نحضر له من كل فن من القول شيئا يتأمله حق تأمله و يراعيه حق مراعاته، فيستدل استدلال العالم، و يستدرك استدراك الناقد، و يقطع له الفرق بين الكلام الصادر عن الربوبية، الطالع عن الإلهية، الجامع بين الحكم و الحكم. و الإخبار عن الغيوب و الغائبات، و المتضمن لمصالح الدنيا و الدين. و المستوعب لجلية اليقين و المعانى المخترعة فى تأسيس أصل الشريعة و فروعها بالألفاظ الشريفة، على تفننها و تصرفها. و تعمد إلى شىء من الشعر المجمع عليه فتبين وجه النقص فيه، و تدل على إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۹۰ انحطاط رتبته، و وقوع أبواب الخلل فيه حتى إذا تأمل ذلك و تأمل ما نذكره من تفصيل إعجاز القرآن و فصاحته و عجيب براعته، انكشف له و اتضح، و ثبت ما وصفناه لديه و وضح. و ليعرف حدود البلاغة، و موقع البيان و البراعة، و وجه التقدم فى الفصاحة و ذكر الجاحظ فى كتاب البيان و التبيين أن الفارسى سئل فقيل له: ما البلاغة؟ فقال: معرفة الفصل من الوصل. و سئل اليونانى عنها فقال: تصحيح الأقسام و اختيار الكلام. و سئل الرومى عنها فقال: حسن الاقتضاب عند البداهة و الغزارة يوم الإطالة. و سئل الهندى عنها فقال: وضوح الدلالة و انتهاز الفرصة و حسن الإشارة، و قال مرة: التماس حسن الموقع و المعرفة بساحات القول، و قلة الخرق بما التبس من المعانى، أو غمض و شرد من اللفظ و تعذر. و زينته أن تكون الشمائل موزونة، و الألفاظ معدلة، و اللهجة نقية، و أن لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، و يكون فى قواه فضل التصرف فى كل طبقة، و لا يدقق المعانى كل التدقيق، و لا ينقح الألفاظ كل التنقيح، و يصفيها كل التصفية، و يهذبها بغاية التهذيب. و أما «البراعة» ففيما يذكر أهل اللغة، الحذق بطريقة الكلام و تجويده. و قد يوصف بذلك كل متقدم فى قول أو صناعة. و أما «الفصاحة» فقد اختلفوا فيها منهم من عبر عن معناها بأنه ما كان جزل اللفظ حسن المعنى، و قد قيل معناها الاقتدار على الإبانة عن المعانى الكامنة فى النفوس، على عبارات جلية، و معان نقية بهية. و الذى يصور عندك ما ضمنا تصويره، و يحصل عندك معرفته إذ كنت فى صنعة الأدب متوسطا، و فى علم العربية متبينا، أن تنظر أولا فى نظم القرآن، ثم فى شىء من كلام النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فتعرف الفصل بين النظمين، و الفرق بين الكلامين، فإن تبين لك الفصل و وقفت على جلية الأمور و حقيقة الفرق، فقد أدركت الغرض، و صادفت المقصد. و إن لم تفهم الفرق و لم تقع على الفصل، فلا بد لك من التقليد، و علمت أنك من جملة العامة، و أن سبيلك سبيل من هو خارج عن أهل اللسان.

خطبة للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم: روى طلحة بن عبيد اللّه، قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يخطب على منبره يقول: «ألا أيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا، و بادروا الأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا، و صلوا الذى بينكم و بين ربكم بكثرة ذكركم له، و كثرة الصدقة فى السّر و العلانية ترزقوا و تؤجروا و تنصروا. و اعلموا أن اللّه عز و جل قد افترض عليكم الجمعة فى إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۹۱ مقامى هذا، فى عامى هذا، فى شهرى هذا، إلى يوم القيامة، حياتى و من بعد موتى. فمن تركها و له إمام، فلا جمع اللّه له شمله، و لا بارك اللّه فى أمره، ألا و لا حجّ له. ألا و لا صوم له. ألا و لا صدقة له. ألا و لا برّ له. ألا و لا يؤم أعرابى مهاجرا. ألا و لا يؤم فاجر مؤمنا. إلا أن يقهره سلطان يخاف سيفه أو سوطه» «۱». خطبة له صلّى اللّه عليه و سلّم: «أيها الناس، إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم. و إن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم. إن المؤمن بين مخافتين؛ بين أجل قد مضى لا يدرى ما اللّه صانع فيه، و بين أجل قد بقى لا يدرى ما اللّه تعالى قاض عليه فيه. فليأخذ العبد لنفسه من نفسه، و من دنياه لآخرته، و من الشبيبة قبل الكبر، و من الحياة قبل الموت، و الذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب، و لا بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار» «۲». خطبة له صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن الحمد للّه أحمد و أستعينه. نعوذ باللّه من شرور أنفسنا، و سيئات أعمالنا. من يهد اللّه فلا مضل له. و من يضلل فلا هادى له. و أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له. إن أحسن الحديث كتاب اللّه، قد أفلح من زينه اللّه فى قلبه، و أدخله فى الإسلام بعد الكفر، و اختاره على ما سواه من أحاديث الناس إنه أصدق الحديث و أبلغه. أحبوا من أحب اللّه و أحبّوا اللّه من كل قلوبكم. و لا تملوا كلام اللّه و ذكره. و لا تقسوا عليه قلوبكم. اعبدوا اللّه و لا تشركوا به شيئا، اتقوا اللّه حق تقاته و صدقوا صالح ما تعملون بأفواهكم، و تحابوا بروح اللّه بينكم. و السلام عليكم و رحمة اللّه» «۳».

ليبلّغ الشاهد الغائب ..

ليبلّغ الشاهد الغائب .. خطبة له صلّى اللّه عليه و سلّم فى أيام التشريق: قال بعد حمد اللّه: «أيها الناس، هل تدرون فى أى شهر أنتم، و فى أى يوم أنتم، و فى أى بلد أنتم، قالوا: فى يوم حرام، و شهر حرام، و بلد حرام «۴». قال: ألا فإن دماءكم و أموالكم و أعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا، إلى يوم تلقونه» «۵».

____

(۱) الطبرانى ۱ / ۲۷۹، و الجوامع (۹۵۸۹)، و الكنز (۱۰۱۷۰). (۲) القرطبى ۱۸/ ۱۱۶. (۳) مسلم فى: الجمعة (۴۶)، و القرطبى ۱۱/ ۲۱۸، و دلائل النبوة ۲/ ۲۴۷ و ۵۲۴. (۴) الدرّ ۳/ ۲۳۴. (۵) أحمد ۴/ ۳۳۷ و ۵/ ۳۷، و ۷۲ و الطبرانى ۱۸/ ۳۱۲، و إرواء الغليل ۱/ ۴۳، و قال حفظه اللّه: صحيح. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۹۲ ثم قال: «اسمعوا منى تعيشوا «۱». ألا- لا- تظالموا ثلاثا. ألا إنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه «۲». ألا إن كل دم و مال و مأثرة كانت فى الجاهلية تحت قدمى هذه «۳». ألا و إن أول دم وضع دم ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب كان مسترضعا فى بنى ليث فقتلته هذيل «۴». ألا- و إن كل ربا كان فى الجاهلية موضوع «۵». ألا- و إن اللّه تعالى قضى أن أول ربا يوضع ربا عمى العباس «۶». فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَ لا تُظْلَمُونَ «۷». ألا و إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق اللّه السموات و الأرض «۸»، منها أربعة حرم. ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ، فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ «۹»، ألا لا ترجعوا بعدى كفارا، يضرب بعضكم رقاب بعض «۱۰». ألا و إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلّون .. و لكن فى التحريش بينكم «۱۱». اتقوا اللّه فى النساء فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا، و إن لهن عليكم حقا. و لكم عليهن حق «۱۲». ألا لا يوطئن فرشكم أحد غيركم. فإن خفتم نشوزهن فَعِظُوهُنَّ وَ اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضاجِعِ «۱۳»، و اضربوهن ضربا غير مبرح. و لهن رزقهن و كسوتهن بالمعروف. فإنما أخذتموهن بأمانة اللّه تعالى. و استحللتم فروجهن بكلمة اللّه «۱۴». ألا و من

____

(۱) أحمد ۵/ ۷۲، و الدرّ ۳/ ۲۳۴، و البداية ۵/ ۲۰۱. (۲) أحمد ۵/ ۷۲. (۳) أحمد ۵/ ۷۳. (۴) الدر المنثور ۳/ ۲۳۴. (۵) أحمد ۵/ ۷۳، و الدرّ ۳/ ۲۳۴، و الطبرى ۳/ ۷۲. (۶)

أحمد ۵/ ۷۳، و الدرّ ۳/ ۲۳۵. (۷) آیة (۲۷۹) سورة البقرة. (۸) البخاری ۶/ ۸۳ و ۷/ ۱۲۹، و مسلم فی: القیامة (۱۲۹) و أبو داود (۱۹۴۷)، و أحمد ۵/ ۳۷ و ۷۳. (۹) آیة (۳۶) سورة التوبة. (۱۰) البخاری ۱/ ۴۱، و ۲/ ۲۱۶ و ۵/ ۲۲۳ و ۲۲۴ و ۷/ ۱۳۰ و ۸/ ۴۸ و ۱۹۸ و ۹/ ۳ و ۶۳ و ۶۴ و ۱۶۳، و مسلم فی: الإیمان (۱۱۹ و ۱۲۰)، و أبو داود (۴۶۸۶)، و الترمذی (۲۱۹۳)، و النسائی ۷/ ۱۲۶ و ۱۲۷، و ابن ماجة (۳۹۴۲ و ۳۹۴۳)، و أحمد ۱/ ۲۳۰ و ۴۰۲ و ۲/ ۱۰۴. (۱۱) أحمد ۳/ ۳۵۴، و الاتحاف ۷/ ۲۸۲. (۱۲) مشکل الآثار ۳/ ۲۱۲. (۱۳) آیة (۳۴) سورة النساء. (۱۴) مسلم فی: الحج (۱۴۷)، و الترمذی (۱۱۶۳)، و أبو داود (۱۹۰۵)، و ابن ماجة (۳۰۷۴)، و أحمد ۵/ ۷۳، و الدارمی ۲/ ۴۸، و الأرواء ۷/ ۲۲۷. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۹۳ کانت عنده أمانة فلیؤدها إلی من ائتمنه علیها» «۱». ثم بسط یده فقال: «ألا هل بلغت. ألا هل بلغت. لیبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أبلغ من سامع» «۲». خطبته صلّی اللّه علیه و سلّم یوم فتح مکة: وقف علی باب الکعبة ثم قال: «لا إله إلا اللّه وحده لا شریک له. صدق اللّه وعده. و نصر عبده. و هزم الأحزاب وحده «۳». ألا کل مأثرة أو دم أو مال یدعی فهو تحت قدمی هاتین، إلا سدانة البیت، و سقایة الحاج «۴». ألا و قتل الخطأ العمد بالسوط و العصا فیه الدیة مغلظة. منها أربعة خلفة فی بطونها أولادها. یا معشر قریش، إن اللّه قد أذهب عنکم نخوة الجاهلیة و تعظمها بالآباء «۵». الناس من آدم، و آدم خلق من تراب. ثم تلا هذه الآیة یا أَیُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناکُمْ مِنْ ذَکَرٍ وَ أُنْثی «۶» الآیة. یا معشر قریش. أو یا أهل مکة. ما ترون أنی فاعل بکم؟ قالوا: خیرا، أخ کریم و ابن أخ کریم. قال: فاذهبوا فأنتم الطلقاء».

من کان همه الآخرة جمع اللّه له شمله ..

من کان همه الآخرة جمع اللّه له شمله .. خطبته صلّی اللّه علیه و سلّم بالخیف: روی زید بن ثابت أن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم خطب بالخیف من منی، فقال: «نضّر اللّه عبدا سمع مقالتی فوعاها. ثم أداها إلی من لم یسمعها. فرب حامل فقه لا فقه له. و رب حامل فقه إلی من هو أفقه منه «۷». ثلاث لا یغل علیهن قلب المؤمن؛ إخلاص العمل للّه، و النصیحة لأولی الأمر، و لزوم الجماعة. إن دعوتهم تکون من ورائه «۸». و من کان همه الآخرة، جمع اللّه له شمله، و جعل غناه فی قلبه. و أتته الدنیا و هی راغمة «۹». و من کان همه الدنیا فرق اللّه أمره، و جعل فقره بین عینیه، و لم یأته من الدنیا إلا ما کتب له». خطبة له صلّی اللّه علیه و سلّم: رواها أبو سعید الخدری، رضی اللّه عنه. خطب بعد العصر فقال: «ألا إن الدنیا خضرة حلوة. إلا و إن اللّه مستخلفکم فیها، فناظر کیف تعملون، فاتقوا الدنیا (____ ۱) أحمد ۵/ ۷۳، و الدرّ المنثور ۳/ ۲۳۵. (۲) البخاری ۱/ ۲۶ و ۳۷، و مسلم فی الحج (۴۴۶)، و الترمذی (۸۰۹)، و النسائی فی: الحج (۱۱۰)، و ابن ماجة (۲۳۳ و ۲۳۴)، و أحمد ۵/ ۴۵، و الدارمی ۲/ ۶۸. (۳) أحمد ۳/ ۴۱۰. (۴) سبق تخریجه. (۵) الاتحاف ۸/ ۴۱۹، و الدرّ المنثور ۶/ ۹۸. (۶) آیة (۱۳) سورة الحجرات. (۷) ابن ماجة (۲۳۰، ۲۳۱)، و أحمد ۴/ ۸۰. (۸) أحمد ۳/ ۲۲۵ و ۴/ ۸۰ و ۸۲، و الدارمی ۱/ ۷۵. (۹) الترمذی (۲۴۶۵)، و الصحیحة (۹۴۹). إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۹۴ و اتقوا النساء «۱». ألا لا یمنعن رجلا مخافة الناس أن یقول الحق إذ علمه» «۲». قال: و لم یزل یخطب حتی لم تبق من الشمس إلا حمرة علی أطراف السعف، فقال: «إنه لم یبق من الدنیا فیما مضی إلا کما بقی من یومکم هذا». کتاب النبی صلّی اللّه علیه و سلّم إلی ملک فارس: «من محمد رسول اللّه إلی کسری عظیم فارس. سلام علی من اتبع الهدی، و آمن باللّه و رسوله، و شهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شریک له، و أن محمدا عبده و رسوله. و أدعوک بدعاء اللّه، فإنی أنا رسول اللّه إلی الناس کافة، لأنذر من کان حیا، و یحق القول علی الکافرین فأسلم تسلم». کتاب له صلّی اللّه علیه و سلّم إلی النجاشی: «من محمد رسول اللّه إلی النجاشی ملک الحبشة؛ سلم أنت. فإنی أحمد إلیک اللّه الملک القدوس السلام المؤمن المهیمن. و أشهد أن عیسی ابن مریم روح اللّه و کلمته ألقاها إلی مریم البتول الطیبة. فحملت بعیسی فحملته من روحه، و نفخه کما خلق آدم من طین بیده و نفخه. و إنی أدعوک إلی اللّه وحده لا شریک له، و الموالاة علی طاعته. و أن تتبعنی و تؤمن بالذی جاءنی: و إنی أدعوکم و جنودک إلی اللّه تعالی. فقد بلغت و نصحت، فاقبلوا نصحی، و السلام علی من اتبع الهدی» «۳». ** فلا تدخلها بغیر

هذا.! نسخة عهد الصلح مع قريش عام الحديبية: «هذا ما صالح عليه محمد بن عبد اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، سهيل بن عمرو: اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، و يكفّ بعضهم عن بعض. على أنه من أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بغير إذن وليّه ردّه عليهم. و من جاء قريشا ممن مع رسول اللّه لم يردّوه عليه. و أن بيننا عيبة مكفوفة و أنه لا إسلال و لا إغلال. و أنه من أحبّ أن يدخل فى عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و عقده دخل فيه. و من أحب أن يدخل فى عهد قريش و عقدهم دخل فيه. و أنك ترجع عنّا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، فإذا كان عاما قابلا، خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثا. و أنّ معك سلاح الراكب، و السيوف فى الركب، فلا تدخلها بغير هذا». و لا أطوّل عليك. و أقتصر على ما ألقيته إليك، فإن كان لك فى الصنعة حظ، أو كان لك فى هذا المعنى حس. أو كنت تضرب فى الأدب بسهم، أو فى العربية بقسط، و إن قل ذلك السهم أو نقص ذلك النصيب، فما أحسب أنه يشتبه عليك الفرق بين براعة القرآن، (______________________________ ۱) مسلم ص (۲۰۹۸)، و الترمذى (۲۱۹۱)، و ابن ماجة (۴۰۰۰)، و أحمد ۶/ ۳۶۴. (۲) أحمد ۳/ ۴۷، و البيهقى ۱۰/ ۹۰، و ابن حبان (۱۸۴۲)، و ابن عساكر ۶/ ۱۱۱. (۳) سيرة ابن هشام ۱/ ۳۱۷. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۹۵ و بين ما نسخناه لك من كلام الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم فى خطبه و رسائله، و ما عساك تسمعه من كلامه، و يتساقط إليك من ألفاظه. و أقدر أنك ترى بين الكلامين بونا بعيدا، أو أمدا مديدا، و ميدانا واسعا، و مكانا شاسعا، فإن قلت: لعله أن يكون تعمل للقرآن، و تصنع لنظمه، و شبه عليه الشيطان ذلك من خبثه، فتثبت فى نفسك، و ارجع إلى عقلك، و اجمع لبك، و تيقن أن الخطب يحتشد لها فى المواقف العظام، و المحافل الكبار، و المواسم الضخام، و لا يتجوز فيها و لا يستهان بها. و الرسائل إلى الملوك مما يجمع لها الكاتب جراميزه، و يشمر لها عن جد و اجتهاد، فكيف يقع بها الإخلال، و كيف يتعرض للتفريط، فستعلم لا محالة أن نظم القرآن من الأمر الإلهى، و أن كلام النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من الأمر النبوى. فإذا أردت زيادة فى التبيّن، و تقدما فى التعرف، و إشرافا على الجلية، و فوزا بمحكم القضية، فتأمل- هداك اللّه- ما ننسخه لك من خطب الصحابة و البلغاء، لتعلم أن نسجها و نسج ما نقلنا من خطب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم واحد، و سبكها سبك غير مختلف. و إنما يقع بين كلامه و كلام غيره ما يقع من التفاوت بين كلام الفصيحين، و بين شعر الشاعرين. و ذلك أمر له مقدار معروف، و حدّ ينتهى إليه مضبوط. فإذا عرفت أن جميع كلام الآدمى منهاج، و لجملته طريق، و تبينت ما يمكن فيه التفاوت، نظرت أخرى، و تأملته مرة ثانية، فتراعى بعد موقعه، و عالى محله و موضعه، و حكمت بواجب من اليقين، و ثلج الصدر بأصل الدين. خطبة لأبى بكر الصديق رضى اللّه عنه: قام خطيبا فحمد اللّه و أثنى عليه، ثم قال: «أما بعد فإنى وليت أمركم، و لست بخيركم. و لكن نزل القرآن و سن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و علّمنا فعلمنا. و اعلموا أن أكيس الكيس التقى. و أن أحمق الحمق الفجور. و أن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له بحقه. و أن أضعفكم عندى القوىّ حتى آخذ منه الحق «۱». إيها الناس، إنما أنا متبع، و لست بمبتدع، فإن أحسنت فأعينونى. و إن زغت فقومونى». عهد أبى بكر الصديق إلى عمر رضى اللّه عنه: «بسم اللّه الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر، خليفة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، آخر عهده بالدنيا، و أول عهده بالآخرة، ساعة يؤمن فيها الكافر، و يتّقى فيها الفاجر «۲». إنى استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن برّ و عدل، فذاك ظنى به، و رأيى فيه. (______________________________ ۱) تاريخ الخلفاء ص (۶۹). (۲) تاريخ الخلفاء ص (۸۲). إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۹۶ و إن جار و بدّل، فلا علم لى بالغيب. و الخير أردت لكم، و لكل امرئ ما اكتسب من الإثم وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ «۱». و فى حديث عبد الرحمن بن عوف- رحمة اللّه عليه- قال: دخلت على أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه، فى علته التى مات فيها، فقلت: أراك بارئا يا خليفة رسول اللّه، فقال: أما إنى على ذلك لشديد الوجع، و ما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشد علىّ من وجعى. إنى وليت أموركم خيركم فى نفسى، فكلكم ورم أنفه أن يكون له الأمر من دونه. و اللّه لتتخذن نضائد الديباج، و ستور الحرير. و لتألمنّ النوم على الصوف الأذربى، كما يألم أحدكم النوم على حسك

السعدان. و الذى نفسى بيده لأن يقدّم أحدكم فتضرب رقبته فى غير حد، خير له من أن يخوض غمرات الدنيا. يا هادى الطريق جرت إنما هو و اللّه الفجر أو البحر. قال: فقلت: خفّض عليك يا خليفهٔ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فإن هذا يهيضك إلى ما بك. فو اللّه ما زلت صالحا مصلحا، لا تأسى على شىء فاتك من أمر الدنيا؛ و لقد تخليت بالأمر وحدك، فما رأيت إلا خيرا. و له خطب و مقامات مشهورهٔ اقتصرنا منها على ما نقلنا منها قصهٔ السقيفهٔ: نسخهٔ كتاب: كتب أبو عبيدهٔ بن الجراح. و معاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنهم؛ سلام عليك فإنا نحمد إليك اللّه الذى لا إله إلا هو. أما بعد: فإنا عهدناك و أمر نفسك لك مهم، فأصبحت و قد وليت أمر هذه الأمهٔ، أحمرها و أسودها. يجلس بين يديك الصديق و العدو، و الشريف و الوضيع، و لكل حصته من العدل. فانظر كيف أنت يا عمر عند ذلك، فإنا نحذرك يوما تعنو فيه الوجوه، و تحب فيه القلوب، و إنا كنا نتحدث أن هذه الأمهٔ ترجع فى آخر زمانها أن يكون إخوان العلانيهٔ أعداء السريرهٔ و إنا نعوذ باللّه أن تنزل كتابنا سوى المنزل الذى نزل من قلوبنا. فإنا إنما كتبنا إليك نصيحهٔ و السلام. فكتب إليهما: «من عمر بن الخطاب إلى عبيدهٔ بن الجراح، و معاذ بن جبل. سلام عليكما، فإنى أحمد إليكما اللّه الذى لا إله إلا هو. أما بعد: فقد جاءنى كتابكما تزعمان أنه بلغكما أنى وليت أمر هذه الأمهٔ، أحمرها و أسودها، يجلس بين يدى الصديق و العدو، و الشريف و الوضيع. و كتبتما أن انظر كيف أنت يا عمر عند ذلك و أنه لا حول و لا قوهٔ لعمر

(____١) آيهٔ (٢٢٧) سورهٔ الشعراء. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ٩٧ عند ذلك إلا باللّه. و كتبتما تحذرانى ما حذرت به الأمم قبلنا. و قديما كان اختلاف الليل و النهار بآجال الناس، يقربان كل بعيد، و يبليان كل جديد، و يأتيان بكل موعود، حتى يصير الناس إلى منازلهم من الجنهٔ أو النار. ثم توفّى كل نفس بما كسبت. إن اللّه سريع الحساب. و كتبتما تزعمان أن أمر هذه الأمهٔ يرجع فى آخر زمانها، أن يكون إخوان العلانيهٔ أعداء السريرهٔ، و لستم بذاك. و ليس هذا ذلك الزمان، و لكن زمان ذلك حين تظهر الرغبهٔ و الرهبهٔ، فتكون رغبهٔ بعض الناس إلى إصلاح دينهم، و رهبهٔ بعض الناس إصلاح دنياهم!! و كتبتما تعوذاننى باللّه أن أنزل كتابكما منى سوى المنزل الذى نزل من قلوبكما. و إنما كتبتما نصيحهٔ لى، و قد صدقتكما فتعهدانى منكما بكتاب و لا غنى بى عنكما». عهد من عهود عمر رضى اللّه عنه: «بسم اللّه الرحمن الرحيم: من عبد اللّه، عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد اللّه بن قيس. سلام عليك. أما بعد: فإن القضاء فريضهٔ محكمهٔ، و سنهٔ متبعهٔ، فافهم إذا أدلى إليك، فإنه لا ينفع تكلّم بحق لا نفاذ له. آس بين الناس فى وجهك و عدلك و مجلسك، حتى لا يطمع شريف فى حيفك، و لا ييأس ضعيف من عدلك. البينهٔ على من ادعى، و اليمين على من أنكر، و الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما، أو حرم حلالا. و لا يمنعنّك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه عقلك، و هديت لرشدك، أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، و مراجعهٔ الحق خير من التمادى فى الباطل. الفهم، الفهم، فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب و لا سنهٔ. ثم اعرف الأشباه و الأمثال، و قس الأمور عند ذلك. و اعمد إلى أشبهها بالحق لمن ادعى حقا غائبا، أو بينهٔ أمرا ينتهى إليه. فإن أحضر بينهٔ أخذت له بحقه، و لا استحللت عليه القضيهٔ فإنه أنفى للشك، و أجلى للعمى. المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودا فى حد أو مجربا عليه شهادهٔ زور، أو ظنينا فى ولاء أو نسب. فإن اللّه تولى منكم السرائر، و درأ بالإيمان و البينات. و إياك و الغلق و الضجر و التأذى بالخصوم، و التنكر عند الخصومات، فإن الحق فى مواطن الحق يعظم اللّه به الأجر، و يحسن به الذخر. فمن صحت نيته و أقبل على نفسه كفاه اللّه ما بينه و بين الناس. و من تخلق للناس بما يعلم اللّه أنه ليس من نفسه، شانه اللّه، فما ظنك بثواب اللّه عز و جل فى عاجل رزقه، و خزائن رحمته، و السلام». و من كلام عثمان بن عفان رضى اللّه عنه؛ خطبهٔ له رضى اللّه عنه قال: «إن لكل شىء إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ٩٨ آفهٔ، و إن لكل نعمهٔ عاههٔ. فى هذا الدين عيابون، ظنانون، يظهرون لكم ما تحبون، و يسرون ما تكرهون. يقولون لكم، و تقولون، طغام مثل النعام، يتبعون أول ناعق أحب مواردهم إليهم النازح. لقد أقررتم لابن الخطاب بأكثر مما نقمتم علىّ، و لكنه و قمكم و قمعكم و زجركم زجر النعام المخزمهٔ. و اللّه إنى لأقرب ناصرا، و أعز نفرا، و أقمن إن قلتم هلم أن تجاب دعوتى من عمر. هل تفقدون من حقوقكم شيئا؛ فما بالى لا أفعل فى الحق ما أشاء. إذا فلم كنت إماما»! كتابه إلى على حين حضر

رضـى اللّه عنهما: «أما بعد: فقد بلغ السـيل الزبى، و جاوز الحزام الطبين، و طمع فىّ من لا يدفع عن نفسه. فإذا أتاك كتابى هذا، فأقبل إلىّ؛ علىّ كنت أم لى. فإن كنت مأكولا فكن خير آكل و إلا فأدركنى و لما أمزّق» و من كلام على رضـى اللّه عنه؛ قال: لما قبض أبو بكر رضـى اللّه عنه، ارتجت المدينـة بالبكـاء كيـوم قبض النـبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم. «و جـاء على باكيـا مسترجعـا و هو يقول: اليوم انقطعت خلافـة النبوة. حتى وقف على بـاب البيت الـذى فيه أبو بكر فقال: رحمك اللّه أبا بكر كنت إلف رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلّم، و أنسه، و ثقته، و موضع سـره، كنت أول القوم إسـلاما و أخلصـهم إيمانا و أشهدهم يقينا و أخوفهم للّه و أعظمهم غناء فى دين اللّه، و أحوطهم على رسوله. و آمنهم على الإسـلام، و آمنهم على أصـحابه، أحسـنهم صـحبة، و أكـثرهم منـاقب، و أفضـلهم سوابق و أرفعهم درجة، و أقربهم وسـيلة، و أقربهم برسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم سـننا و هديا و رحمة و فضـلا. و أشرفهم منزلة، و أكرمهم عليه و أوثقهم عنده. جزاك اللّه عن الإسـلام و عن رسول خيرا. كنت عنده بمنزلة السـمع و البصر. صدقت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، حين كذبه الناس، فسـمّاك اللّه فى تنزيله صديقا. فقال: وَ الَّذِى جاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ «۱» واسيته حين بخلوا، و قمت معه عند المكاره حين عنه قعدوا، و صـحبته فى الشدة أكرم الصّحبة، ثانى اثنين، و صاحبه فى الغار، و المنزل عليه السّكينة و الوقار. و رفيقه فى الهجرة، و خليفتـه فى ديـن اللّه و فى أمته أحسن الخلافـة حين ارتـدّ النـاس فنهضت حين وهن أصـحابك، و برزت حين اسـتكانوا، و قويت حين ضـعفوا و قمت بالأمر حين فشلوا، و نطقت حين تتعتعوا. و مضيت بنوره إذ وقفوا، و اتبعوك فهدوا و كنت أصوبهم منطقا، و أطولهم صـمتا، و أبلغهم قولا، و أكثرهم رأيا و أشـجعهم نفسا، و أعرفهم بالأمور و أشرفهم عملا. كنت للدين يعسوبا أولا، حين نفر عنـــه النـــاس، و آخرا حيـــن أقبلـــوا، و كنـــت للمـــؤمنين أبا

(______________________________________۱) آيـة (۳۲) سـورة الزمر. إعجـاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۹۹ رحيما إذ صاروا عليك عيالا، فحملت أثقال ما ضعفوا، و رعيت ما أهملوا. و حفظت ما أضاعوا، شمرت إذ خنعوا، و علوت إذ هلعوا، و صبرت إذ جزعوا. و أدركت أوتار ما طلبوا، و راجعوا رشدهم برأيك، فظفروا و نالوا بك ما لم يحتسـبوا، و كنت كما قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم: أمنّ الناس عليه فى صـحبتك، و ذات يـدك. و كنت كما قال: ضـعيفا فى بدنك، قويا فى أمر اللّه، متواضـعا فى نفسك، عظيما عنـد اللّه، جليلا فى أعين الناس، كبيرا فى أنفسـهم. لم يكن لأحد فيك مغمز، و لا لأحد مطمع، و لا لمخلوق عندك هوادة. الضـعيف الذليل عندك قوى عزيز، حتى تأخذ له بحقه. و القوى العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخـذ منه الحق. القريب و البعيـد عندك سواء. أقرب الناس إليك أطوعهم للّه شأنك الحق و الصدق و الرفق. قولك حكم. و أمرك حزم، و رأيك علم و عزم. فأبلغت و قد نهج السبيل، و سـهل العسير، و أطفأت النيران، و اعتدل بك الدين، و قوى الإيمان، و ظهر أمر اللّه و لو كره الكافرون. و اتعبت من بعـدك إتعابا شديدا. و فزت بالجد فوزا مبينا. فجللت عن البكاء، و عظمت رزيتك فى السـماء، و هـدت مصـيبتك الأنام. فإنا للّه و إنا إليه راجعون. رضـينا عن اللّه قضاءه. و سـلمنا له أمره. فو اللّه لن يصاب المسـلمون بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سـلّم بمثلك أبدا. فالحقك اللّه بنبيه، و لا حرمنا أجرك، و لا أضـلنا بعدك». و سكت الناس حتى انقضى كلامه، ثم بكوا حتى علت أصواتهم. خطبـة أخرى لعلى رضـى اللّه عنه: «أما بعـد: فإن الـدنيا قـد أدبرت و أذنت بوداع، و إن الآخرة قـد أقبلت و أشرفت باطلاع، و إن المضمار اليوم و غدا السباق. ألا و إنكم فى أيام مهل، و من ورائه أجل. فمن أخلص فى أيام أمله فقد فاز. و من قصـر فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسـر عمله، و ضـره أمله. ألا فاعملوا للّه فى الرغبة، كما تعملون له فى الرهبة. ألا و إنى لم أر كالجنـة، نام طالبها، و لا كالنار، نام هاربها. ألا و إنه من لم ينفعه الحق يضـره الباطل. و من لم يسـتقم به الهدى يجر به الضـلال. ألا و إنكم قـد أمرتم بالظّعن، و دللتم على الزاد. ألا و إنّ أخوف ما أخاف عليكم الهوى و طول الأمل». و خطب فقال بعـد حمـد اللّه: «أيها الناس؛ اتقوا اللّه، فما خلق امرؤ عبثا، فيلهو. و لا أهمل سـدى، فيلغو. ما دنياه التى خسّـست إليه بخلف من الآخرة التى قبحها سوء النظر إعجـاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۰۰ إليـه. و مـا الخسـيس الـذى ظفر به من الـدنيا بـأعلى همته، كالآـخر الـذى ظفر به من الآـخرة من سهمته». و كتب على رضـى اللّه عنه إلى عبـد اللّه بن عبـاس رحمه اللّه و هـو بالبصـرة: «أمـا بعـد: فـإن المرء يسـرّ بـدرك مـا لم يكن

لیحرمه. و یسوؤه فوت ما لم یکن لیدرکه. فلیکن سرورک بما قدمت: من أجر أو منطق. و لیکن أسفک فیما فرطت فیه من ذلک. و انظر ما فاتک من الدنیا، فلا تکثر علیه جزعا، و ما نلته، فلا تنعم به فرحا. و لیکن همّک لما بعد الموت». کلام لابن عباس رضی اللّه عنهما: قال عتبة بن أبی سفیان لابن عباس: ما منع أمیر المؤمنین أن یبعثک مکان أبی موسی، یوم الحکمین؟ قال: «منعه و اللّه من ذلک حاجز القدر، و قصر المدّة، و محنة الابتلاء. أما و اللّه لو بعثنی مکانه لاعترضت له فی مدارج نفسه، ناقضا لما أبرم، و مبرما لما نقض. أسف إذا طار، و أطیر إذا أسفّ. و لکن مضی قدر، و بقی أسف. و مع یومنا غد. و الآخرة خیر لأمیر المؤمن من الأولی». خطبة لعبد اللّه بن مسعود رضی اللّه عنه: «أصدق الحدیث کتاب اللّه. و أوثق العرا کلمة التقوی. خیر الملل ملّة إبراهیم. و أحسن السنن سنة النبی صلّی اللّه علیه و سلّم. خیر الأمور أوساطها. و شر الأمور محدثاتها. ما قل و کفی، خیر مما کثر و ألهی. خیر الغنی غنی النفس. و خیر ما ألقی فی القلب الیقین. الخمر جماع الإثم. النساء حبالة الشیطان. الشباب شعبة من الجنون. حب الکفایة مفتاح العجزة. من الناس من لا یأتی الجماعة إلا دبرا. و لا یذکر اللّه إلا هجرا، أعظم الخطایا اللسان الکذوب. سباب المؤمن فسق. و قتاله کفر. و أکل لحمه معصیة. من یتألّ علی اللّه یکذبه من یغفر یغفر له. مکتوب فی دیوان المحسنین: من عفا عفی عنه. الشقی من شقی فی بطن أمه و السعید من وعظ بغیره. الأمور بعواقبها. ملاک العمل خواتیمه. أشرف الموت الشهادة. من یعرف البلاء یصبر علیه. و من لا یعرف البلاء ینکره». خطبة لمعاویة بن أبی سفیان رضی اللّه عنه: قال الراوی لما حضرته الوفاة قال لمولی له: من بالباب؟ فقال: نفر من قریش یتباشرون بموتک. فقال: ویحک، و لم؟ ثم أذن للناس فحمد إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۰۱ اللّه فأوجز ثم قال: «أیها الناس، إنا قد أصبحنا فی دهر عنود، و زمن شدید. یعدّ فیه المحسن مسیئا. و یزداد الظالم فیه عتوا. لا ننتفع بما علمنا. و لا نسأل عما جهلنا. و لا نتخوف من قارعة حتی تحل بنا. فالناس علی أربعة أصناف: منهم: من لا یمنعه الفساد فی الأرض إلا مهانة نفسه؛ و کلال حدّه، و نضیض وفره. و منهم: المسلط لسیفه، و المجلب برجله، و المعلن بشره، قد أشرط نفسه، و أوبق دینه، لحطام ینتهزه، أو مقنب یقوده، أو منبر یقرعه و بئس المتجر أن تراها لنفسک ثمنا، و ممّا لک عند اللّه عوضا. و منهم من یطلب الدنیا بعمل الآخرة، و لا یطلب الآخرة بعمل الدنیا، قد طامن من شخصه، و قارب من خطوه، و شمّر من ثوبه، و زخرف نفسه للأمانة، و اتخذ ستر اللّه ذریعة إلی المعصیة، و منهم من أقعده عن الملک ضئولة فی نفسه، و انقطاع سببه، فقصرته الحال، فتحلی باسم القناعة، و تزین بلباس الزهاد، و لیس من ذلک فی مراح و لا مغدی. و بقی رجال أغض أبصارهم ذکر المرجع، و أراق دموعهم خوف المحشر. فهم بین شدید ناد، و خائف منقاد، و ساکت مکعوم، وداع مخلص، و موجع ثکلان، قد أخملتهم التّقیّة، و شملتهم الذلة. فهم فی بحر أجاج. أفواههم دامیة، و قلوبهم قریحة، قد وعظوا حتی ملوا، و قهروا حتی ذلوا، و قتلوا حتی قلوا. فلتکن الدنیا فی عیونکم أقل من متانة القرظ، و قراضة الجلم، و اتعظوا بمن کان قبلکم أن یتعظ بکم من بعدکم. فارفضوها ذمیمة، فإنها قد رفضت من کان أشغف بها منکم». خطبة لعمر بن عبد العزیز رضی اللّه عنه: «أیها الناس، إنکم میتون، ثم إنکم مبعوثون. ثم إنکم محاسبین. فلعمری لئن کنتم صادقین لقد قصرتم. و لئن کنتم کاذبین لقد هلکتم. یا أیها الناس، إنه من یقدر له رزق برأس جبل، أو بحضیض أرض یأته، فاجملوا فی الطلب». خطبة للحجاج بن یوسف: حمد اللّه و أثنی علیه ثم قال: «یا أهل العراق، و یا أهل الشقاق و النفاق، و مساوئ الأخلاق، و بنی اللّکیعة، و عبید العصا. و أولاد الإماء، و الفقع بالقرقر. إنی سمعت تکبیرا لا یراد به اللّه. و إنما یراد به الشیطان. و إنما مثلی و مثلکم ما قاله ابن براقة الهمدانی: و کنت إذا قوم غزنی غزوتهم فهل أنا فی ذا بالهمذان ظالم إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۰۲ متی تجمع القلب الذکی و صارما و أنفا حمیّا تجتنبک المظالم أما و اللّه لا تقرع عصا إلا جعلتها کأمس الدابر». خطبة لقس بن ساعدة الأیادی: أخبرنی محمد بن علی الأنصاری بن محمد بن عامر قال: حدثنا علی بن إبراهیم، حدثنا عبد اللّه بن داود بن عبد الرحمن العمری قال: حدثنا الأنصاری علی بن محمد الحنظلی من ولد حنظلة الغسیل، حدثنا جعفر بن محمد، عن محمد بن حسان، عن محمد بن حجاج اللخمی، عن مجالد، عن الشعبی، عن ابن عباس قال: و لما وفد وفد عبد القیس علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم قال: أیکم یعرف قس بن ساعدة؟ قالوا: کلنا نعرفه یا رسول اللّه. قال: لست أنساه بعکاظ إذ وقف علی بعیر لهن أحمر فقال: «أیها الناس اجتمعوا، و إذا اجتمعتم

فاسمعوا، و إذا سمعتم فعوا، و إذا وعيتم فقولوا، و إذا قلتم فاصدقوا. من عاش مات، و من مات فات. و كل ما هو آت آت. أما بعد: فإن فی السماء لخبرا، و إن فی الأرض لعبرا. مهاد موضوع، و سقف مرفوع، و نجوم تمور، و بحار لا تغور. أقسم باللّه قس قسما حقا لا كاذبا فيه، و لا آثما. لئن كان فی الأرض رضا ليكونن سخط. إن اللّه تعالى دينا هو أحب إليه من دينكم الذی أنتم عليه. و قد أتاكم أوانه و لحقتكم مدته. ما لی أرى الناس يذهبون فلا يرجعون. أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا فناموا»؟ ثم قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: أيكم يروى شعره؟ فأنشدوه: فی الذاهبين الأوّلی ن من القرون لنا بصائر لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر و رأيت قومی نحوها يسعى الأصاغر و الأكابر لا يرجع الماضی إل ی و لا من الباقين غابر أيقنت أنی لا محا لة حيث صار القوم صائر «۱» أخبرنی الحسن بن عبد اللّه بن سعيد، حدثنا علی بن الحسين بن إسماعيل، حدثنا محمد بن زكريا، حدثنا عبد اللّه بن الضحاك، عن هشام عن أبيه، أن وفدا من إياد قدموا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فسألهم عن حال قس بن ساعدة، فقالوا: قال قس: يا ناعی الموت و الأموات فی جدث عليهم من بقايا بزّهم حرق دعهم فإن لهم يوما يصاح بهم كما ينبّه من نوماته الصّعق (____۱) دلائل النبوة ۱ / ۲۸، و البداية و النهاية ۲/ ۲۳۱ و الطبرانی ۱۲/ ۸۸. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۰۳ منهم عراة و منهم فی ثيابهم منها الجديد و منها الأورق الخلق مطر و نبات، و آباء و أمهات و ذاهب و آت، و آيات فی إثر آيات، و أموات بعد أموات، ضوء و ظلام، و ليال و أيام، و غنی و فقير. و شقی و سعيد، و محسن و مسیء. أين الأرباب الفعلة ..؟ ليصلحن كل عامل عمله. كلا، بل هو اللّه واحد، ليس بمولود و لا والد، أعاد و أبدى. و إليه المآب غدا. أما بعد يا معشر أياد أين ثمود و عاد ..؟ و أين الآباء؟ و الأجداد؟ أين الحسن الذی لم يشكر؟ أين الظلم الذی لم ينقم؟ كلا و رب الكعبة ليعودن ما بدا. و لئن ذهب يوم ليعودن يوم. قال: و هو قس بن ساعدة بن حذاق بن ذهل بن أياد بن نزار أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية، و أول من توكأ على عصا، و أول من تكلم بأما بعد. خطبة لأبی طالب: «الحمد للّه الذی جعلنا من ذرية إبراهيم، و زرع إسماعيل، و جعل لنا بلدا حراما، و بيتا محجوجا. و جعلنا الحكام على الناس، و أن محمدا بن عبد اللّه، ابن أخی، لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح به، بركة، و فضلا، و عدلا، و مجدا، و نبلا. و إن كان فی المال مقلا، فإن المال عارية مسترجعة، و ظل زائل. و له فی خديجة بنت خويلد رغبة. و لها فيه مثل ذلك. و ما أردتم من الصداق فعلیّ». قد نسخت لك جملا من كلام الصدر الأول و محاورتهم و خطبهم. و أحيلك فيما لم أنسخ على التواريخ و الكتب المصنفة فی هذا الشأن فتأمل ذلك، و سائر ما هو مسطر من الأخبار المأثورة، عن السلف و أهل البيان و اللسان، و الفصاحة و الفطن، و الألفاظ المنثورة، و الأمثال المنقولة عنهم. ثم انظر بسكون طائر، و خفض جناح، و تفريغ لب، و جمع عقل فی ذلك، فسيقع لك الفضل بين كلام الناس، و بين كلام رب العالمين. و تعلم أن نظم القرآن يخالف نظم كلام الآدميين. و تعلم الحد الذی يتفاوت بين كلام البليغ و البليغ، و الخطيب و الخطيب، و الشاعر و الشاعر، و بين نظم القرآن جملة. فإن خيل إليك أو شبه عليك، و ظننت أنه يحتاج أن يوازن بين نظم الشعر و القرآن؛ لأن الشعر أفصح من الخطب، و أبرع من الرسائل، و أدق مسلكا من جميع أصناف المحاورات، و لذلك قالوا له صلّى اللّه عليه و سلّم: هو شاعر، أو ساحر، و سوّل إليك الشيطان أن الشعر أبلغ و أعجب، و أرق و أبرع، و أحسن الكلام و أبدع، فهذا فصل فيه نظر بين المتكلمين، و كلام بين المحققين. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۰۴

باب: أيهما أبلغ .. الشعر أم النثر؟!

باب: أيهما أبلغ .. الشعر أم النثر؟! أسمعت أفضل من رأيت من أهل العلم بالأدب و الحذق بهذه الصناعة، مع تقدمه فی الكلام، يقول: إن الكلام المنثور يتأتى فيه من الفصاحة و البلاغة ما لا يتأتى فی الشعر، لأن الشعر يضيّق نطاق الكلام، و يمنع القول من انتهائه، و يصده عن تصرفه على سننه. و حضره من يتقدم فی صنعة الكلام، فراجعه فی ذلك، و ذكر أنه لا يمتنع أن يكون الشعر أبلغ إذا صادف شروط الفصاحة. و أبدع إذا تضمن أسباب البلاغة. و يشهد عندی للقول الأخير أن معظم براعة كلام العرب فی الشعر. و لا

تجد فی منثور قولهم ما تجد فی منظومه. و إن کان قد أحدثت البراعة فی الرسائل علی حد لم یعهد فی سالف أیام العرب. و لم ینقل من دواوینهم و أخبارهم. و هو و إن ضیق نطاق القول، فهو یجمع حواشیه، و یضم أطرافه و نواحیه. فهو إذا تهذب فی بابه و وفی له جمیع أسبابه، لم یقاربه من کلام الآدمیین کلام. و لم یعارضه من خطابهم خطاب. و قد حکی عن المتنبی أنه کان ینظر فی المصحف فدخل إلیه بعض أصحابه فأنکر نظره فیه لما کان رآه علیه من سوء اعتقاده، فقال له: هذا المکی علی فصاحته کان مفحما. فإذا صحت هذه الحکایة عنه فی إلحاده، عرف بها أنه کان یعتقد أن الفصاحة فی قول الشعر أبلغ، و إذا کانت الفصاحة فی قول الشعر أو لم تکن، و بینا أن نظم القرآن یزید فی فصاحته علی کل نظم، و یتقدم فی بلاغته علی کل قول، بما یتضح به الأمر اتضاح الشمس، و یتبین به بیان الصبح، وقفت علی جلیة هذا الشأن. فانظر فیما نعرضه علیک، ما نعرضه. و نصور بفهمک ما نصوره. لیقع لک موقع عظیم شأن القرآن. و تأمل ما نرتبه، ینکشف لک الحق، و إذا أردنا تحقیق ما ضمناه لک، فمن سبیلنا أن نعمد إلی قصیدة متفق علی کبر محلها، و صحة نظمها، و جودة بلاغتها و معانیها، و إجماعهم علی إبداع صاحبها فیها، مع کونه من الموصوفین بالتقدم فی الصناعة، و المعروفین بالحذق فی البراعة، فنوقفک علی مواضع خللها، و علی تفاوت نظمها، و علی اختلاف فصولها، و علی کثرة فضولها، و علی شدة تعسفها، و بعض تکلفها، و ما نجمع من کلام رفیع، یقرن بینه و بین کلام وضیع، و بین لفظ سوقی یقرن بلفظ ملوکی، و غیر ذلک من الوجوه التی یجیء تفصیلها، و نبیّن ترتیبها و تنزیلها. فأما کلام مسیلمة الکذاب و ما زعم أنه قرآن، فهو أخس من أن نشتغل به، و أسخف من أن نفکر فیه. و إنما نقلنا منه طرفا لیتعجب القارئ و لیتبصر الناظر. فإنه علی سخافته قد أضل، و علی رکاکته قد أذل. و میدان الجهل واسع، و ممن نظر فیما نقلناه عنه، و فهم إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۰۵ موضع جهله، کان جدیرا أن یحمد اللّه علی ما رزقه من فهم، و آتاه من علم. فمما کان یزعم أنه نزل علیه من السماء (و اللیل الأطخم، و الذئب الأدلم، و الجذع الأزلم، ما انتهکت أسید من محرم) و ذلک قد ذکر فی خلاف وقع بین قوم أتوه من أصحابه. و قال أیضا: (و اللیل الدامس و الذئب الهامس ما قطعت أسید من رطب و لا یابس). و کان یقول: (و الشاة و ألوانها و أعجبها السوداء، و ألبانها و الشاة السوداء، و اللبن الأبیض إنه لعجب محض، و قد حرم المذق فما لکم لا تجتمعون). و کان یقول: (ضفدع بنت ضفدعین، نقی ما تنقین أعلاک فی الماء و أسفلک فی الطین، و لا الشارب تمنعین، و لا الماء تکدرین، لنا نصف الأرض، و لقریش نصفها، و لکن قریشا قوم یعتدون). و کان یقول: (و المبتدیات زرعا، و الحاصدات حصدا، و الذاریات قمحا، و الطاحنات طحنا، و الخابزات خبزا، و الثاردات ثردا، و اللاقمات لقما، أهالة و سمنا. لقد فضلتم علی أهل الوبر. و ما سبقکم أهل المدر. ریفکم فامنعوه، و المعتر فآووه، و الباغی فناوئوه). و قالت سجاح بنت الحارث بن عقبان و کانت تتنبأ، فاجتمع مسیلمة معها فقالت له: ما أوحی إلیک؟ فقال: (أ لم تر کیف فعل ربک بالحبلی، أخرج منها نسمة تسعی. من بین صفاق وحشا). و قالت: فما بعد ذلک ..؟ قال: أوحی إلی (أن اللّه خلق النساء أفواجا، و جعل الرجال لهن أزواجا، فتولج فیهن قعسا إیلاجا، ثم نخرجها إذا شئنا إخراجا، فینتجن لنا سخالا نتاجا). فقالت: أشهد أنک نبی. و لم ننقل کل ما ذکر من سخفه کراهة التثقیل. و روی أنه سأل أبو بکر الصدیق رضی اللّه عنه أقواما قدموا علیه من بنی حنیفة عن هذه الألفاظ فحکوا بعض ما نقلناه. فقال أبو بکر: «سبحان اللّه و یحکم إن هذا الکلام لم یخرج عن آل. فأین کان یذهب بکم؟!» و معنی قوله: لم یخرج عن آل، أی عن ربوبیة. و من کان له عقل لم یشتبه علیه سخف هذا الکلام. فنرجع الآن إلی ما ضمناه من الکلام علی الأشعار المتفق علی جودتها و تقدم أصحابها فی صناعتهم، لیتبین لک تفاوت أنواع الخطاب، و تباعد مواقع البلاغة. و تستدل علی مواضع البراعة. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۰۶ و أنت لا تشک فی جودة شعر امرئ القیس، و لا ترتاب فی براعته، و لا تتوقف فی فصاحته. و تعلم أنه قد أبدع فی طرق الشعر أمورا اتبع فیها من ذکر الدیار، و الوقوف علیها، إلی ما یتصل بذلک من البدیع الذی أبدعه، و التشبیه الذی أحدثه، و التلمیح الذی یوجد فی شعره، و التصرف الکثیر الذی یصادفه فی قوله، و الوجوه التی ینقسم إلیها کلامه، من صناعة و طبع، و سلاسة و علو، و متانة ورقة، و أسباب تحمد، و أمور تؤثر و تمدح. و قد تری الأدباء أولا یوازنون بشعره فلانا و فلانا. و یضمون أشعارهم إلی شعره، حتی ربما وازنوا بین شعر من لقبناه، و بین شعره فی أشیاء لطیفة و أمور بدیعة. و ربما فضلوهم، علیه أو

سووا بينهم و بينه، أو قربوا موضع تقدمهم عليه، و برزوه بين أيديهم. و لما اختاروا قصيدته في السبعيات أضافوا إليها أمثالها، و قرنوا بها نظائرها. ثم تراهم يقولون لفلان لامية مثلها. ثم ترى أنفس الشعراء تتشوق إلى معارضته و تساويه في طريقته. و ربما عثرت في وجهه على أشياء كثيرة و تقدمت عليه في أسباب عجيبة. و إذا جاءوا إلى تعداد محاسن شعره، كان أمرا محصورا و شيئا معروفا، أنت تجد من ذلك البديع، أو أحسن منه في شعر غيره، و تشاهد مثل ذلك البارع في كلام سواه، و تنظر إلى المحدثين كيف توغلوا إلى حيازة المحاسن منهم من جمع رصانة الكلام إلى سلاسته، و متانته إلى عذوبته، و الإصابة في معناه إلى تحسين بهجته، حتى أن منهم من إن قصر عنه في بعض، تقدم عليه في بعض، لأن الجنس الذي يرمون إليه و الغرض الذي يتواردون عليه، مما للآدمي فيه مجال، و للبشرى فيه مثال. فكل يضرب فيه بسهم، و يفوز بقدح. ثم قد تتفاوت السهام تفاوتا، و تتباين تباينا. و قد تتقارب تقاربا على حسب مشاركتهم في الصنائع، و مساهمتهم في الحرف. و نظم القرآن جنس مميز و أسلوب متخصص و قبيل عن النظير متخلص. فإذا شئت أن تعرف عظم شأنه، فتأمل ما نقوله في هذا الفصل لامرئ القيس في أجود أشعاره. و ما نبين لك من عواره على التفصيل و ذلك قوله: قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب و شمأل الذين يتعصبون له، أو يدعون محاسن الشعر، يقولون: هذا من البديع لأنه وقف، و استوقف و بكى و استبكى، و ذكر العهد و المنزل و الحبيب. و توجع و استوجع، كله في بيت و نحو ذلك. و إنما بيّنا هذا لئلا يقع لك ذهابنا عن مواضع المحاسن، إن كانت. و لا غفلتنا عن إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۰۷ مواضع الصناعة، إن وجدت. تأمل- أرشدك اللّه- و انظر هداك اللّه: أنت تعلم أنه ليس في البيتين شيء قد سبق في ميدانه شاعرا، و لا تقدّم به صانعا. و في لفظه و معناه خلل. فأول ذلك: أنه استوقف من يبكى لذكر الحبيب، و ذكراه لا يقتضى بكاء الخليّ. و إنما يصحّ طلب الإسعاد في مثل هذا على أن يبكى لبكائه، و يرق لصديقه في شدة برحائه. فأما أن يبكى على حبيب صديقه، و عشيق رفيقه، فأمر محال. فإن كان المطلوب وقوفه و بكاءه أيضا عاشقا، صح الكلام، و فسد المعنى. من وجه آخر؛ لأنه من السخف أن لا يغار على حبيبه، و أن يدعو غيره إلى التغازل عليه، و التواجد معه فيه. ثم إن في البيتين ما لا يفيد من ذكر هذه المواضع، و تسمية هذه الأماكن من «الدّخول» و «حومل»، «و توضح» و «المقراة»، و «سقط اللّوى». و قد كان يكفيه أن يذكر في التعريف بعض هذا. و هذا التطويل إذا لم يفد، كان ضربا من العى. ثم إن قوله: «لم يعف رسمها»، ذكر الأصمعى من محاسنه أنه باق، فنحن نحزن على مشاهدته، فلو عفا لاسترحنا. و هذا بأن يكون من مساويه أولى؛ لأنه إن كان صادق الود فلا يزيده عفاء الرسوم إلا جدة عهد، و شدة وجد. و إنما فزع الأصمعى إلى إفادته هذه الفائدة، خشية أن يعاب عليه، فيقال: أيّ فائدة لأن يعرّفنا أنه لم يعف رسم منازل حبيبه؟ و أي معنى لهذا الحشو؟ فذكر ما يمكن أن يذكر، و لكن لم يخلصه بانتصاره له من الخلل. ثم في هذه الكلمة خلل آخر لأنه عقّب البيت بأن قال: «فهل عند رسم دارس من معول». فذكر أبو عبيدة أنه رجع فأكذب نفسه، كما قال زهير: قف بالديار التي لم يعفها القدم نعم و غيّرها الأرواح و الدّيم و قال غيره: أراد بالبيت الأول أنه لم ينطمس أثره كله، و بالثانى أنه ذهب بعضه حتى لا يتناقض الكلامان. و ليس في هذا انتصار؛ لأن معنى عفا و درس واحد، فإذا قال لم يعف رسمها ثم قال قد عفا، فهو تناقض لا محالة. و اعتذار أبي عبيدة أقرب لو صح. و لكن لم يرد هذا القول مورد الاستدراك، كما قاله زهير فهو إلى الخلل أقرب، و قوله: لما نسجتها، كان ينبغي أن يقول لما نسجها، و لكنه تعسف فجعل ما في تأويل التأنيث لأنها في معنى الريح، و الأولى التذكير دون التأنيث. و ضرورة الشعر قد دلته على هذا التعسف، و قوله لم يعف رسمها كان الأولى أن يقول لم يعف رسمه، لأنه ذكر المنزل. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۰۸ فإن كان رد ذلك إلى هذه البقاع، و الأماكن التي المنزل واقع بينها، فذلك خلل؛ لأنه إنما يريد صفة المنزل الذي نزله حبيبه بعفائه، أو بأنه لم يعف دون ما جاوره. و إن أراد بالمنزل الدار حتى أنث، فذلك أيضا خلل. و لو سلم من هذا كله، و مما نكره ذكره كراهية التطويل، لم يشك في أن شعر أهل زماننا لا يقصر عن البيتين بل يزيد عليهما و يفضلهما. ثم قال: وقوفا بها صحبى عليّ مطيّهم يقولون لا تهلك أسى و تحمّل و إن شفائى عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معوّل و ليس في البيتين أيضا معنى بديع، و لا لفظ حسن كالأولين. و البيت الأول منهما متعلق بقوله: «قفا نبك» فكأنه قال: قفا وقوف

صحبى بها على مطيهم. أوقفا حال وقوف صحبى. و قوله بها متأخر فى المعنى و إن تقدم فى اللفظ. ففى ذلك تكلف و خروج عن اعتدال الكلام. و البيت الثانى مختل من جهة أنه قد جعل الدمع فى اعتقاده شافيا كافيا. فما حاجته بعد ذلك إلى طلب حيلة أخرى، و تحمّل و معوّل عند الرسوم؟ و لو أراد أن يحسن الكلام، لوجب أن يدلّ على أن الدمع لا يشفيه لشدة ما به من الحزن. ثم يسائل هل عند الربع من حيلة أخرى؟ و قوله: كدأبک من أم الحويرث قبلها و جارتها أمّ الرّباب بمأسل إذ قامتا تضوّع المسک منهما نسيم الصبا يأتى بريّا القرنفل أنت لا تشک فى أن البيت الأول قليل الفائدة، ليس له مع ذلک بهجة، فقد يکون الکلام مصنوع اللفظ، و إن کان منزوع المعنى. و أما البيت الثانى فوجه التكلف فيه قوله: إذا قامتا تضوع المسک منهما. و لو أراد أن يجود أفاد أن بهما طيبا على كل حال. فأما فى حال القيام فقط فذلک تقصير، ثم فيه خلل آخر لأنه بعد أن شبه عرفها بالمسک، شبه ذلک بنسيم القرنفل، و ذکر ذلک بعد ذکر المسک نقص. و قوله نسيم الصبا فى تقدير المنقطع عن المصراع الأول لم يصله به وصل مثله. و قوله: ففاضت دموع العين منى صبابة على النحر حتى بلّ دمعى محملى ألا رب يوم لک منهن صالح و لا سيما يوم بدارة جلجل قوله: ففاضت دموع العين، ثم استعانته بقوله منى، استعانة ضعيفة عند المتأخرين فى الصنعة. و هو حشو غير مليح، و لا بديع. و قوله: على النحر، حشو آخر، لأن قوله: بلّ دمعى محملى يغنى عنه، و يدل عليه. و ليس بحشو حسن. ثم قوله: حتى بلّ دمعى محملى إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۰۹ إعادة ذكره الدمع حشو آخر. و كان يكفيه أن يقول: حتى بلّت محملى، فاحتاج لإقامة الوزن إلى هذا كله. ثم تقديره أنه قد أفرط فى إفاضة الدمع حتى بلّ محمله، تفريط منه و تقصير. و لو كان أبدع لكان يقول: حتى بلّ دمعى مغانيهم و عراصهم. و يشبه أن يكون غرضه إقامة الوزن و القافية، لأن الدمع يبعد أن يبلّ المحمل. و إنما يقطر من الواقف و القاعد على الأرض أو على الذيل. و إن بله فلقلته و أنه لا يقطر. و أنت تجد فى شعر الخبزرزىّ ما هو أحسن من هذا البيت و أمتن و أعجب منه. و البيت الثانى خال من المحاسن و البديع، خال من المعنى. و ليس له لفظ يروق و لا ـ معنى يروع. من طبائع السوقة، فلا يرعک تهويله، باسم موضع غريب، و قال: و يوم عقرت للعذارى مطيّتى فيا عجبا من رحلها المتحمّل فظلّ العذارى يرتمين بلحمها و شحم كهدّاب الدّمقس المفتّل تقديره: أذكر يوم عقرت مطيتى. أو يرده على قوله: يوم بدارة جلجل و ليس فى المصراع الأول من هذا البيت إلا سفاهته. قال بعض الأدباء قوله: يا «عجبا»، يعجبهم من سفهه فى شبابه من نحره ناقته لهم. و إنما أراد أن لا يكون الكلام من هذا المصراع منقطعا عن الأول. و أراد أن يكون الكلام ملائما له. و هذا الذى ذكره بعيد. و هو منقطع عن الأول. و ظاهره أنه يتعجب من تحمل العذارى رحله، و ليس فى هذا تعجب كبير. و لا فى نحر الناقة لهن تعجب، و إن كان يعنى به أنهن حملن رحله، و أن بعضهن حملته، فعبر عن نفسه برحله، فهذا قليلا يشبه أن يكون عجبا. لكن الكلام لا يدل عليه. و يتجافى عنه. و لو سلم البيت من العيب لم يكن فيه شيء غريب و لا معنى بديع، أكثر من سفاهته، مع قلة معناه، و تقارب أمره، و مشاكلته طبع المتأخرين من أهل زماننا. و إلى هذا الوضع لم يمر له بيت رائع، و كلام رائق. و أما البيت الثانى فيعدونه حسنا، و يعدون التشبيه مليحا واقعا، و فيه شيء: و ذلك أنه عرّف اللحم، و نكّر الشّحم، فلا يعلم أنه وصف شحمها، و ذكر تشبيه أحدهما بشيء واقع، و عجز عن تشبيه القسمة الأولى، فمرّت مرسلة، و هذا نقص فى الصنعة، و عجز عن إعطاء الكلام حقّه، و فيه شيء آخر من جهة المعنى: و هو أنه وصف طعامه الذى أطعم من أضاف بالجودة، و هذا قد يعاب، و قد يقال إن العرب تفتخر بذلک، و لا يرونه عيبا. و إنما الفرس هم الذين يرون هذا عيبا شنيعا. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۱۰ و أما تشبيه الشحم بالدّمقس، فشيء يقع للعامة، و يجرى على ألسنتهم، فليس بشيء قد سبق إليه، و إنما زاد المفتّل للقافية، و هذا مفيد. و مع ذلک، فلست أعلم العامة تذكر هذه الزيادة، و لم يعدّ أهل الصنعة ذلک من البديع، و رأوه قريبا. و فيه شيء آخر، و هو: أن تبجحه بما أطعم للأحباب مذموم و إن سوّغ التبجيح بما أطعم للأضياف إلا أن يورد الكلام مورد المجون، و على طريق أبى نواس فى المزاح و المداعبة. و قوله: و يوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت لک الويلات إنک مرجلى تقول و قد مال الغبيط بنا معا عقرت بعيرى يا امرأ القيس فأنزل قوله: دخلت الخدر خدر عنيزة، ذكره تكريرا لإقامة الوزن لا ـ فائدة فيه. غيره، و لا ـ ملاحة و لا ـ رونق. و قوله فى المصراع الأخير من هذا البيت: فقالت لک الويلات إنک مرجلى كلام مؤنث من كلام النساء، نقله من جهته إلى شعره، و ليس فيه

غير هـذا. و تكريره بعد ذلك «تقول و قد مال الغبيط» يعنى قتب الهودج بعد قوله: «فقالت لك الويلات إنك مرجلى» لا فائدة فيه غير تقـدير الوزن، و إلاـ فحكايـة قولهـا الأـول كـاف، و هو فى النظم قبيـح، لأـنه ذكر مرة «فقالت»، و مرة «تقول» فى معنى واحـد و فصـل خفيف. و فى مصـراع الثـانى أيضـا تأنيث من كلامهن، و ذكر أبو عبيـدة أنه قال: عقرت بعيرى، و لم يقل ناقتى؛ لأنهم يحملون النساء على ذكور الإبل لأنها أقوى، و فيه نظر؛ لأن الأظهر أن البعير اسم للـذكر و الأنثى، و احتاج إلى ذكر البعير لإقامـة الوزن، و قوله: فقلت لهـا سـيرى و أرخى زمـامه و لا تبعـدينى من جناك المعلّل فمثلك حبلى قـد طرقت و مرضع فألهيتها عن ذى تمائم مغيل البيت الأول قريب النسج، ليس له معنى بديع، و لا لفظ شـريف، كأنه من عبارات المنحطين فى الصـنعة. و قوله فمثلك حبلى قد طرقت، عابه عليه أهل العربيـة. و معناه عنـدهم حتى يسـتقيم الكلام (فرب مثلك حبلى قـد طرقت) و تقـديره أنه زير نساء، و أنه يفسدهن و يلهيهن عن حبلهن و رضـاعهن؛ لأـن الحبلى و المرضـعة أبعـد من الغزل، و طلب الرجـال. و البيت الثـانى فى الاعتـذار و الاسـتهتار و التهيام و غير منتظم مع المعنى الـذى قدمه فى البيت الأول. لأن تقديره لا تبعدينى عن نفسك، فإنى أغلب النساء و أخدعهن عن رأيهن و أفسدهن بالتغـازل. و كونه مفسـدة لهن لاـ يوجب له وصـلهن و ترك إبعـادهن إيـاه. بـل يوجب هجره و الاسـتخفاف به، لسـخفه و دخوله كل مـدخل فـاحش، و ركوبه كل مركـب فاسـد، و فيه إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ١١١ من الفحش و التفحش مـا يسـتنكف من مثله و يـأنف من ذكره، و كقوله: إذا مـا بكى من خلفهـا انصـرفت له بشقّ، و تحتى شـقّها لم يحوّل و يومـا على ظهر الكثيب تعـذّرت علىّ و آلت حلفة لم تحلّل فالبيت الأول غاية فى الفحش، و نهاية فى السـخف. و أى فائدة لذكره لعشـيقته، كيف كان يركـب هذه القبائح، و يـذهب هـذه المذاهب، و يرد هذه الموارد؟! إن هذا ليبغضه إلى كل من سـمع كلامه. و يوجب له المقت. و هو لو صدق لكان قبيحا، فكيف و يجوز أن يكون كاذبا. ثم ليس فى البيت لفظ بديع، و لا معنى حسن. و هذا البيت متصل بالبيت الذى قبله، من ذكر المرضع التى لهـا ولـد محول. فأمـا البيت الثـانى و هو قوله و يوما يتعجب منه، و إنما تشـددت و تعسـرت عليه، و حلفت عليه، فهو كلام ردىء النسـج، لا فائـدة لـذكره لنا، أن حبيبته تمنعت عليه يوما بموضع يسـميه و يصـفه. و أنت تجـد فى شـعر المحـدثين من هذا الجنس فى التغزل ما يذوب معه اللب و تطرب عليه النفس، و هذا مما تستنكره النفس و يشمئز منه القلب، و ليس فيه شىء من الإحسان و الحسن. و قوله: أ فـاطم مهلا بعض هـذا التـدلّل و إن كنت قـد أزمعت صـرمى فأجملى أغرّك منى أن حبّك قاتلى و أنك مهما تأمرى القلب يفعل فالبيت الأول فيه ركاكـة جـدا، و تأنيث ورقة. و لكن فيهما تخنيث! و لعل قائلا يقول: إن كلام النساء بما يلائمهن من الطبع أوقع و أغزل؟ و ليس كـذلك، لأنك تجـد الشـعراء فى الشـعر المؤنث لم يعـدلوا عن رصانـة قولهم. و المصـراع الثانى منقطع عن الأول لا يلاـئمه و لاـ يوافقه، و هـذا يـبين لـك إذا اعترضت معه البيت الـذى تقـدمه، و كيف ينكر عليهـا تـدللها، و المتغزل يطرب على دلاـل الحبيب و تـدلّله؟ و البيت الثانى: قد عيب عليه لأنه قد أخبر أن من سبيلها أن لا تغتر بما يريها من أن حبها يقتله. و أنها تملك قلبه، فما أمرته فعله. و المحب إذا أخبر عن مثل هـذا صـدق، و إن كان المعنى غير هـذا الذى عيب عليه، و إنما ذهب مذهبا آخر و هو أنه أراد أن يظهر التجلـد، فهـذا خلاـف مـا أظهر من نفسه فيما تقـدم من الأبيات، من الحب و البكاء على الأحبـة. فقـد دخل فى وجه آخر من المناقضـة و الإحاطـة فى الكلاـم، ثم قوله: تـأمرى القلب يفعـل معنـاه: تأمرينى. و القلب لا يؤمر، و الاسـتعارة فى ذلك غير واقعـة و لا حسـنة. و قوله: فإن كنت قد ساءتك منى خليقة فسلّى ثيابى عن ثيابك تنسل و ما ذرفت عيناك إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتّل إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ١١٢ البيت الأـول قـد قيـل فى تـأويله: إنه ذكر الثوب و أراد البـدن، مثل قول اللّه تعالى وَ ثِيابَكَ فَطَهِّرْ «١» و قـال أبو عبيـدة: هـذا مثـل للهجر، و تنسـل: تبين. و هو بيت قليـل المعنى، ركيكـة و وضـيعه. و كل ما أضاف إلى نفسه، و وصـف به نفسه سـقوط و سـفه و سـخف يـوجب قطعه. فلم يحكم على نفسه بـذلك، و لكن يـورده مورد أن ليست له خليقـة توجب هجرانه. و التقصّـى من وصله، و أنه مهذب الأخلاق، شريف الشمائل، فذلك يوجب أن لا ينفك من وصاله. و الاستعارة فى المصراع الثانى فيها تواضع و تقارب، و إن كانت غريبة. و أما البيت الثانى فمعدود من محاسن القصيدة و بدائعها، و معناه ما بكيت إلا لتجرحى قلبا معشّـرا، أى مكسـرا، من قولهم: برمة أعشار، إذا كانت قطعا هذا تأويل ذكره الأصـمعى رضـى اللّه عنه، و هو أشـبه عند أكثرهم. و

قال غیره: و هذا مثل للأعشار التی تقسم الجزور علیها. و یعنی بسهمیک، المعلی و له سبعۀ أنصباء، و الرقیب و له ثلاثۀ أنصباء. فأراد أنک ذهبت بقلبی أجمع. و یعنی بقوله: مقتل مذلل. و أنت تعلم أنه علی ما یعنی به فهو غیر موافق للأبیات المتقدمۀ، لما فیها من التناقض الذی بیّنا. و یشبه أن یکون من قال بالتأویل الثانی فزع إلیه لأنه رأی اللفظ مستکرها علی المعنی الأول، لأن القائل إذا قال: ضرب فلان بسهمه فی الهدف، بمعنی أصابه، کان کلاما ساقطا مرذولا. و هو یری أن معنی الکلمۀ أن عینیها کالسهمین النافذین فی إصابۀ قلبه المجروح، فلما بکتا و ذرفتا بالدموع کانتا ضاربتین فی قلبه. و لکن من حمل علی التأویل الثانی سلم من الخلل الواقع فی اللفظ، و لکنه إذا حمل علی الثانی فسد المعنی و اختل، لأنه إن کان محتاجا علی ما وصف به نفسه من الصبابۀ، فقلبه کله لها. فکیف یکون بکاؤه هو الذی یخلص قلبه لها؟ و اعلم بعد هذا أن البیت غیر ملائم للبیت الأول، و لا متصل به فی المعنی، و هو منقطع عنه، لأنه لم یسبق کلام یقتضی بکاءها، و لا سبب یوجب ذلک. فترکیبۀ هذا الکلام علی ما قبله فیه اختلال، ثم لو سلم له بیت من عشرین بیتا و کان بدیعا و لا عیب فیه، فلیس بعجیب لأنه لا یدعی علی مثله أن کلامه کله متناقض، و نظمه کله متباین. و إنما یکفی أن نبین أن ما سبق من کلامه إلی هذا البیت مما لا یمکن أن یقال إنه یتقدم

(____١) آیۀ (۴) سورۀ المدثر. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ١١٣

فیه أحدا من المتأخرین، فضلا عن المتقدمین، و إنما قدم فی شعره لأبیات قد برع فیها و بان حذقه بها. و إنما أنکرنا أن یکون شعره متناسبا فی الجودۀ و متشابها فی صحۀ المعنی و اللفظ، و قلنا إنه یتصرف بین وحشی غریب مستنکر و عربیۀ کالمهل مستنکرۀ، و بین کلام سلیم متوسط، و بین عامی سوقی فی اللفظ و المعنی، و بین حکمۀ حسنۀ، و بین سخف مستشنع. و لهذا قال اللّه عز اسمه: وَ لَوْ کانَ مِنْ عِنْدِ غَیْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِیهِ اخْتِلافاً کَثِیراً «١» فأما قوله: و بیضۀ خدر لا یرام خباؤها تمتعت من لهوبها غیر معجل تجاوزت أحراسا و أهوال معشر علیّ حراص لو یسرّون مقتلی فقد قالوا: عنی بذلک أنها کبیضۀ خدر فی صفائها و رقتها. و هذه کلمۀ حسنۀ، و لکن لم یسبق إلیها، بل هی دائرۀ فی أفواه العرب و تشبیه سائر. و یعنی بقوله: غیر معجل، أنه لیس ذلک مما یتفق قلیلا- و أحیانا، بل یتکرر له الاستمتاع بها. و قد یحمله غیره علی أنه رابط الجأش فلا یستعجل إذا دخلها خوف حصانتها و منعتها. و لیس فی البیت کبیر فائدۀ، لأنه الذی حکی فی سائر أبیاته، فلا تتضمن مطاولته فی المغازلۀ، و اشتغاله بها. فتکریره فی هذا البیت مثل ذلک قلیل المعنی، إلا الزیادۀ التی ذکر من منعتها. و هو مع ذلک بیت سلیم اللفظ فی المصراع الأول، دون الثانی. و البیت الثانی ضعیف و قوله: لو یسرون مقتلی، أراد أن یقول لو أسروا فإذا نقله إلی هذا ضعف و وقع فی مضمار الضرورۀ. و الاختلال علی نظمه بیّن حتی أن المحترز یحترز من مثله و قوله: إذا ما الثریا فی السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصّل و قد أنکر علیه قوم قوله: «إذا ما الثریا فی السماء تعرضت»، و قالوا: الثریا لا تتعرض، حتی قال بعضهم: سمی الثریا، و إنما أراد الجوزاء لأنها تعرض و العرب تفعل ذلک کما قال زهیر: «کأحمر عاد» و إنما هو أحمر ثمود، و قال بعضهم فی تصحیح قوله: تعرض له أول ما تطلع کما أن الوشاح إذا طرح یلقاک بعرضه، و هو ناحیته، و هذا کقول الشاعر: تعرّضت لی بمجان خلّ تعرّض المهرۀ فی الطول

(____١) آیۀ (٨٢) سورۀ النساء. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ١١۴

یقول: تریک عرضها و هی فی الرّسن، و قال أبو عمرو: یعنی إذا أخذت الثریا فی وسط السماء کما یأخذ الوشاح وسط المرأۀ، و الأشبه عندنا أن البیت غیر معیب من حیث عابوه به، و أنه من محاسن هذه القصیدۀ، و لو لا أبیات عدۀ فیه لقابله ما شئت من شعر غیره. و لکن لم یأت فیه بما یفوت الشأو و یستولی علی الأمد. أنت تعلم أنه لیس للمتقدمین و لا للمتأخرین فی وصف شیء من النجوم، مثل ما فی وصف الثریا. و کلّ قد أبدع فیه و أحسن، فإما أن یکون قد عارضه أو زاد علیه، فمن ذلک قول ذی الرمۀ «١»: وردت اعتسافا و الثریا کأنها علی قمۀ الرأس ابن ماء محلّق و من ذلک قول ابن المعتز «٢»: و تری الثریا فی السماء کأنها بیضات أدحیّ یلحن بفدفد و کقوله: کأن الثریا فی أواخر لیلها تفتّح نور أو لجام مفضّض و قوله أیضا: فناولنیها و الثریا کأنها جنی نرجس حیا الندامی به السّاقی و قول الأشهب بن رمیلۀ: و لاحت لساریها الثریا کأنها لدی الأفق الغربی قرط مسلسل و لابن المعتز: و

قـد هوی النجم و الجوزاء تتبعه کـذات قرط أرادته و قـد سـقطا أخـذه من ابن الرومی فی قوله: طیّب ریقه إذ ذقت فـاه و الثّریا بجانب الغرب قرط و لابن المعتز: قـد سـقانی المدام و الص بح باللیل مؤتزر و الثّریّا کنور غص ن علی الأرض قد نثر و قوله: و نروم الثریّا فی السـماء مرامـا کانکبـاب طمر کـاد یلقی لجـاما

(ـــــــــــــــــــ ۱) سـبقت ترجمتـه. (۲) سـبقت ترجمته. إعجـاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۱۵ و لابن الطثریـة: إذا ما الثریا فی السـماء کأنها جمان و هی من سـلکه فتبدّدا و لو نسـخت لک کل ما قالوا من البدیع فی وصف الثریا لطال علیک الکتاب، و خرج عن الغرض. و إنما نرید أن نبین لک أن الإبداع فی نحو هذا أمر قریب، و لیس فیه شـیء غریب. و فی جملـة ما نقلناه، ما یزیـد علی تشبیهه فی الحسن، أو یساویه أو یقاربه. فقـد علمت أن ما حلّق فیه، و قدر المتعصب له أنه بلغ النهایة فیه أمر مشترک، و شریعة موروده، و باب واسع، و طریق مسلوک. و إذا کان هذا بیت القصیدة، و درة القلادة، و واسـطة العقـد، و هـذا محله فکیف بما تعـداه؟ ثم فیه ضـرب من التکلف لأنه قال: «إذا ما الثریا فی السـماء تعرضت»، تعرض أثناء الوشاح فقوله: تعرضت من الکلام الذی یستغنی عنه، لأنه یشبّه أثناء الوشاح، سواء کان فی وسط السماء، أو عند الطلوع و المغیب. فالتهویـل بـالتعرض و التطویـل بهـذه الألفـاظ لا معنی له، و فیه أن الثریا کقطعـة من الوشاح المفصّل، فلا معنی لقوله: تعرض أثناء الوشاح و إنما أراد أن یقول تعرض قطعـة من أثناء الوشاح، فلم یسـتقم له اللفظ حتی شبه ما هو کالشـیء الواحد بالجمع و قوله: فجئت و قـد نضت لنوم ثیابها لـدی السّتر إلا لبسة المتفضّل فقالت: یمین اللّه ما لک حیلة و ما إن أری عنک المعاویة تنجلی انظر إلی الـبیت الأـول، و الأبیـات التی قبله، کیف خلّـط فی النظم، و فرّط فی التـألیف! فـذکر التمتع بهـا، و ذکر الوقت و الحـال و الحرّاس. ثم یـذکر کیف کان صـفتها لما دخل علیها، و وصل إلیها من نزعها ثیابها إلا ثوبا واحدا، و المتفضّل: الذی فی ثوب واحد، و هو الفضل، فمـا کـان من سبیله أن یقـدّمه إنما ذکره مؤخرا. و قوله لـدی الستر حشو، و لیس بحسن و لا بـدیع، و لیس فی البیت حسن و لا شـیء یفضّـل لأـجله. و أمـا البیت الثانی ففیه تعلیق و اختلال. ذکر الأصـمعی أن معنی قوله: ما لک حیلـة، أی لیست لک جهـة تجیء فیها و الناس حوالی. و الکلام فی المصـراع الثانی منقطع عن الأول، و نظمه إلیه فیه ضـرب من التفاوت، و قوله: فقمت بها أمشـی تجرّ وراءنا علی إثرنـا أذیـال مرط مرجّـل إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۱۶ فلمـا أجزنـا ساحـة الحی و انتحی بنـا بطن خبت ذی حقاف عقنقل البیت الأـول من مساعـدتها إیـاه، حتی قامت معه لیخلوا، و إنما کانت تجر علی الأثر أذیال مرط مرجّل، و المرجّل: ضـرب من البرود، یقال: لو شـبه الترجیل و فیه تکلف لأنه قال: وراءنا علی إثرنا. و لو قال علی إثرنا، کان کافیا. و الذیل إنما یجر وراء الماشـی، فلا فائدة لذکره وراءنا. و تقدیر القول: فقمت أمشی بها، و هذا أیضا ضرب من التکلف. و قوله أذیال مرط، کان من سبیله أن یقول: ذیل مرط، علی أنه لو سـلم من ذلـک کان قریبا، لیس مما یفوت بمثله غیره، و لا یتقـدم به سواه، و قول ابن المعتز أحسن منه: فبت أفرش خـدی فی الطریق له ذلاـ و اسـحب أکمـامی علی الأثر و أما البیت الثانی فقوله: أجزنا بمعنی قطعنا، و الخبت بطن من الأرض، و الحقف رمل منعرج، و العقنقـل: المنعقـد من الرمل الـداخل بعضه فی بعض. و هـذا بیت متقارب مع الأبیات المتقدمـة، لأن فیها ما هو سـلس قریب یشـبه کلام المولدین، و کلام البذلة. و هذا قد أغرب فیه و أتی بهذه اللفظة الوحشـیة، المتعقدة، و لیس فی ذکرها و التفضیل بإلحاقها بکلامها فائدة. و الکلام الغریب، و اللفظة الشدیدة المباینة لنسج الکلام قد تحمد إذا وقعت موقع الحاجة فی وصف ما یلائمها، کقوله عز و جل فی وصف یوم القیامة: یَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِیراً «۱» فأما إذا وقعت فی غیر هذا الموقع فهی مکروهة مذمومة، بحسب ما تحمد فی موضعها. و روی أن جریرا أنشد بعض خلفاء بنی أمیة قصیدته: بان الخلیط برامتین فودعوا أو کلما جدوا لبین تجزع؟ کیف العزاء و لم أجـد مـذ بنتم قلبـا یقر و لا شـرابا ینقع قال: و کان یزحف من حسن هـذا الشـعر حتی بلغ قوله: و تقول بوزع: قـد دببت علی العصا هلّا هزئت بغیرنا یا بوزع فقال: أفسـدت شـعرک بهذا الاسم، و أما قوله: هصـرت بغصـنی دوحة فتمایلت علیّ هضـیم الکشح ریّا المخلخل مهفهفـة بیضـاء غیر مفاضـة ترائبهـا مصـقولة کالسّـجنجل فمعنی قـوله: هصـرت: جـذبت و ثنیـت.

(ـــــــــــــــــــ ۱) آیـة (۱۰) سورة الإنسـان. إعجاز

القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۱۷ و قوله: «بغضنی دوحة» تعسّف، و لم یکن من سبیله أن یجعلهما اثنین. و المصراع الثانی أصح، و لیس فیه شیء إلا ما یتکرر علی ألسنة الناس من هاتین الصفتین. و أنت تجد ذلک فی وصف کل شاعر، و لکنه مع تکرره علی الألسن صالح. و أما معنی قوله: مهفهفة أنها مخففة لیست مثقلة، و المفاضة التی اضطرب طولها، و البیت مع مخالفته فی الطبع الأبیات المتقدمة و نزوعه فیه إلی الألفاظ المستکرهة، و ما فیه من الخلل من تخصیص الترائب بالضوء بعد ذکر جمیعها بالبیاض، فلیس بطائل؛ و لکنه قریب متوسط، و قوله: تصدّ و تبدی عن أسیل و تتّقی بناظرة من وحش وجرة مطفل و جید کجید الرّیم لیس بفاحش إذا هی نضته و لا بمعطّل معنی قوله: عن أسیل، أی بأسیل، و إنما یرید خدا لیس بکرا. و قوله: تتقی یقال اتقاه بترسه أی جعله بینه و بینه، و قوله: تصد و تبدی عن أسیل متفاوت لأن الکشف عن الوجه مع الوصل دون الصد. و قوله: تتقی بناظرة، لفظة ملیحة، و لکن أضافها إلی ما نظم به کلامه و هو مختل، و هو قوله: من وحش وجرة، و کان یجب أن تکون العبارة بخلاف هذا. کان من سبیله أن یضیف إلی عیون الظبا أو المها دون إطلاق الوحش، ففیهن ما تستنکر عیونها. و قوله: «مطفل» فسروه علی أنها لیست بصبیة و أنها قد استحکمت، و هذا اعتذار متعسف. و قوله مطفل زیادة لا فائدة فیها علی هذا التفسیر الذی ذکره الأصمعی. و لکن قد یحتمل عندی أن یفید غیر هذه الفائدة. فیقال: إنها إذا کانت مطفلا لحظت أطفالها بعین رقة، ففی نظر هذه رقة نظر المودة، و یقع الکلام معلقا تعلیقا متوسطا. و أما البیت الثانی فمعنی قوله: لیس بفاحش، أی لیس بفاحش الطول، و معنی قوله: نضته، رفعته، و معنی قوله: لیس بفاحش فی مدح الأعناق، کلام فاحش موضوع منه. و إذا نظرت فی أشعار العرب رأیت فی وصف الأعناق ما یشبه السحر. فکیف وقع علی هذه الکلمة و دفع إلی هذه اللفظة ..؟ و هلا قال کقول أبی نواس؟ مثل الظباء سمت إلی روض صوادر عن غدیر و لست أطول علیک، فتستثقل، و لا أکثر القول فی ذمه، فتستوحش. و أکلک الآن إلی جملة من القول، فإن کنت من أهل الصنعة، فطنت و اکتفیت و عرفت ما رمینا إلیه و استغنیت. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۱۸ و إن کنت عن الطبقة خارجا، و عن الإتقان بهذا الشأن خالیا، فلا یکفیک البیان، و إن استقرینا جمیع شعره، و تتبعنا عامة ألفاظه، و دللنا علی ما فی کل حرف منه. اعلم أن هذه القصیدة قد ترددت بین أبیات سوقیة مبتذلة، و أبیات متوسطة، و أبیات ضعیفة مرذولة، و أبیات وحشیة غامضة مستکرهة، و أبیات معدودة بدیعة. و قد دللنا علی المبتذل منها، و لا یشتبه علیک الوحشی المستنکر الذی یروع السمع، و یهول القلب، و یکدّ اللسان، و یعبس معناه فی وجه کل خاطر، و یکفهر مطلعه علی کل متأمل و ناظر، و لا یقع بمثله التمدح و التفاصح و هو مجانب لما وضع له أصل الإفهام، و مخالف لما بنی علیه التفاهم الکلام. فیجب أن یسقط عن الغرض المقصود، و یلحق باللغز و الإشارة المستبهمة. فأما الذی زعموا أنه من بدیع هذا الشعر، فهو قوله: و یضحی فتیت المسک فوق فراشها نؤم الضّحی لم تنتطق عن تفضّل و المصراع الأخیر عندهم بدیع، و معنی ذلک: أنها مترفة متنعمة، لها من یکفیها. و معنی قوله: لم تنتطق عن تفضل، یقول: لم تنتطق و هو فضل. و «عن» هی بمعنی «بعد». قال أبو عبیدة: لم تنتطق فتعمل، و لکنها تتفضل. و مما یعدونه من محاسنها: و لیل کموج البحر أرخی سدوله علیّ بأنواع الهموم لیبتلی فقلت له لما تمطی بصلبه و أردف أعجازا و ناء بکلکل ألا أیها اللیل الطویل أ لا انجلی بصبح، و ما الإصباح منک بأمثل و کان بعضهم یعارض هذا بقول النابغة: کلینی لهم یا أمیمة ناصب و لیل أقاسیه بطیء الکواکب و صدر أراح اللیل عازب همّه تضاعف فیه الحزن من کلّ جانب تقاعس حتی قلت لیس بمنقض و لیس الذی یتلو النجوم بآئب و قد جری ذلک بین یدی بعض الخلفاء، فقدمت أبیات امرئ القیس، و استحسن استعارتها، و قد جعل للیل صدرا یثقل تنحیه، و یبطئ تقضیه. و جعل له أردافا کثیرة، و جعل له صلبا یمتد و یتطاول. و رأوا هذا بخلاف ما یستعیره أبو تمام من الاستعارات الوحشیة البعیدة المستنکرة. و رأوا أن الألفاظ جمیلة. و اعلم أن هذا صالح جمیل، و لیس من الباب الذی یقال إنه متناه عجیب و فیه إلمام بالتکلف. و دخول فی التعمل. و قد خرجوا له فی البدیع من القصیدة قوله: و قد اغتدی و الطیر فی وکناتها بمنجرد قید الأوابد هیکل مکرّ مفرّ مقبل مدبر معا کجلمود صخر حطّه السیل من عل إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۱۹ و قوله أیضا: به أیطلا ظبی و ساقا نعامة و إرخاء سرحان و تقریب تنفل فأما قوله: قید الأوابد، فهو ملیح، و مثله فی کلام الشعراء و أهل الفصاحة کثیر. و التعمل بمثله ممکن. و أهل زماننا الآن یصنفون نحو هذا تصنیفا، و یؤلفون

المحاسن تأليفا، ثم يوشحون به كلامهم. و الذين كانوا من قبل لغزارتهم و تمكّنهم لم يكونوا يتصنّعون لذلك، إنما كان يتفق لهم اتفاقا، و يطّرد فى كلامهم اطرادا. و أما قوله فى وصفه: «مكرّ مفرّ» فقد جمع فيه طباقا و تشبيها، و فى سرعة جرى الفرس للشعراء ما هو أحسن من هذا و ألطف. و كذلك فى جمعه بين أربعة وجوه من التشبيه فى بيت واحد صنعة. و لكن قد عورض فيه و زوحم، و التوصل إليه يسير، و تطلبه سهل قريب. و قد بيّنا لك أن هذه القصيدة و نظائرها تتفاوت فى أبياتها تفاوتا بيّنا فى الجودة و الرداءة، و السلاسة و الانعقاد، و السلامة و الانحلال، و التمكن و التسهيل، و الاسترسال، و التوحش و الاستكراه. و له شركاء فى نظائرها و منازعون فى محاسنها، و معارضون فى بدائعها. و لا سواء كلام ينحت عن الصخر تارة، و يذوب تارة، و يتلوّن تلوّن الحرباء، و يختلف اختلاف الأهواء، و يكثر فى تصرفه اضطرابه، و تتقاذف به أسبابه و بين قول يجرى فى سبكه على نظام، و فى رصفه على منهاج، و فى وضعه على حدّ، و فى صفائه على باب، و فى بهجته و رونقه على طريق، مختلفه مؤتلف، و مؤتلفه متّحد، و متباعده متقارب، و شارده مطيع، و مطيعه شارد. و هو على متصرّفاته واحد، لا يستصعب فى حال، و لا يتعقد فى شأن. و كنا أردنا أن نتصرّف فى قصائد مشهورة، فنتكلم عليها، و ندلّ على معانيها و محاسنها، و نذكر لك من فضائلها و نقائصها، و نبسط لك القول فى هذا الجنس، و نفتح عليك فى هذا النهج. ثم رأينا هذا خارجا عن غرض كتابنا، و الكلام فيه يتصل بنقد الشعر و عياره، و وزنه بميزانه و معياره؛ و لذلك كتب و إن لم تكن مستوفاة، و تصانيف و إن لم تكن مستقصاة. و هذا القدر يكفى فى كتابنا. و لم نحب أن ننسخ لك ما سطره الأدباء فى خطأ امرئ القيس فى العروض و النحو و المعانى، و ما عابوه عليه فى أشعاره، و تكلموا به على ديوانه، لأن ذلك أيضا خارج عن غرض كتابنا، و مجانب لمقصوده. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۲۰ و إنما أردنا أن نبين الجملة التى بيّناها، لتعرف أن طريقة الشعر شريعة مورودة، و منزلة مشهودة، يأخذ منها أصحابها على مقادير أسبابهم، و يتناول منها ذووها على حسب أحوالهم. و أنت تجد للمتقدم معنى قد طمسه المتأخر بما أبرّ عليه فيه. و تجد للمتأخر معنى قد أغفله المتقدم. و تجد معنى قد توافدا عليه، و توافيا إليه. فهما فيه شريكا عنان، و كأنهما فيه رضيعا لبان. و اللّه يؤتى فضله من يشاء. فأما نهج القرآن و نظمه و تأليفه و رصفه؛ فإن العقول تتيه فى جهته، و تحار فى بحره، و تضل دون وصفه. و نحن نذكر لك فى تفصيل هذا ما تستدل به على الغرض، و تستولى به على الأمد. و تصل به إلى المقصد. و تتصور إعجازه كما تتصور الشمس، و تتيقن تناهى بلاغته كما تتيقن الفجر. و أقرّب عليك الغامض، و أسهّل لك العسير. و اعلم أن هذا علم شريف المحل. عظيم المكان. قليل الطلاب. ضعيف الأصحاب ليست له عشيرة تحميه، و لا أهل عصمة تفطن لما فيه. و هو أدق من السحر، و أهول من البحر، و أعجب من الشعر. و كيف لا يكون كذلك، و أنت تحسب أن وضع الصبح فى موضع الفجر يحسن فى كل كلام، إلا أن يكون شعرا أو سجعا، و ليس كذلك. فإن إحدى اللفظتين قد تنفر فى وضع و تزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى. بل تتمكن فيه و تضرب بجرانها، و تراها فى مظانها، و تجدها فيه غير منازعة إلى أوطانها. و تجد الأخرى لو وضعت موضعها فى محل نفار، و مرمى شراد، و نابية عن استقرار. و لا أكثر عليك المثال، و لا أضرب لك فيه الأمثال، و أرجع بك إلى ما وعدتك من الدلالة. و ضمنت لك من تقريب المقالة. فإن كنت لا تعرف الفصل الذى بيّنا بين اللفظتين على اختلاف مواقع الكلام، و مصرفات مجارى النظام، لم تستفد مما نقر به عليك شيئا، و كان التقليد أولى بك، و الاتباع موجب عليك. و لكل شيء سبب، و لكل علم طريق، و لا سبيل إلى الوصول إلى الشيء من غير طريقه. و لا بلوغ غايته من غير سبيله. خذ الآن، هداك اللّه، فى تفريغ الفكر و تخلية البال، و انظر فيما نعرض عليك و نهديه إليك، متوكلا على اللّه، و معتصما به، و مستعيذا به من الشيطان الرجيم، حتى تقف على إعجاز القرآن العظيم، سماه اللّه، عز ذكره، حكيما و عظيما و مجيدا. و قال: لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ «۱» و قال: (____۱) آية (۴۲) سورة فصلت. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۲۱ لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ «۱» و قال: وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً «۲» و قال: قُلْ لَئِنِ

اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً «۳». و أخبرنا أحمد بن محمد بن الحسين القزوينيّ، حدثنا أبو عبد الرحمن أحمد بن عثمان، حدثنا أبو يوسف الصيدلانيّ، حدثنا محمد بن سلمة عن أبى سنان، عن عمرو بن مرّة، عن أبى البحترى الطائى، عن الحارث الأعور، عن على رضى اللّه عنه قال: «قيل يا رسول اللّه إن أمتك ستفتتن من بعدك، فسأل أو سئل ما المخرج من ذلك؟ فقال: عليكم بكتاب اللّه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، من ابتغى العلم فى غيره أضله اللّه، و من ولى هذا من جبار فحكم بغيره قصمه اللّه، و هو الذكر الحكيم، و النور المبين، و الصراط المستقيم، فيه خبر من قبلكم، و تبيان من بعدكم، و هو فصل ليس بالهزل، و هو الذى سمعته الجن فقالوا: إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ «۴»، لا يخلق على طول الرد، و لا تنقضى عبره، و لا تفنى عجائبه». و أخبرنى أحمد بن على بن الحسن، أخبرنا أبى، أخبرنا بشر بن عبد الوهاب، أخبرنا هشام بن عبيد اللّه، حدثنا المسيّب بن شريك، عن عبيدة عن أسامة بن أبى عطاء، قال: «أرسل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إلى على رضى اللّه عنه فى ليلة فذكر نحو ذلك فى المعنى، و فى بعض ألفاظه اختلاف». و أخبرنا أحمد بن على بن الحسن، أخبرنا أبى، أخبرنا بشر بن عبد الوهاب، أخبرنا هشام بن عبيد اللّه، حدثنا المسيّب بن شريك، عن بشر بن نمير، عن القاسم، عن أبى أمامة، قال: «قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من قرأ ثلث القرآن أعطى ثلث النبوة، و من قرأ نصف القرآن، أعطى نصف النبوة، و من قرأ القرآن كله أعطى النبوة كلها، غير أنه لا يوحى إليه» «۵» و ذكر الحديث.

(____۱) آية (۲۱) سورة الحشر. (۲) آية (۳۱) سورة الرعد. (۳) آية (۸۸) سورة الإسراء. (۴) آية (۲) سورة الجن. (۵) الاتحاف ۴/ ۴۶۶، و الكنز (۲۳۴۸)، و الدرّ المنثور ۱/ ۳۴۸، و ابن عدى ۲/ ۴۴۰، و الموضوعات ۱/ ۲۵۲. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۲۲ و لو لم يكن من عظم شأنه إلا أنه طبّق الأرض أنواره، و جلل الآفاق ضياؤه، و نفذ فى العالم حكمه، و قبل فى الدنيا رسمه، و طمس ظلام الكفر بعد أن كان مضروب الرّواق. ممدود الأطناب، مبسوط الباع، مرفوع العماد، ليس على الأرض من يعرف اللّه حق معرفته، أو يعبده حق عبادته، أو يدين بعظمته، أو يعلم علوّ جلالته، أو يتفكّر فى حكمته، فكان كما وصفه اللّه تعالى جل ذكره من أنه نور فقال: وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَ لَا الْإِيمانُ وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ «۱» فانظر إن شئت إلى شريف هذا النظم، و بديع هذا التأليف، و عظيم هذا الرصف، كل كلمة من هذه الآية تامة، و كل لفظ بديع واقع قوله: وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا «۲» يدل على صدوره من الربوبية، و يبين عن وروده عن الإلهية، و هذه الكلمة بمنفردها، و أخواتها، كل واحدة منها لو وقعت بين كلام كثير تميز عن جميعه، و كان واسطة عقده، و فاتحة عقده، و غرة شهره، و عين دهره، و كذلك قوله: وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا «۳» فجعله روحا لأنه يحيى الخلق، فله فضل الأرواح فى الأجساد. و جعله نورا لأنه يضىء ضياء الشمس فى الآفاق. ثم أضاف وقوع الهداية به إلى مشيئته. و وقف وقوف الاسترشاد به على إرادته، و بيّن أنه لم يكن ليهتدى إليه لو لا توفيقه. و لم يكن ليعلم ما فى الكتاب و لا الإيمان لو لا تعليمه. و أنه لم يكن ليهتدى، فكيف كان يهدى لولاه؟ فقد صار يهدى و لم يكن من قبل ذلك ليهتدى. فقال وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ. صِراطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ «۴» فانظر إلى هذه الكلمات الثلاث: فالكلمتان الأولتان مؤتلفتان، و قوله: أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ كلمة منفصلة مباينة للأولى قد صيرهما شريف النظم أشد ائتلافا من الكلام المؤلف، و ألطف انتظاما من الحديث الملائم. و بهذا يبين فضل الكلام، و تظهر فصاحته و بلاغته. الأمر أظهر، و الحمد للّه، و الحال أبين من أن يحتاج إلى كشف. تأمل قوله: فالِقُ الْإِصْباحِ وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ «۵» انظر إلى هذه الكلمات الأربع التى ألف بينها، و احتج بها على ظهور (____۱) آية (۵۲) سورة الشورى. (۲) الآية السابقة. (۳) الآية السابقة. (۴) آية (۵۳) سورة الشورى. (۵) آية (۹۶) سورة الأنعام. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۲۳ قدرته و نفاذ أمره. أ ليس كل كلمة منها فى نفسها غرة، و بمنفردها درة؟ و هو مع ذلك يبين أنه يصدر عن علو الأمر، و

نفاذ القهر، و يتجلى فى بهجة القدرة، و يتحلى بخالصة العزة، و يجمع السلاسة إلى الرصانة، و السلامة إلى المتانة، و الرونق الصافى و البهاء الضافى. و لست أقول إنه شمل الإطباق المليح، و الإيجاز اللطيف، و التعديل و التمثيل، و التقريب و التشكيل، و إن كان قد جمع ذلك و أكثر منه، لأن العجيب ما بيّنا من انفراد كل كلمة بنفسها حتى تصلح أن تكون عين رسالة، أو خطبة، أو وجه قصيدة، أو فقرة. فإذا ألفت ازدادت حسنا و زادتك إذا تأملت معرفة و إيمانا. ثم تأمل قوله: وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ. وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ «۱» هل تجد كل لفظة و هل تعلم كل كلمة تستقل بالاشتمال على نهاية البديع، و تتضمن شرط القول البليغ؟ فإذا كانت الآية تنتظم من البديع، و تتألف من البلاغات، فكيف لا- تفوت حد المعهود، و لا- تجوز شأو المألوف؟ و كيف لا تجوز قصب السبق، و لا تتعالى عن كلام الخلق؟ ثم اقصد إلى سورة تامة فتصرّف فى معرفة قصصها، و راع ما فيها من براهينها و قصصها. تأمل السورة التى يذكر فيها النمل و انظر فى كل كلمة كلمة، و فصل فصل بدأ بذكر السورة، إلى أن بيّن أن القرآن من عنده، فقال: وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ «۲» ثم وصل بذلك قصة موسى عليه السّلام و أنه رأى نارا إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ ناراً سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ «۳». و قال فى سورة طه فى هذه القصة: لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً «۴» و فى موضع: لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ «۵» قد تصرف فى وجوه، و أتى بذكر القصة على ضروب ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك. و لهذا قال فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ «۶» ليكون أبلغ فى تعجيزهم و أظهر للحجة عليهم. و كل

(____ ۱) آية (۳۷: ۳۹) سورة يس. (۲) آية (۶) سورة النمل. (۳) آية (۸) سورة النمل. (۴) آية (۱۰) سورة طه. (۵) آية (۲۹) سورة القصص. (۶) آية (۳۴) سورة الطور. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۲۴ كلمة من هذه الكلمات و إن أنبأت عن قصة فهى بليغة بنفسها، تامة فى معناها. ثم قال: فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَ مَنْ حَوْلَها وَ سُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ «۱» فانظر إلى ما أجرى له الكلام من علو أمر هذا النداء، و عظم شأن هذا الثناء، و كيف انتظم مع الكلام الأول، و كيف اتصل بتلك المقدمة، و كيف وصل بها ما بعدها من الإخبار عن الربوبية، و ما دل به عليها؛ من قلب العصا حية، و جعلها دليلا يدله عليه، و معجزة تهديه إليه. و انظر إلى الكلمات المفردة القائمة بأنفسها فى الحسن، و فيما تتضمنه من المعانى الشريفة، ثم ما شفع به هذه الآية، و قرن به هذه الدلالة من اليد البيضاء عن نور البرهان من غير سوء. ثم انظر فى آية آية، و كلمة كلمة، هل تجدها كما وصفنا من عجيب النظم و بديع الرصف؟ فكل كلمة لو أفردت كانت فى الجمال غاية، و فى الدلالة آية. فكيف إذا قارنتها أخواتها و ضامّتها ذواتها، تجرى فى الحسن مجراها، و تأخذ فى معناها؟ ثم من قصة إلى قصة، و من باب إلى باب، من غير خلل يقع فى نظم الفصل إلى الفصل، و حتى يصوّر لك الفصل وصلا، ببديع التأليف، و بليغ التنزيل. و إن أردت أن تتبين ما قلناه فضل تبيّن، و تتحقق بما ادعيناه زيادة تحقّق، فإن كنت من أهل الصنعة، فاعمد إلى قصة من هذه القصص، و حديث من هذه الأحاديث، فعبّر عنهن بعبارة من جهتك، و أخبر عنه بألفاظ من عندك. حتى ترى فيما جئت به النقص الظاهر، و تتبين فى نظم القرآن الدليل الباهر. و لذلك أعاد قصة موسى فى سور، و على طرق شتى، و فواصل مختلفة، مع اتفاق المعنى. فعلك ترجع إلى عقلك، و تستر ما عندك، إن غلطت فى أمرك، أو ذهبت فى مذاهب وهمك، أو سلّطت على نفسك وجه ظنك. متى تهيأ البليغ أن يتصرف فى قدر آية فى أشياء مختلفة، فيجعلها مؤتلفة من غير أن يبين على كلامه إعياء الخروج و التنقل. أو يظهر على خطابه آثار التكلف و التعمّل. و أحسب أنه لا يسلم من هذا، و محال أن يسلم منه حتى يظفر بمثل تلك الكلمات، الأفراد، و الألفاظ الأعلام، حتى يجمع بينها، فيجلو فيها فقرة من كلامه، و قطعة من قوله. و لو اتفق له فى أحرف معدودة، و أسطر قليلة، فمتى يتّفق له فى قدر ما نقول: إنه من القرآن معجز؟

(____ ۱) آية (۸) سورة النمل. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۲۵ هيهات هيهات!! إن الصبح يطمس النجوم و إن كانت زاهرة، و البحر يغمر الأنهار و إن كانت زاخرة.

متى تهيأ للآدمى أن يقول فى وصف كتاب سليمان عليه السّلام، بعد ذكر العنوان و التسمية، هذه الكلمة الشريفة العالية: أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ «۱» و الخلوص من ذلك إلى ما صارت إليه من التدبير، و اشتغلت به من المشورة، و من تعظيمها أمر المستشار، و من تعظيمهم أمرها، و طاعتها بتلك الألفاظ البديعة، و الكلمات العجيبة البليغة. ثم كلامها بعد ذلك لتعلم تمكن قولها: يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ «۲» و ذكر قولهم: قالوا: نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَ أُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَ الْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ «۳» لا تجد فى صفتهم أنفسهم أبدع مما وصفهم به. و قوله: وَ الْأَمْرُ إِلَيْكِ تعلم براعته بنفسه، و عجيب معناه، و موضع اتفاقه فى هذا الكلام، و تمكن الفاصلة، و ملاءمته لما قبله، و ذلك قوله: فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ «۴» ثم إلى هذا الاختصار، و إلى البيان مع الإيجاز، فإن الكلام قد يفسد الاختصار و يعميه التخفيف منه و الإيجاز. و هذا مما يزيده الاختصار بسطا لتمكنه و وقوعه موقعه. و يتضمن الإيجاز منه تصرفا يتجاوز محله و موضعه. و كم جئت إلى كلام مبسوط يضيق عن الإفهام، و وقعت على حديث طويل يقصر عما يراد به من التمام، ثم لو وقع على الإفهام و التمام، أخلّ بما يجب فيه من شروط الإحكام، أو بمعانى القصة و ما تقتضى من الإعظام ثم لو ظفرت بذلك كله رأيته ناقصا فى وجه الحكمة، أو مدخولا فى باب السياسة، أو مصفوفا فى طريق السيادة، أو مشترك العبارات إن كان مستجود المعنى، أو جيد البلاغة، مستجلب المعنى، أو مستجلب البلاغة، جيد المعنى، أو مستنكر اللفظ، وحشى العبارة، أو مستبهم الجانب، مستكره الوضع. و أنت لا تجد فى جميع ما تلونا عليك إلا ما إذا بسط أفاد. و إذا اختصر كمل فى بابه و جاد. و إذا سرّح الحكيم فى جوانبه طرف خاطبه، و بعث العليم فى أطرافه عيون مباحثه، لم يقع إلا على محاسن تتوالى، و بدائع تترى، ثم فكر بعد ذلك فى آية آية، أو كلمة كلمة،

(۱) آية (۳۱) سورة النمل. (۲) آية (۳۲) سورة النمل. (۳) آية (۳۳) سورة النمل. (۴) سبقت. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۲۶ فى قوله: إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَ كَذلِكَ يَفْعَلُونَ «۱». هذه الكلمات الثلاث؛ كل واحدة منها كالنجم فى علوه و نوره، و كالياقوت يتلألأ بين شذوره. ثم تأمل تمكن الفاصلة، و هى الكلمة الثالثة، و حسن موقعها، و عجيب حكمها، و بارع معناها. و إن شرحت لك ما فى كل آية طال عليك الأمر، و لكنى قد بينت بما فسرت، و قررت بما فصلت الوجه الذى سلكت، و النحو الذى قصدت، و الغرض الذى إليه رميت، و السمت الذى إليه دعوت. ثم فكر بعد ذلك فى شيء أدلك عليه، و هو تعادل هذا النظم فى الإعجاز فى مواقع الآيات القصيرة و الطويلة و المتوسطة. فأجل الرأى فى سورة سورة، و آية آية، و فاصلة فاصلة، و تدبر الخواتم و الفواتح، و البوادى و المقاطع، و مواضع الفصل و الوصل، و مواضع التنقل و التحول، ثم اقض ما أنت قاض. و إن طال عليك تأمل الجميع، فاقتصر على سورة واحدة، أو على بعض سور. ما رأيك فى قوله: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ «۲» هذه تشتمل على ست كلمات، سناؤها و ضياؤها على ما ترى، و سلاستها و ماؤها على ما تشاهد، و رونقها على ما تعاين، و فصاحتها على ما تعرف. و هى تشتمل على جملة و تفصيل، و تفسير ذكر العلو فى الأرض باستضعاف الخلق، بذبح الولدان، و سبى النساء. و إذا تحكّم فى هذين الأمرين، فما ظنك بما دونهما؟ لأن النفوس لا تطمئن على هذا الظلم، و القلوب لا تقرّ على هذا الجور. ثم ذكر الفاصلة التى أوغلت فى التأكيد، و كفت فى التظليم، وردت آخر الكلام على أوله، و عطفت عجزه على صدره. ثم ذكر وعده تخليصهم بقوله: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ «۳» و هذا من التأليف بين المؤتلف، و الجمع بين المستأنس، كما أن قوله: وَ ابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَ لا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا

(۱) آية (۳۴) سورة النمل. (۲) آية (۵) سورة القصص. (۳) آية (۵) سورة النمل. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۲۷ وَ أَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَ لا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ «۱» و هى خمس كلمات متباعدة فى المواقع، نائية المطارح، قد جعلها النظم البديع أشد من الشيء المؤتلف فى الأصل. و أحسن توافقا من المتطابق فى أول الوضع. و مثل هذه الآية قوله: وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ

يَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللَّهِ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ «۲» و مثلها: وَ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَ كُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ «۳» و من المؤتلف قوله: فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ ما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ «۴» و هذه الثلاث كلمات كل كلمة منها أعز من الكبريت الأحمر. و من الباب الآخر قوله تعالى: وَ لا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ «۵» كل سورة من هذه السور تتضمن من القصص ما لو تكلفت العبارة عنها بأضعاف كلماتها لم تستوف ما استوفته. ثم تجد فيما تنظم ثقل النظم، و نفور الطبع، و شراد الكلام، و تهافت القول، و تمنّع جانبه، و قصورك فى الإيضاح عن واجبه. ثم لا تقدر على أن تنتقل من قصة إلى قصة، و من فصل إلى فصل حتى تتبين عليك مواضع الوصل، و يستصعب عليك أماكن الفصل. ثم لا يمكنك أن تصل بالقصص مواعظ زاجرة، و أمثالا سائرة و حكما جليلة، و أدلة على التوحيد بينة، و كلمات فى التنزيه و التحميد شريفة. و إن أردت أن تتحقق ما وصفت لك فتأمل شعر من شئت من الشعراء المفلقين، هل تجد كلامه فى المديح و الغزل و الفخر و الهجو يجرى مجرى كلامه فى ذكر القصص؟ إنك لتراه إذا جاء إلى وصف واقعة، أو نقل خبر عامى الكلام، سوقى الخطاب، مسترسلا فى أمره، متساهلا فى كلامه، عادلا عن المألوف من طبعه، و ناكبا عن المعهود من سجيته. فإن اتفق له فى قصة كلام جيد، كان قدر ثنتين أو ثلاثة. و كان ما زاد عليها حشوا، و ما تجاوزها لغوا، و لا أقول إنها تخرج من عادته عفوا، لأنه يقصر عن العفو، و يقف دون العرف، و يتعرض للركاكة. (______________________________١) آية (٧٧) سورة القصص. (٢) آية (٦٨) سورة القصص. (٣) آية (٥٨) سورة القصص. (۴) آية (٨١) سورة القصص. (۵) آية (٨٨) سورة القصص. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ١٢٨ فإن لم تقنع بما قلت لك من الأبيات فتأمل غير ذلك من السور. هل تجد الجميع على ما وصفت لك. لو لم تكن إلا سورة واحدة لكفت فى الإعجاز. فكيف بالقرآن العظيم؟ و لو لم يكن إلا حديث من سورة لكفى، و أقنع، و شفى. و لو عرفت قدر قصة موسى وحدها من سورة الشعراء، لما طلبت بينة سواها. بل قصة من قصصه و هى قوله: وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ «۱» إلى قوله: فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ. وَ كُنُوزٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ. كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ. فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ «۲» حتى قال: فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ «۳» ثم قصة إبراهيم عليه السلام. ثم لو لم تكن إلا الآيات التى انتهى إليها القول فى ذكر القرآن، و هى قوله: وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ «۴» و هذه كلمات مفردة بفواصلها؛ منها ما يتضمن فاتحة و فاصلة، و منها ما هى فاتحة و واصلة، و فاصلة. و منها كلمة بفاصلتها تامة، دل على أنه نزله على قلبه ليكون نذيرا. و بيّن أنه آية لكونه نبينا. ثم وصل بذلك كيفية النذارة فقال: وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ. وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ «۵». فتأمل آية آية، لتعرف الإعجاز، و تتبين التصرف البديع، و التنقل فى الفصول إلى آخر السورة. ثم راع المقطع العجيب و هو قوله: وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ «۶» هل يحسن أن تأتى بمثل هذا الوعيد و أن تنظم مثل هذا النظم، و أن تجد مثل هذه النظائر السابقة، و تصادف مثل هذه الكلمات المتقدمة؟ و لو لا كراهة الإملال، لجئت إلى كل فصل فاستقريت على الترتيب كلماته، و بينت لك ما فى كل واحدة منها من البراعة، و من عجيب البلاغة. و لعلك تستدل بما قلنا على ما بعده، و تستضىء بنوره و تهتدى بهداه. و نحن نذكر آيات أخر، لتزداد استبصارا و تقدم تيقنا (______________________________. ١) آية (۵٢) سورة الشعراء. (٢) آية (۵٧- ۶٠) سورة الشعراء. (٣) آية (۶٣) سورة الشعراء. (۴) آية (١٩٢- ١٩۵) سورة الشعراء. (۵) آية (٢١۴- ٢١۵) سورة الشعراء. (۶) آية (٢٢٧) سورة الشعراء. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ١٢٩ تأمل من الكلام المؤتلف قوله: حم. تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ «۱». أنت قد تدربت الآن بحفظ أسماء اللّه تعالى، و صفاته، فانظر متى وجدت فى كلام البشر و خطبهم مثل هذا النظم فى هذا القدر، و ما يجمع ما تجمع هذه الآية من شريف المعانى و حسن الفاتحة و الخاتمة. ثم اتل ما بعدها من الآى، و اعرف وجه الخلوص من شىء إلى شىء؛ من

احتجاج إلی وعید، و من إعذار إلی إنذار، و من فنون من الأمر شتی، مختلفة تأتلف بشریف النظم، و متباعدة تتقارب بعلیّ الضم. ثم جاء إلی قوله: کَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ هَمَّتْ کُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِیَأْخُذُوهُ وَ جادَلُوا بِالْباطِلِ لِیُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَکَیْفَ کانَ عِقابِ وَ کَذلِکَ حَقَّتْ کَلِمَةُ رَبِّکَ عَلَی الَّذِینَ کَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ «۲» الآیة الأولی أربعة فصول، و الثانیة فصلان، وجه الوقوف علی شرف الکلام: أن تتأمل موقع قوله: وَ هَمَّتْ کُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِیَأْخُذُوهُ «۳» و هل تقع فی الحسن موقع قوله: لِیَأْخُذُوهُ «۴» کلمة؟ و هل تقوم مقامه فی الجزالة لفظة؟ و هل یسد مسده فی الأصالة نکتة؟ لو وضع موضع ذلک «لیقتلوه» أو «لیرجموه» أو «لینفوه» أو «لیطردوه» أو «لیهلکوه» أو «لیذلوه».؟ و نحو هذا ما کان ذلک بعیدا، و لا بارعا، و لا عجیبا، و لا بالغا. فانقد موضع هذه الکلمة، و تعلم بها ما تذهب إلیه من تخیر الکلام، و جمیل الألفاظ، و الاهتداء للمعانی. فإن کنت تقدر أن شیئا من هذه الکلمات التی عددناها علیک أو غیرها لا تقف بک علی غرضنا من هذا الکتاب، فلا سبیل لک إلی الوقوف علی تصاریف الخطاب، فافزع إلی التقلید، و أکف نفسک مئونة التفکیر. و إن فطنت فانظر إلی ما قال من رد عجز الخطاب إلی صدره بقوله: فَأَخَذْتُهُمْ فَکَیْفَ کانَ عِقابِ «۵» ثم ذکر عقیبها العذاب فی الآخرة، و اتلاها تلو العذاب فی الدنیا، علی الإحکام الذی رأیت. ثم ذکر المؤمنین بالقرآن، بعد ذکر المکذبین بالآیات و الرسل، فقال: الَّذِینَ

(______________________________
۱) آیة (۱: ۳) سورة غافر. (۲) آیة (۵، ۶) سورة غافر. (۳) سبقت. (۴) سبقت. (۵) سبقت. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۳۰ یَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ یُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ یُؤْمِنُونَ بِهِ «۱» إلی أن ذکر ثلاث آیات، و هذا کلام مفصول، تعلم عجیب اتصاله بما سبق و مضی، و انتسابه إلی ما تقدم و تقضی، و عظم موضعه فی معناه، و رفیع ما یتضمن من تحمیدهم و تسبیحهم. و حکایة کیفیة دعاء الملائکة بقوله: رَبَّنا وَسِعْتَ کُلَّ شَیْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً «۲». هل تعرف شرف هذه الکلمة لفظا و معنی؟ و لطیف هذه الحکایة، و تلاؤم هذا الکلام، و تشاکل هذا النظام. و کیف یهتدی إلی وضع هذه المعانی بشری؟ و إلی ترکیب ما یلائمها من الألفاظ إنسی، ثم ذکر ثلاث آیات فی أمر الکافرین علی ما تری، ثم نبه علی أمر القرآن و أنه من آیاته بقوله: هُوَ الَّذِی یُرِیکُمْ آیاتِهِ وَ یُنَزِّلُ لَکُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً وَ ما یَتَذَکَّرُ إِلَّا مَنْ یُنِیبُ «۳». و إنما ذکر هذین الأمرین اللذین یختص بالقدرة علیهما، لتناسبهما فی أنهما من تنزیله من السماء، و لأن الرزّاق الذی لو لم یرزق لم یکن بقاء النفس، تجب طاعته، و النظر فی آیاته. ثم قال: فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ وَ لَوْ کَرِهَ الْکافِرُونَ. رَفِیعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ یُلْقِی الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلی مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِیُنْذِرَ یَوْمَ التَّلاقِ. یَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا یَخْفی عَلَی اللَّهِ مِنْهُمْ شَیْءٌ لِمَنِ الْمُلْکُ الْیَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ «۴»، قف علی هذه الدلالة و فکر فیها، و راجع نفسک فی مراعاة معانی هذه الصفات العالیة و الکلمات السامیة، و الحکم البالغة، و المعانی الشریفة، تعلم ورودها عن الإلهیة، و دلالتها علی الربوبیة، و تتحقق أن الخطب المنقولة عنهم، و الأخبار المأثورة فی کلماتهم الفصیحة، من الکلام الذی تعلق به الهمم البشریة، و ما تحوم علیه الأفکار الآدمیة، و تعرف مباینتها لهذا الضرب من القول. أی خاطر یتشوف إلی أن یقول: یُلْقِی الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلی مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِیُنْذِرَ یَوْمَ التَّلاقِ. یَوْمَ هُمْ بارِزُونَ «۵» و أی لفظ یدرک هذا المضمار، و أی حکیم یهتدی إلی ما لهذا من الغور، و أی فصیح یهتدی إلی هذا النظم؟ ثم استقرئ الآیة إلی آخرها، و اعتبر کلماتها، و راع بعدها قوله: الْیَوْمَ تُجْزی کُلُّ نَفْسٍ بِما کَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْیَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِیعُ

(______________________________
۱) آیة (۷) سورة غافر. (۲) نفس الآیة. (۳) آیة (۱۳) سورة غافر. (۴) آیة (۱۴: ۱۶) سورة غافر. (۵) سبقت. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۳۱ الْیَوْمَ تُجْزی کُلُّ نَفْسٍ بِما کَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْیَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِیعُ الْحِسابِ «۱». من یقدر علی تألیف هذه الکلمات الثلاث علی قربها، و علی خفتها فی النظم و موقعها من القلب؟ ثم تأمل قوله: وَ أَنْذِرْهُمْ یَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَی الْحَناجِرِ کاظِمِینَ، ما لِلظَّالِمِینَ مِنْ حَمِیمٍ وَ لا شَفِیعٍ یُطاعُ. یَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْیُنِ وَ ما تُخْفِی الصُّدُورُ. وَ اللَّهُ یَقْضِی بِالْحَقِّ وَ الَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا یَقْضُونَ بِشَیْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِیعُ الْبَصِیرُ «۲». کل کلمة من ذلک ما قد وصفتها من أنه إذا رآها الإنسان فی رسالة کانت عینها، أو فی خطبة کانت وجهها، أو قصیدة کانت غرة غرتها،

و بيت قصيدتها، كالياقوتة التى تكون فريدة العقد، و عين القلادة و درة الشذر. إذا وقع بين كلام وشّحه، و إذا ضمّن فى نظام زيّنه، و إذا اعترض فى خطاب تميز عنه، و بان بحسنه منه. و لست أقول هذا لك فى آية دون آية، و سورة دون سورة، و فصل دون فصل، و قصة دون قصة، و معنى دون معنى؛ لأنى قد شرحت لك أن الكلام فى حكاية القصص و الأخبار، و فى الشرائع و الأحكام، و فى الديانة و التوحيد، و فى الحجج و التثبيت، هو خلاف الكلام فيما عدا هذه الأمور. أ لا ترى أن الشاعر المفلق إذا جاء إلى الزهد قصّر. و الأديب إذا تكلم فى بيان الأحكام و ذكر الحلال و الحرام لم يكن كلامه على حسب كلامه فى غيره ..؟ و نظم القرآن لا يتفاوت فى شىء، و لا يتباين فى أمر، و لا يختل فى حال. بل له المثل الأعلى، و الفضل الأسنى. و فيما شرحناه لك كفاية و فيما بيناه بلاغ. و نذكر فى الأحكاميات و غيرها آيات أخر منها قوله: يَسْئَلُونَكَ ما ذا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَ ما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَ اذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ «۳». أنت تجد فى هذه الآية من الحكمة و التصرف العجيب و النظم البارع ما يدل لك إن شئت على الإعجاز مع هذا الاختيار، و الإيجاز. فكيف إذا بلغ ذلك آيات و كانت سورة شئت على الإعجاز مع هذا الاختيار، و الإيجاز. فكيف إذا بلغ ذلك آيات و كانت سورة و نحو هذه الآية قوله: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ (______ ۱)

آية (۷) سورة غافر. (۲) آية (۱۸: ۲۰) سورة غافر. (۳) آية (۴) سورة المائدة. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۳۲ الْخَبائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ «۱» و كالآية التى بعدها فى التوحيد و إثبات النبوة كالآيات الثلاث فى المواريث. أى بارع يقدر على جمع أحكام الفرائض فى قدرها من الكلام؟ ثم كيف يقدر على ما فيها من بديع النظم؟ و إن جئت إلى آيات الاحتجاج كقوله تعالى: لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ. لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ «۲». و كالآيات فى التوحيد كقوله: هُوَ الْحَيُّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ «۳» و كقوله: تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً. الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً «۴» و كقوله: تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «۵» إلى آخرها، و كقوله: وَ الصَّافَّاتِ صَفًّا. فَالزَّاجِراتِ زَجْراً. فَالتَّالِياتِ ذِكْراً. إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ. رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ رَبُّ الْمَشارِقِ. إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ. وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ. لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ. دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ. إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ «۶» هذه من الآيات التى قال فيها اللّه تعالى ذكره: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ «۷». و انظر بعين عقلك، و راجع جلية بصيرتك، إذا تفكرت فى كل كلمة مما نقلناه إليك، و عرضناه عليك، ثم فيما ينتظم من الكلمات، ثم إلى أن يتكامل فصلا و قصة، أو يتم حديثا و سورة. لا، بل فكر فى جميع القرآن على هذا الترتيب، و تدبّره على نحو هذا التنزيل، فلم ندّع ما ادعيناه لبعضه، و لم نصف ما وصفناه إلا فى كلّه، و إن كانت الدلالة فى البعض أبين و أظهر، و الآية أكشف و أبهر.
(______ ۱) آية (۱۵۷) سورة الأعراف. (۲)

آية (۲۲، ۲۳) سورة الأنبياء. (۳) آية (۶۵) سورة غافر. (۴) آية (۱، ۲) سورة الفرقان. (۵) آية (۱) سورة الملك. (۶) آية (۱: ۱۰) سورة الصافات. (۷) آية (۸) سورة الزمر. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۳۳ و إذا تأملت على ما هديناك إليه، و وقفناك عليه، فانظر هل ترى وقع هذا النور فى قلبك و اشتماله على لبّك، و سريانه فى حسك، و نفوذه فى عروقك، و امتلاءك به إيقانا و إحاطة، و اهتداءك به إيمانا و بصيرة؟ أم هل تجد العرب يأخذ منك مأخذه من وجه. و الهزة تعمل فى جوانبك من لون، و الأريحيّة تستولى عليك من باب؟ و هل تجد الطرب يستفزّك للطيف ما فطنت له، و السرور يحركك من عجيب ما وقفت عليه، و تجد فى نفسك من

المعرفة التی حدثت لک عزّة، و فی أعطافک ارتیاحا و هزّة. و تری لک فی الفضل تقدما و تبریزا، و فی الیقین سبقا و تحقیقا، و تری مطارح الجهال تحت أقدام الغفلة، و مهاویهم فی ظلال القلة و الذلة، و أقدارهم بالعین التی یجب أن تلحظ بها مراتبهم، بحیث یجب أن ترتبها؟ هذا کله فی تأمل الکلام، و نظامه، و عجیب معانیه و أحکامه. فإن جئت إلی ما انبسط فی العالم من برکته و أنواره، و تمکن فی الآفاق من یمنه و أضوائه، و ثبت فی القلوب من إکباره و إعظامه، و تقرر فی النفوس من حتم أمره و نهیه. و مضی فی الدماء من مفروض حکمه، و إلی أنه جعل عماد الصلاة التی هی تلو الإیمان فی التأکید، و ثانیة التوحید فی الوجوب، و فرض حفظه، و وکل الصغار و الکبار بتلاوته، و أمر عند افتتاحه بما أمر به لتعظیمه من قوله: فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّیْطانِ الرَّجِیمِ «۱» لم یؤمر بالتعوذ لافتتاح أمر کما أمر به لافتتاحه، فهل یدلک هذا علی عظیم شأنه، و راجح میزانه، و عالی مکانه ..؟ و جملة الأمر أنّ نقد الکلام شدید، و تمییزه صعب. و مما کتب إلی الحسن بن عبد اللّه العسکری أخبرنی أبو بکر بن درید، قال: سمعت أبا حاتم یقول: سمعت الأصمعی یقول: فرسان الشعراء أقل من فرسان الحرب. و قال: سمعت أبا عمرو بن العلاء یقول: العلماء بالشعر أعز من الکبریت الأحمر. و إذا کان الکلام المتعارف المتداول بین الناس یشق تمییزه، و یصعب نقده، و یذهب عن محاسنه الکثیر، و ینظرون إلی کثیر من قبیحه بعین الحسن، و کثیر من حسنه بعین القبح. ثم یختلفون فی الأحسن منه اختلافا کثیرا، و تتباین آراؤهم فی تفضیل ما یفضل منه. فکیف لا یتحیرون فیما لا یحیط به علمهم، و لا یتأتی فی مقدورهم، و لا یمثل بخواطرهم؟ و قد حیّر القوم الذین لم یکن أحد أفصح منهم، و لا أتم بلاغة، و لا أحسن براعة، حتی دهشوا حین ورد علیهم، و ولهت عقولهم. و لم یکن عندهم فیه جواب غیر ضرب الأمثال، و التحرّض علیه، و التوهم فیه، و تقسیمه أقساما، و جعله عضین.

(____۱) آیة (۹۸) سورة النحل. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۳۴ و کیف لا یکون أحسن الکلام، و قد قال اللّه تعالی: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِیثِ کِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِیَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِینَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِینُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلی ذِکْرِ اللَّهِ، ذلِکَ هُدَی اللَّهِ یَهْدِی بِهِ مَنْ یَشاءُ وَ مَنْ یُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ «۱» استغنم فهم هذه الآیة، و کفاک. استفد علم هذه الکلمات، و قد أغناک، فلیس یوقف علی حسن الکلام بطوله، و لا تعرف براعته بکثرة فصوله. إن القلیل یدل علی الکثیر، و القریب قد یهجم بک علی البعید. ثم إنه سبحانه و تعالی لما علم من عظم شأن هذه المعرفة، و کبر محلها، و ذهابها علی أقوام، ذکر فی آخر هذه الآیة ما ذکر، و بیّن ما بیّن، فقال: ذلِکَ هُدَی اللَّهِ یَهْدِی بِهِ مَنْ یَشاءُ «۲» فلا یعلم ما وصفنا لک إلا بدایة من العزیز الحمید، و قال: وَ مَنْ یُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ «۳» و قال: یُضِلُّ بِهِ کَثِیراً وَ یَهْدِی بِهِ کَثِیراً «۴» و قد بسطنا لک القول، رجاء إفهامک. و هذا المنهاج الذی رأیته إن سلکته یأخذ بیدک، و یدلک علی رشدک، و یغنیک عن ذکر براعته، آیة، آیة لک. و اعلم أنا لم نقصد فیما سطرناه من الآیات، و سمیناه من السور و الدلالات، ذکر الأحسن و الأکشف و الأظهر؛ لأنا نعتقد فی کل سورة ذکرناها، أو أضربنا عن ذکرها، اعتقادا واحدا فی الدلالة علی الإعجاز، و الکفایة فی التمنع و البرهان. و لکن لم یکن بدّ من ذکر بعض، فذکرنا ما تیسر، و قلنا فیما اتجه فی الحال و خطر. و إن کنا نعتقد أن الإعجاز فی بعض القرآن أظهر، و فی بعض أدق و أغمض. و الکلام فی هذا الفصل یجیء بعد هذا. فاحفظ عنا فی الجملة ما کررنا، و السیر بعد ذلک فی التفصیل إلیک. و حصل ما أعطیناک من العلامة، ثم النظر علیک. قد اعتمدنا علی أن الآیات تنقسم إلی قسمین: أحدهما ما یتم بنفسه، أو بنفسه و فاصلته. فینیر فی الکلام إنارة النجم فی الظلام، و الثانی: ما یشتمل علی کلمتین أو کلمات إذا تأملتها وجدت کل کلمة منها فی نهایة البراعة، و غایة البلاغة. و إنما یبین ذلک بأن تتصور هذه الکلمة مضمّنة بین أضعاف کلام کثیر، أو خطاب طویل، فتراها ما بینها تدل علی نفسها، و تعلو علی ما قد قرن منها لعلو جنسها. فإذا ضمت إلی أخواتها، و جاءت فی ذواتها، أرتک القلائد منظومة، کما کانت تریک عند تأمل الأفراد

(____۱) آیة (۲۳) سورة الزمر. (۲) سبقت.

(۳) سبقت. (۴) آیة (۲۶) سورة البقرة. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۳۵ منها الیواقیت منثورة، و الجواهر مبثوثة. و لو لا ما أکره من

تضـمین القرآن فی الشعر لأنشـدتک ألفاظا وقعت مضـمّنة لتعلم کیف تلوح علیه، و کیف تری بهجتهـا فی أثنائه، و کیف تمتاز منه، حتی أنه لو تأمله من لم یقرأ القرآن، لتبین أنه أجنبی من الکلام الذی تضـمنه، و الباب الذی توسطه، و أنکر مکانه، و استکبر موضعه. ثم تناسبها فی البلاغة و الإبداع، و تماثلها فی السلاسة و الإغراب. ثم انفرادها بذلک الأسلوب، و تخصصها بذلک الترتیب. ثم سائر ما قدمنا ذکره مما نکره إعادته. و أنت تری غیره من الکلام یضطرب فی مجاریه، و یختل تصرفه فی معانیه، و یتفاوت التفاوت الکثیر فی طرقه، و یضیق به النطاق فی مذاهبه، و یرتبک فی أطرافه و جوانبه، و یسلمه للتکلف الوحشی کثرة تصرفه، و یحیله علی التصنع الظاهر موارد تنقله و تخلصه. و نظم القرآن فی مؤتلفه و مختلفه، و فی فصـله و وصـله، و افتتـاحه و اختتـامه، و فی کل نهـج یسـلکه، و طریق یأخـذ فیه، و باب یتهجم علیه، و وجه یؤمه علی ما وصـفه تعالی به، لا یتفاوت، کما قال: وَ لَوْ کانَ مِنْ عِنْدِ غَیْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِیهِ اخْتِلافاً کَثِیراً «۱» و لا یخرج عن تشابهه و تماثله کما قال: قُرْآناً عَرَبِیًّا غَیْرَ ذِی عِوَجٍ «۲» و کما قال: کِتاباً مُتَشابِهاً «۳» و لا یخرج عن إبانته کما قال: بِلِسانٍ عَرَبِیٍّ مُبِینٍ «۴» و غیره من الکلام کثیر التلون، دائم التغیر، یقف بک علی بـدیع مسـتحسن، و یعقبه قبیح مسـتهجن، و یطلع علیک بوجه الحسـناء، ثم یعرض للهجر بخـد القبیحة الشوهاء، و یأتیک باللفظة المسـتنکرة بین الکلمات التی هی کاللآلئ الزّهر. و قد یأتیک باللفظـة الحسـنة بین الکلمات البهم. قـد یقع إلیک منه الکلام المثبـج و النظم المشوّش، و الحدیث المشوّه. و قد تجد منه ما لا یتنـاسب و لا یتشابه، و لا یتآلف و لا یتماثل. و قـد قیل فی وصف ما جری هـذا المجری: و شـعر کبعر الکبش فرّق بینه لسان دعیّ فی القریض دخیـل و قـال آخر (______________________________: ۱) آیة (۸۲) سورة النساء. (۲) آیة (۲۸) سورة الزمر. (۳) آیة (۲۳) سورة الزمر. (۴) آیة (۱۹۵) سورة الشعراء. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۳۶ و بعض قریض القوم أولاـد علّة یکـدّ لسـان الناطق المتحفّظ فإن قال قائل: فقـد نجـد فی آیات القرآن ما یکون نظمه بخلاف ما وصـفت، و لا تتمیز الکلمات بوجه البراعـة، و إنما تکون البراعـة عنـدک منه فی مقدار یزید علی الکلمات المفردة، و حدّ یتجاوز حدّ الألفـاظ المسـتندة. و إن کـان الأـکثر علی مـا وصـفته به؟ قیـل له: نحن نعلم أن قوله: حُرِّمَتْ عَلَیْکُمْ أُمَّهـاتُکُمْ وَ بَنـاتُکُمْ وَ أَخَواتُکُمْ وَ عَمَّاتُکُمْ وَ خالاتُکُمْ «۱» إلی آخر الآیـة لیس من القبیل الـذی یمکن إظهار البراعة فیه و إبانة الفصاحة، و ذاک یجری عندنا مجری ما یحتاج إلی ذکره من الأسـماء و الألقاب، فلا یمکن إظهار البلاغـة فیه. فطلبها فی نحو هـذا ضـرب من الجهالـة، بل الذی یعتبر فی نحو ذلـک تنزیـل الخطاب، و ظهور الحکمـة فی الترتیب و المعنی. و ذلک حاصل فی هـذه الآیـة إن تأملت. أ لا تری أنه بـدأ بـذکر الأم، لعظم حرمتها، و إدلائها بنفسها، و مکان بعضیّتها، فهی أصل لکل من یدلی بنفسه منهن، لأنه لیس فی ذوات الأنساب أقرب منها. و لما جاء إلی ذوات الأسـباب ألحق بها حکم الأم من الرضاع، لأن الرحم ینشره اللبن بما یغـذوه. فیحصل بـذلک أیضا لها حکم البعضـیة، فنشـر الحرمـة بهـذا المعنی، و ألحقهـا بالوالـدة. و ذکر الأـخوات من الرضاعـة، فنبه بها علی کل من یـدلی بغیرها و جعلها تلو الأم من الرضاع. و الکلام فی إظهار حکم هـذه الآیة و فوائدها یطول، و لم نضع کتابنا لهذا. و سبیل هذا أن نذکره فی کتاب معانی القرآن إن سهـل اللّه لنـا إملاءه و جمعه، فلم تنفک هـذه الآیـة من الحکم التی تخلف حکمـة الإعجاز فی النظم و التألیف. و الفائـدة التی تنوب مناب العـدول عن البراعـة فی وجه الترصـیف. فقـد علم السائل أنه لم یأت بشـیء، و لم یهتد للأغراض فی دلالات الکلام، و فوائده و متصـرفاته و فنـونه و متوجهـاته. و قـد یتفـق فی الشـعر ذکر الأسـامی فیحسن مـوقعه، کقول أبی داود الأسـدی: إن یقتلوک فقـد ثللت عروشـهم بعتبة بن الحارث بن شـهاب بأشدهم کلبا علی أعدائه و أعزّهم فقدا علی الأصـحاب و قد یتفق ذکر الأسامی فیفسد النظم، و یقبـح الوزن. و الآیـات الأـحکامیـات التی لا بـد فیها من أمر البلاغـة، یعتبر فیها من الألفاظ ما یعتبر فی غیرها. و قـد یمکن فیها، و کل موضـع أمکـن ذلـک، فقـد وجـد فی القرآن فی بـابه مـا لیس علیـه مزیـد فی البلاغـة و عجیـب النظـم. (______________________________۱) آیـة (۲۳) سـورة النسـاء. إعجـاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۳۷ ثم فی جملـة الآیات ما إن لم تراع البـدیع البلیغ فی الکلمات الأفراد و الألفاظ الآحاد، فقد تجد ذلک مع ترکب الکلمتین و الثلاث. و یطرد ذلک فی الابتـداء و الخروج، و الفواصل، و ما یقع بین الفاتحـة و الخاتمـة من الواسـطة، أو باجتماع

ذلک أو فی بعض ذلک ما یخلف الإبداع فی أفراد الکلمات. و إن کانت الجملة و المعظم علی ما سبق الوصف فیه. و إذا عرف ما یجری إلیه الکلام، و ینهی إلیه الخطاب، و یقف علیه الأسلوب، و یختص به القبیل بان عند أهل الصنعة تمیّز بابه، و انفراد سبیله. و لم یشک البلیغ فی انتمائه إلی الجهة التی ینتمی إلیها، و لم یرتب الأدیب البارع فی انتسابه إلی ما عرف من نهجه. و هذا کما یعرف طریقه مترسّل فی رسالته، فهو لا یخفی علیه بناء قاعدته و أساسه، فکأنه یری أنه یعد علیه مجاری حرکاته و أنفاسه. و کذلک فی الشعر و اختلاف ضروبه، یعرف المتحقق به طبع کل أحد، و سبیل کل شاعر. و فی نظم القرآن أبواب کثیرة لم نستوفها، و تقصیها یطول، و عجائبها لا تنقضی. فمنها اللفظ و الإشارات. و إذا بلغ الکلام من هذا القبیل مبلغا ربما زاد الإفهام به علی الإیضاح، أو ساوی مواقع التفسیر و الشرح مع استیفائه شروطه، کان النهایة فی معناه، و ذلک کقوله: سُبْحانَ الَّذِی أَسْری بِعَبْدِهِ لَیْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَی الْمَسْجِدِ الْأَقْصَی الَّذِی بارَکْنا حَوْلَهُ لِنُرِیَهُ مِنْ آیاتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْبَصِیرُ «۱» فصول هذه الآیة و کلماتها علی ما شرحناه من قبل البلاغة و اللطف فی التقدم، و فی تضمن هذا الأمر العظیم، و المقام الکریم. و یتلو هذه قوله: وَ آتَیْنا مُوسَی الْکِتابَ وَ جَعَلْناهُ هُدیً لِبَنِی إِسْرائِیلَ «۲» هذا خروج، لو کان فی غیر هذا الکلام، لتصور فی صورة المنقطع. و قد تمثل فی هذا النظم لبراعته، و عجیب أمره، و موقع ما لا ینفک منه القول. و قد یتبرأ الکلام المتصل بعضه من بعض، و یظهر علیه التثبیج و التباین للخلل الواقع فی النظم. و قد تصوّر هذا الفصل للطفه وصلا، و لم یبن علیه تمیز الخروج. ثم انظر کیف أجری هذا الخطاب إلی ذکر نوح، و کیف أثنی علیه، و کیف یلیق صفته بالفاصلة، و یتم النظم بها، مع خروجها مخرج البروز من الکلام الأول إلی ذکره، و إجرائه إلی مدحه بشکره، و کونهم من ذریته یوجب علیهم أن یسیروا بسیرته، و أن یستنوا بسنته فی أن یشکروا

(۱) آیة (۱) سورة الإسراء. (۲) آیة (۲) سورة الإسراء. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۳۸ کشکره، و لا یتخذوا من دون اللّه وکیلا، و أن یعتقدوا تعظیم تخلیصه إیاهم من الطوفان لمّا حملهم علیه، و نجاهم فیه، حین أهلک من عداهم به. و قد عرفهم أنه إنما مؤاخذهم بذنوبهم و فسادهم فیما سلط علیهم من قبلهم و عاقبهم. ثم عاد علیهم بالإفضال و الإحسان حتی یتذکروا و یعرفوا قدر نعمة اللّه علیهم، و علی نوح الذی ولدهم، و هم من ذریته. فلما عادوا إلی جهالتهم و تمردوا فی طغیانهم، عاد علیهم بالتعذیب. ثم ذکر اللّه عز و جل فی ثلاث آیات بعد ذلک معنی هذه القصة، التی کانت لهم بکلمات قلیلة فی العدد، کثیرة الفوائد، لا یمکن شرحها إلا بالتفصیل الکثیر و الکلام الطویل. ثم لم یخل تضاعف الکلام مما تری من الموعظة علی أعجب تدرج، و أبدع تاریخ بقوله إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِکُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها «۱» و لم ینقطع بذلک الکلام. و أنت تری الکلام یتبدد مع اتصاله، و ینتشر مع انتظامه. فکیف بإلقاء ما لیس منه فی أثنائه، و طرح ما بعده فی أدراجه إلی أن خرج إلی قوله: عَسی رَبُّکُمْ أَنْ یَرْحَمَکُمْ وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنا «۲» یعنی إن عدتم إلی الطاعة عدنا إلی العفو، ثم خرج خروجا آخر إلی ذکر القرآن. و علی هذا فقس بحثک عن شرف الکلام، و ما له من علو الشأن، لا یطلب مطلبا إلا انفتح، و لا یسلک قلبا إلا انشرح، و لا یذهب مذهبا إلا استنار و أضاء، و لا یضرب مضربا إلا بلغ فیه السماء. لا تقع منه علی فائدة، فقدّرت أنها أقصی فوائدها إلا قصّرت. و لا تظفر بحکمة فظننت أنها زبدة حکمها إلا و قد أخللت. إن الذی عارض القرآن بشعر امرئ القیس «۳» لأضل من حمار أهله، و أحمق من هبنّقة، لو کان شعره کله کالأبیات المختارة التی قدمناها، لأوجب البراءة من قوله: و سنّ کسنّیق سناء و سنّم ذعرت بمدلاج الهجیر نهوض قال الأصمعی «۴»: لا أدری ما السنّ، و لا السنیق، و لا التسنم؟! و قال بعضهم: السنق أکمة، و قال فیها له قصریا عنز، و ساقا نعامة کفحل الهجان القیصری العضوض و قوله: عصافیر و ذبان و دود و أجرأ من مجلّحة الذّئاب

(۱) آیة (۷) سورة الإسراء. (۲) آیة (۸) سورة الإسراء. (۳) سبقت ترجمته. (۴) سبقت ترجمته. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۳۹ و زاد فی تقبیح ذلک وقوعه فی أبیات فیها: فقد طوّفت فی الآفاق حتّی رضیت من الغنیمة بالإیاب و کل مکارم الأخلاق صارت إلیه همّتی و به اکتسابی و کقوله فی قصیدة قالها فی نهایة السقوط: أزمان فوها کلما نبهتها کالمسک فاح و ظل فی القدّام أ فلا تری أظعانهنّ بواکرا کالنّخل من شوکان حین

صرام و كأن شاربها أصاب لسانه موم يخالط جسمه بسقام و كقوله: لم يفعلوا فعل آل حنظلة إنهم جير بئسما ائتمروا لا حميرىّ و فى و لا عدس و لا اس ت غير يحكّها الثّفر إن بنى عوف ابتنوا حسبا ضيّعه الداخلون إذ غدروا و كقوله: أبلغ شهابا و أبلغ هل أتاك الحيز مال إنا تركنا منكم قتلى بخوعى و سبيا كالسعالى يمشين بين رحالنا معترفات بجوع و هزال و لم يقع مثل ذلك له وحده فقد قال الأعشى «۱»: فأدخلك اللّه برد الجنان جذلان فى مدخل طيب و قال أيضا: فرميت غفلة عينه عن شأنه فأصبت حبة قلبها و طحالها و قال فى فرسه: و يأمر لليحموم كل عشيّة بقتّ و تعليق فقد كاد يسنق و قال: «شاو مشلّ شلول شلشل شول». و هذه الألفاظ فى معنى واحد و قد وقع لزهير «۲» نحوه كقوله: فأقسمت جهدا بالمنازل من منى و ما سحفت فيه المقاديم و القمل كيف يقال هذا فى قصيدة يقول فيهـــــا: و هـــــل ينبـــــت الخطى إلا وشـــــيجه و تغرس إلا فى منابتهـــــا النّخل

(____۱) سبقت ترجمته. (۲) سبقت ترجمته. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۴۰ و كقول الطرماح «۱»: سوف تدنيک من لميس سبنتا ة أمارت بالبول ماء الكراض السبنتاة: الناقة الصلبة. و الكراض: ماء الفحل. أسالت ماء الفحل مع البول فلم تعقد عليه، و لم تحمل فتضعف. و المائر: السائل. فإن قال قائل: أجدک تحاملت على امرئ القيس، و رأيت أن شعره يتفاوت بين اللين و الشراسة، و بين اللطف و الشكاسة، و بين التوحش و الاستئناس، و التقارب و التباعد. و رأيت الكلام الأعدل أفضل، و النظام المستوثق أكمل، و أنت تجد البحترى «۲» يسبق فى هذا الميدان، و يفوت الغاية فى هذا الشأن. و أنت ترى الكتاب يفضلون كلامه على كل كلام، و يقدمون رأيه فى البلاغة على كل رأى. و كذلک تجد لأبى نواس من بهجة اللفظ، و دقيق المعنى ما يتحير فيه أهل اللفظ، و يقدمه الشطار و الظرف على كل شاعر، و يرون لنظمه روعة لا يرون لنظم غيره، و زبرجا لا يتّفق لسواه. فكيف يعرف فضل ما سواه عليه؟ فالجواب أن الكلام فى أن الشعر لا يجوز أن يوازن به القرآن و قد تقدم. و إذ كنا قد بينا أن شعر امرئ القيس و هو كبيرهم الذى يقرون بتقدمه، و شيخهم الذى يعترفون بفضله، و قائدهم الذى يأتمون به، و إمامهم الذى يرجعون إليه. كيف سبيله؟ و كيف طريق منزلته عن منزلة نظم القرآن؟ و إنه لا يخلط بشعره غبار ذلک النظم. و هو إذا لحظ ذلک كان كما قال: فأصبحت من ليلى الغداة كناظر مع الصبح فى إعجاز نجم مغرّب و كما قال أيضا: راحت مشرقة و رحت مغرّبا فمتى التقاء مشرق و مغرّب و إذا كنا قد أبّنّا فى القاعدة ما علمت، و فصلنا لک فى شعره ما عرفت، لم نحتج إلى أن نتكلم على شعر شاعر، و كلام كل بليغ. و القليل يدل على الكثير. و قد بيّنا فى الجملة مباينة أسلوب نظم القرآن جميع الأساليب، و مزيته عليها فى النظم و الترتيب، و تقدمه عليها فى كل حكمة و براعة. ثم تكلمنا على التفصيل على ما شهدت، و لا يبقى علينا بعد ذلک سؤال (____. ۱)

الطرماح هو: ابن حكيم من طى، كان من فحول الشعراء الإسلاميين و فصحائهم، نشأ فى الشام، و انتقل إلى الكوفة بعد ذلک، و اعتقد مذهب الشراة و الأزارقة. مات سنة (۱۰۰ ه). له ترجمة فى: خزانة الأدب ۳/ ۴۱۸. و الأغانى ۱۰/ ۱۵۶، و الجمهرة (۱۹۰). (۲) سبقت ترجمته. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۴۱ ثم نقول أنت تعلم أن من يقول بتقدم البحترى فى الصنعة، به من الشغل فى تفضيله على ابن الرّومى، أو تسوية ما بينهما ما لا يطمع معه فى تقديمه على امرئ القيس و من فى طبقته. و كذلک أبو نواس إنما يعدل شعره بشعر أشكاله، و يقابل كلامه بكلام أضرابه من أهل عصره. و إنما يقع بينهم التباين اليسير و التفاوت القليل. فأما يظنّ ظانّ أو يتوهم متوهم أن جنس الشعر معارض لنظم القرآن فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِی بِهِ الرِّيحُ فِی مَكانٍ سَحِيقٍ «۱» و إنما هى خواطر يغير بعضها على بعض، و يقتدى فيها بعض ببعض، و الغرض الذى يرمى إليه و يصح التوافى عليه، فى الجملة، فهو قبيل متداول، و جنس متنازع، و شريعة مورودة، و طريقة مسلوكة. أ لا ترى إلى ما روى عن الحسين «۲» بن الضحاک قال: أنشدت أبا نواس «۳» قصيدتى التى فيها: و شاطرىّ اللسان مختلق التّيک ريه زان المجون بالنّسک كأنه نصب كأنه قمر يكرع فى بعض أنجم الفلک قال: فأنشدنى أبو نواس بعد أيام قصيدته التى يقول فيها: أعاذل أعتبت الإمام و اعتبا و أعربت عما فى الضمير و أعربا و قلت لساقيها أجزها فلم أكد لیأبى أمير المؤمنين و أشربا فجوّزها عنى عقارا ترى لها إلى الشّرف الأعلى شعاعا مطنبا إذا عبّ فيها شارب

القوم خلّته یقبّل فی داج من اللیل کوکبا قال: فقلت له: یا أبا علی هـذه مقالتی، فقال: أ تظن أنه یروی لک معنی و أنا حی ..؟ فتأمل هـذا الأخذ، و هذا الوضع، و هذا الاتباع. أما الخلیع فقد رأی الإبداع فی المعنی. فأما العبارات فإنها لیست علی ما ظنّه؛ لأن قوله: یکرع لیس بصحیح، و فیه ثقل بیّن و تفاوت، و فیه إحالة؛ لأن القمر لا یصح تصوّرا أن یکرع فی نجم. و أما قول أبی نواس: إذا عب فیها، فکلمة قد قصد فیها المتانة، و کان سبیله أن یختار

(____۱) آیة (۲۱) سورة الحج. (۲) الحسین بن الضحاک، ولد فی البصرة، و نشأ فیها، و نادم الخلفاء من بنی العباس، و کان خلیعا فاسدا، و هو أول من نادم الأمین، و له فیه مدائح کثیرة. مات سنة (۲۵۰ ه). له ترجمة فی: الأغانی ۶/ ۱۷۰، و وفیات الأعیان ۱/ ۱۵۴، و شذرات الذهب ۲/ ۱۲۳. (۳) سبقت ترجمته. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۴۲ سواها من ألفاظ الشرب، و لو فعل ذلک کان أملح. و قوله شارب القوم فیه ضرب من التکلف الذی لا بد له منه، أو من مثله، لإقامة الوزن. ثم قوله: «خلته یقبل فی داج من اللیل کوکبا» تشبیه بحالة واحدة من أحواله، و هی أن یشرب حیث لا ضوء هناک، و إنما یتناوله لیلا فلیس بتشبیه مستوفی علی ما فیه من الوقوع و الملاحة. و قد قال ابن الرومی «۱» ما هو أوقع منه و أملح و أبدع: و مهفهف تمّت محاسنه حتی تجاوز منیة النّفس تصبو الکئوس إلی مراشفه و نحن فی یده إلی الحبس أبصرته و الکأس بین فم منه و بین أنامل خمس و کأنها و کأن شاربها قمر یقبّل عارض الشمس و لا شک فی أن تشبیه ابن الرومی أحسن و أعجب، إلا أنه تمکن من إیراده فی بیتین و هما مع سبقهما إلی المعنی أتیا به فی بیت واحد. و إنما أردت بهذا أن أعرفک أن هذه أمور متقاربة، یقع فیها التنافس و التعارض و الأطماع، متعلقة بها، و الهمم تسمو إلیها. و هی ألف طباعنا، و طوع مدارکنا، و مجانس لکلامنا. و إعجاب قوم بنحو هذا و ما یجری مجراها، و إیثار أقوام لشعر البحتری علی أبی تمام، و عبد الصمد، و ابن الرومی، و تقدیم قوم کل هؤلاء أو بعضهم علیه، و ذهاب قوم عند التفرقة لیس بأمر یضرّ بنا، و لا سبب یعترض علی أفهامنا. و نحن نعمد إلی بعض قصائد البحتری فنتکلم علیها کما تکلمنا علی قصیدة امرئ القیس، لیزداد الناظر فی کتابنا بصیرة، و یستخلص من سر المعرفة سریرة، و یعلم کیف تکون الموازنة، و کیف تقع المشابهة و المقاربة، و نجعل تلک القصیدة التی نذکرها أجود شعره. سمعت الصّاحب إسماعیل بن عباد یقول: سمعت أبا الفضل بن العمید یقول: سمعت أبا مسلم الرّستمی یقول: سمعت البحتری یذکر أن أجود شعر قاله: «أهلا بذلکم الخیال المقبل». قال: و سمعت أبا الفضل بن العمید یقول: أجود شعره هو قوله: «فی الشیب زجر له لو کان ینزجر (____». ۱) سبقت ترجمته. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۴۳ قال: و سئلت عن ذلک فقلت: البحتری أعرف بشعر نفسه من غیره. فنحن الآن نقول فی هذه القصیدة ما یصلح فی مثل هذا قوله: أهلا بذلکم الخیال المقبل فعل الذی نهواه أو لم یفعل برق سری فی بطن وجرة فاهتدت بسناه أعناق الرّکاب الضّلّل البیت الأول فی قوله: ذلکم الخیال، ثقل روح، و تطویل و حشو، و غیره أصلح له، و أخف منه قول الصّنوبری: أهلا بذاک الزّور من زور شمس بدت فی فلک الدّور و عذوبة الشعر تذهب بزیادة حرف أو نقصان حرف، فیصیر إلی الکزازة، و تعود ملاحته بذلک ملوحة، و فصاحته عیا، و براعته تکلفا، و سلاسته تعسفا، و ملامسته تلویا و تعقدا. فهذا فصل و فیه شیء آخر، و هو: أن هذا الخطاب إنما یستقیم مهما خوطب به الخیال، حال إقباله. فأما أن یحکی الحال التی کانت و سلفت علی هذه العیادة، ففیه عهدة. و فی ترکیب الکلام عن هذا المعنی عقدة، و هو لبراعته و حذقه فی هذه الصنعة یعلق نحو هذا الکلام، و لا ینظر فی عواقبه، لأن ملاحة قوله تغطی علی عیون الناظرین فیه نحو هذه الأمور. ثم قوله: «فعل الذی نهواه أو لم یفعل» لیست بکلمة رشیقة، و لا لفظة ظریفة، و إن کانت کسائر الکلام. فأما بیته الثانی فهو عظیم الموقع فی البهجة و بدیع المأخذ، حسن الرواء، أنیق المنظر و المسمع، یملأ القلب و الفهم و یفرح الخاطر. و تری بشاشته فی العروق، و کان البحتری یسمی نحو هذه الأبیات: «عروق الذهب». و فی نحوه ما یدل علی براعته فی الصناعة، و حذقه فی البلاغة. و مع هذا کله فیه ما نشرحه من الخلل، مع الدیباجة الحسنة، و الرونق الملیح. و ذلک أنه جعل الخیال کالبرق لإشراقه فی مسراه، کما یقال: إنه یسری کنسیم الصبا فیطیب ما مر به. کذلک یضیء ما مر حوله و ینور ما مر به. و هذا

غلوّ فی الصنعة، إلا أن ذکره: «بطن و جرة» حشو، و فی ذکره خلل؛ لأن النور القلیل یؤثر فی بطون الأرض و ما اطمأن منها، بخلاف ما یؤثر فی غیرها. فلم یکن من سبیله أن یربط ذلک ببطن وجرة، و تحدیده المکان علی الحشو أحمد من تحدید امرئ القیس من ذکر: «سقط اللوی بین الدخول فحومل، فتوضح فالمقراة» لم یقنع بذکر حد حتی حده بأربع حدود. کأنه یرید بیع المنزل، فیخشی إن أخل بحد أن یکون بیعه فاسدا أو شرطه باطلا- فهذا باب. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۴۴ ثم إنما یذکر الخیال بخفاء الأثر و دقة المطلب و لطف المسلک. و هذا الذی ذکر یضاد هذا الوجه، و یخالف ما یوضع علیه أصل الباب. و لا یجوز أن یقدر مقدر أن البحتری قطع الکلام الأول و ابتدأ بذکر برق لمع من ناحیة حبیبه، من جهة بطن و جرة، لأن هذا القطع إن کان فعله کان خارجا به عن النظم المحمود، و لم یکن مبدعا. ثم کان لا تکون فیه فائدة، لأن کل برق شعل و تکرر وقع الاهتداء به فی الظلام. و کان لا یکون بما نظمه مفیدا، و لا متقدما، و هو علی ما کان من مقصده، فهو ذو لفظ محمود، و معنی مستحب غیر مقصود. و یعلم بمثله أنه طلب العبارات، و تعلیق القول بالإشارات. و هذا من الشعر الحسن الذی یحلو لفظه و تقل فوائده کقول القائل: و لما قضینا من منی کل حاجة و مسّح بالأرکان من هو ماسح و شدّت علی حدب المهاری رحالنا و لا ینظر الغادی الذی هو رائح أخذنا بأطراف الأحادیث بیننا و سالت بأعناق المطیّ الأباطح هذه ألفاظ بعیدة المطالع و المقاطع، حلوة المجانی و المواقع، قلیلة المعانی و الفوائد. فأما قول البحتری بعد ذلک: من غادة منعت و تمنع نیلها فلو أنها بذلت لنا لم تبذل کالبدر غیر مخیل و الغصن غ یر ممیل و الدّعص غیر مهیّل فالبیت الأول علی ما تکلف فیه من المطابقة و تجشم الصنعة ألفاظه أوفر من معانیه، و کلماته أکثر من فوائده. و تعلم أن القصد وضع العبارات فی مثله. و لو قال: هی ممنوعة مانعة، کان ینوب عن تطویله، و تکثیره الکلام و تهویله ثم هو معنی متداول مکرر علی کل لسان. و أما البیت الثانی فأنت تعلم أن التشبیه بالبدر و الغصن و الدعص أمر منقول متداول و لا فضیلة فی التشبیه بنحو ذلک. و إنما یبقی تشبیهة ثلاثة أشیاء فی البیت، و هذا أیضا قریب لأن المعنی مکرر و یبقی له بعد ذلک شیء آخر، و هو تعلمه للترصیع فی البیت کله. إلا أن هذه الاستثناءات فیها ضرب من التکلف، لأن التشبیه بالغصن کاف. فإذا زاد فقال کالغصن غیر معوج، کان ذلک من باب التکلف خللا- و کان ذلک زیادة یستغنی عنها. و کذلک قوله: کالدعص غیر مهیل، لأنه إذا انهال خرج عن أن یکون مطلق التشبیه مصروفا إلیه. فلا- یکون لتقییده معنی و أما قوله: ما الحسن عندک یا سعاد بمحسن فیما أتاه و لا- الجمال بمجمل إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۴۵ عذل المشوق و إن من سیما الهوی فی حیث یجهله لجاج العذّل قوله فی البیت الأول: عندک حشو. و لیس بواقع و لا بدیع، و فیه کلفة. و المعنی الذی قصده أنت تعلم أنه متکرر علی لسان الشعراء. و فیه شیء آخر لأنه یذکر أن حسنا لم یحسن فی تهییج وجده، و تهییم قلبه. و ضد هذا المعنی هو الذی یمیل إلیه أهل الهوی و الحب. و بیت کشاجم أسلم من هذا و أبعد من الخلل و هو قوله: بحیاة حسنک أحسنی، و بحق من جعل الجمال علیک وقفا أجملی و أما البیت الثانی فإن قوله: فی حیث حشا بقوله: فی، و وقع ذلک مستنکرا وحشیا نافرا عن طبعه، جافیا فی وضعه، فهو کرقعة من جلد فی دیباج حسن. فهو یمحو حسنه، و یأتی علی جماله. ثم فی المعنی شیء، لأن لجاج العذل لا- یدل علی هوی مجهول و لو کان مجهولا- لم یهتد. و العذل علیه، فعلم أن المقصد استجلاب العبارات دون المعانی. ثم لو سلم من هذا الخلل، لم یکن فی البیت معنی بدیع و لا شیء یفوت قول الشعراء فی العذل، فإن ذلک جملهم الذلول، و قولهم المکرر، و أما قوله: ما ذا علیک من انتظار متیم؟ بل ما یضرّک وقفة فی منزل؟ إن سیل عیّ عن الجواب فلم یطق رجعا فکیف یکون إن لم یسأل؟ لست أنکر حسن البیتین و ظرفهما، و رشاقتهما و لطفهما و ماءهما و بهجتهما، إلا أن البیت الأول منقطع عن الکلام المتقدم ضربا من الانقطاع، لأنه لم یجر لمشافهة العاذل ذکر، و إنما جری ذکر العذّال علی وجه لا یتصل هذا البیت به و لا یلائمه. ثم الذی ذکره من الانتظار و إن کان ملیحا فی اللفظ فهو فی المعنی متکلف، لأن الواقف فی الدار لا- ینتظر أمرا، و إنما یقف تحسرا و تذللا و تحیرا. و الشطر الأخیر من البیت واقع، و الأول مستجلب، و فیه تعلیق علی أمر لم یجر له ذکر. لأن وضع البیت یقتضی تقدم عذل علی الوقوف، و لم یحصل ذلک مذکورا فی شعره من قبل. و أما البیت الثانی: فإنه معلق بالأول لا یستقل إلا به. و هم یعیبون وقوف البیت علی غیره، و یرون أن البیت التام هو المحمود، و المصراع التام بنفسه بحیث لا یقف

على المصراع الآخر أفضل و أتم و أحسن. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۴۶ و قوله: فكيف يكون إن لم يسأل، مليح جدا، و لا تستمر ملاحة ما قبله عليه، و لا يطرد فيه الماء اطراده فيه. و فيه شيء آخر، لأنه لا يصلح أن يكون السؤال سببا لأن يعيا عن الجواب. و ظاهر القول يقتضيه، فأما قوله: لا تكلفنّ لى الدموع فإن لى دمعا ينمّ عليه إن لم يفضل و لقد سكنت إلى الصدود من النوى و الشّرى أرى عند طعم الحنظل و كذاك طرفه حين أوجس ضربة فى الرأس هان عليه فصد الأكحل فالبيت الأول مخالف لما عليه مذهبهم فى طلب الإسعاد بالدموع و الإسعاف بالبكاء. و مخالف لأول كلامه لأنه يفيد مخاطبة العذل. و هذا يفيد مخاطبة الرفيق. و قد بينت لك أن القوم يسلكون حفظ الألفاظ و تصنيعها دون ضبط المعانى و ترتيبها. و لذلك قال اللّه عز و جل: وَ الشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ. أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ. وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ «۱» فأخبر أنهم يتبعون القول حيث توجه بهم، و اللفظ كيف أطاعهم، و المعانى كيف تتبع ألفاظهم. و ذلك خلاف ما وضع عليه الإبانة عن المقاصد بالخطاب. و لذلك كان طلب الفصاحة فيه أسهل و أمكن، فصار بهذا أبلغ خطابهم. ثم لو أن هذا البيت و ما يتلوه من البيتين سلم من نحو هذا، لم يكن فى ذلك شيء يفوت شعر شاعر، أو كلام متكلم. و أما قوله: و الشرى أرى، فإنه و إن كان قد تصنع له من جهة الطباق، و من جهة التجنيس المقارب، فهى كلمة ثقيلة على اللسان، و هم يذمون نحو هذا. كما عابوا على أبى تمام قوله: كريم متى أمدحه أمدحه و الورى معى و متى ما لمته لمته وحدى ذكر لى الصاحب بن عباد: أنه جارى أبا الفضل بن العميد فى محاسن القصيدة، حتى انتهى إلى هذا البيت، فذكر له أن قوله: أمدحه، أمدحه، معيب لثقله من جهة تدارك حروف الحلق. ثم رأيت بعد ذلك المتقدمين قد تكلموا فى هذه النكتة، فعلمت أن ذلك شيء عند أهل الصنعة معروف. ثم إن قوله: عند أكل الحنظل ليس بحسن و لا واقع.

(____۱) آية (۲۲۴: ۲۲۶) سورة الشعراء.

إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۴۷ و أما البيت الثالث فهو أجنبى من كلامه، غريب فى طباعه، نافر من جملة شعره، و فيه كزازة و فجاجة، و إن كان المعنى صالحا. فأما قوله: و أغرّ فى الزمن البهيم محجّل قد رحت منه على أغرّ محجّل كالهيكل المبنيّ إلا أنه فى الحسن جاء كصورة فى هيكل فالبيت الأول لم يتفق له فيه خروج حسن، بل هو مقطوع عما سلف من الكلام. و عامّة خروجه نحو هذا، و هو غير بارع فى هذا الباب، و هذا مذموم معيب منه، لأن من كان صناعته الشعر و هو يأكل به، و تغافل عما يدفع إليه فى كل قصيدة، و استهان بأحكامه و تجويده مع تتبعه لأن يكون عامة ما يصدر به أشعاره من النسيب عشرة أبيات، و تتبعه للصنعة الكثيرة، و تركيب العبارات و تنقيح الألفاظ و تزويرها، كان ذلك أدخل فى عيبه، و أدل على تقصيره أو قصوره، و إنه لا يقع له الخروج منه. و أما قوله: «و أغرّ فى الزمن البهيم محجل» فإن ذكر التحجيل فى الممدوح قريب، و ليس بجيد. و قد يمكن أن يقال: بأنه إذا قرن بالأغر حسن و جرى مجراه، و انخرط فى سلكه، و أهوى إلى مضماره، و لم ينكر لمكانه من جواره. فهذا عذر، و العدول عنه أحسن. و إنما أراد أن يرد العجز على الصدر، و يأتى بوجه فى التجنيس. و فيه شيء؛ لأن ظاهر كلامه يوهم أنه قد صار ممتطى الأغر الأول، و رائحا عليه. و لو سلم من ذلك لم يكن فيه ما يفوت حدود الشعراء و أقاويل الناس. فأما ذكر الهيكل فى البيت الثانى و رده عجز البيت عليه، و ظنه أنه قد ظفر بهذه اللفظة، و عمل شيئا حتى كررها، فهى كلمة فيها ثقل، و نحن نجدهم إذا أرادوا أن يصنعوا نحو هذا قالوا: ما هو إلا صورة، و ما هو إلا تمثال، و ما هو إلا دمية، و ما هو إلا ظبية، و نحو ذلك من الكلمات الخفيفة على القلب و اللسان. و قد استدرك هو أيضا على نفسه فذكر أنه كصورة فى هيكل، و لو اقتصر على ذكر الصورة و حذف الهيكل كان أولى و أجمل. و لو أن هذه الكلمة كررها أصحاب العزائم على الشياطين لراعوهم بها و أفزعوهم بذكرها و ذلك من كلامهم، و شبيه بصناعتهم، و أما قوله: وافى الضّلوع يشدّ عقد حزامه يوم اللقاء على معمّ مخول أخواله للرّستمين بفارس و جدوده للتّبعين بموكل نبل المحزم مما يمدح به الخيل، فهو لم يأت فيه ببديع. و قوله: يشد عقد حزامه داخل فى التكلف، و التعسف لا يقبل من مثله. و إن قبلناه من غيره لأنه يتتبع الألفاظ و ينقدها نقدا شديدا. فهلا قال: يشد حزامه، أو يأتى بحشو آخر سوى العقد. فقد عقد هذا إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۴۸ البيت بذكر العقد. ثم قوله: «يوم اللقاء» حشو آخر لا يحتاج إليه. و أما البيت الثانى: فمعناه أصلح من ألفاظه، لأنها غير مجانسة لطباعه،

و فيها غلظ و نفار و أما قوله: يهوى كما تهوى العقاب و قد رأت صيدا و ينقض انقضاض الأجدل متوجس برقيقتين كأنما تريان من ورق عليه موصل ما إن يعاف قذى و لو أوردته يوما خلائق حمدويه الأحول البيت الأول صالح و قد قاله الناس، و لم يسبق إليه، و لم يقل ما لم يقولوه، بل هو منقول. و فى سرعة عدو الفرس تشبيهات ليس هذا بأبدعها، و قد يقولون: يفوت الطرف و يسبق الريح، و يجارى الوهم، و يكدّ النظر، و لو لا أن الإتيان على محاسن ما قالوه فى ذلك يخرج الكلام عن غرض الكتاب، نقلت لك جملة مما ذهبوا إليه فى هذا المعنى، فتتّبع تعلم أنه لم يأت فيها بما يجل عن الوصف، أو يفوت منتهى الحد. على أن الهوىّ يذكر عند الانقضاض خاصة، و ليس للفرس هذه الصفة فى الحقيقة إلا أن يشبه جده فى العدو بحالة انقضاض البازى و العقاب. و ليست تلك الحالة بأسرع أحوال طيرانها. و أما البيت الثانى فقوله: إن الأذنين كأنهما من ورق موصل، و إنما أراد بذلك حدتهما، و سرعة حركتهما، و إحساسهما بالصوت، كما يحس الورق بحفيف الريح. و ظاهر التشبيه غير واقع، و إذا ضمن ما ذكرنا من المعنى كان المعنى حسنا. و لكن لا يدل عليه اللفظ، و إنما يجرى مجرى المضمن. و ليس هذا البيت برائق اللفظ، و لا مشاكل فيه لطيفة غير قوله: متوجس برقيقتين. فإن هذا القدر هو حسن. و أما البيت الثالث: فقد ذكرنا فيما مضى من الكتاب أنه من باب الاستطراد، و نقلنا نظائر ذلك من قول أبى تمام و غيره. و قطعة أبى تمام فى نهاية الحسن فى هذا المعنى. و الذى وقع للبحترى فى هذا البيت عندى ليس يجيد فى لفظ و لا معنى. و هو بيت وحش جدا، قد صار قذى فى عين هذه القصيدة، بل وخزا فيها و وبالا عليها، قد كدر صفاءها، و أذهب بهاءها و ماءها، و طمس بظلمته سناها. و ما وجه مدح الفرس بأنه لا يعاف قذى من المياه إذا وردها؟ كأنه أراد أن يسلك مسلك بشار فى قوله: «و لا يشرب الماء إلا بدم» و إذا كان لهذا الباب مجانبا، و عن هذا السمت بعيدا، فهلا وصفها بعزة الشرب كما وصفها المتنبى فى قوله: وصول إلى المستصعبات بخيله فلو كان قرن الشمس ماء لأوردا إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۴۹ و هلا سلك فيه مسلك القائل: و إنى للماء الذى شابه القذى إذا كثرت ورّاده لعيوف ثم قوله: «و لو أردته يوما حشو بارد» ثم قوله: «حمدويه الأحول» وحش جدا فما أمقت هذا البيت و أبغضه و ما أثقله و أسخفه. و إنما غطى على عينه عيبه، و زين له إيراده طمعه فى الاستطراد. و هلا طمع فيه على وجه لا يفض من بهجة كلامه، و لا معنى ألفاظه. فقد كان يمكن ذلك و لا يتعذر. فأما قوله: ذنب كما سحب الرداء يذبّ عن عرف و عرف كالقناع المسبل تتوهم الجوزاء فى أرساغه و البدر فوق جبينه المتهلل فالبيت الأول: وحش الابتداء، منقطع عما سبق من الكلام. و قد ذكرنا أنه لا يهتدى لوصل الكلام و نظام بعضه إلى بعض. و إنما يتصنع لغير هذا الوجه، و كان يحتاج أن يقول: ذنب كالرداء، فقد حذف الوصل غير متسق و لا مليح، و كان من سبيله أن لا يخفى عليه، و لا يذهب عن مثله. ثم قوله: «كما سحب الرداء» قبيح فى تحقيق التشبيه، و ليس بواقع و لا مستقيم فى العبارة إلا على إضمار أنه ذنب يسحبه كما يسحب الرداء. و قوله: «يذب عن عرف» ليس بحسن و لا صادق، و المحمود ما ذكره امرؤ القيس و هو قوله: «فويق الأرض ليس بأعزل» و أن قوله: «تتوهم الجوزاء فى أرساغه» فهو تشبيه مليح، و لكنه لم يسبق إليه و لا انفرد به. و لو نسخت لك ما قاله الشعراء فى تشبيه الغرة بالهلال، و البدر و النجم، و غير ذلك من الأمور، و تشبيه الحجول، لتعجبت من بدائع قد وقعوا عليها، و أمور مليحة قد ذهبوا إليها. و ليس ذلك موضع كلامنا، فتتبع ذلك فى أشعارهم تعلم ما وصفت لك. و اعلم أنا تركنا بقية كلامه فى وصف الفرس، لأنه ذكر عشرين بيتا فى ذلك. و الذى ذكرناه فى هذا المعنى يدل على ما بعده، و لا يعدو ما تركناه أن يكون متوسطا إلى حد لا يفوت طريقة الشعراء. و لو تتبعت أقاويل الشعراء فى وصف الخيل علمت أنه و إن جمع فأوعى و حشر فنادى، ففيهم من سبقه فى ميدانه، و منهم من ساواه فى شأوه، و منهم من داناه. فالقبيل واحد، و النسيج متشاكل، و لو لا كراهة التطويل، لنقلت جملة من أشعارهم فى ذلك لتقف على ما قلت. فتجاوزنا إلى الكلام على ما قاله فى المدح فى هذه القصيدة قال: لمحمد بن علىّ الشرف الذى لا يلحظ الجوزاء إلا من عل و سحابة لو لا تتابع مزنها فينا لراح المزن غير مبخّل إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۵۰ و الجود يعذله عليه حاتم سرفا و لا جود لمن لم يعذل البيت الأول منقطع عما قبله، على ما وصفنا به شعره: من قطعه المعانى، و فصله بينها، و قلة تأنيه لتجويد الخروج و الوصل. و ذلك نقصان فى الصناعة، و تخلف فى البراعة، و هذا إذا وقع فى مواضع قليلة عذر فيها. و أما إذا كان بناء الغالب من

کلامه على هـذا فلا عـذر له. و أما المعنى الـذى ذکره فلیس بشـیء مما سـبق إلیه. و هو شـیء مشترک فیه. و قـد قالوا فی نحوه و إن مجـده سـماء المساء، و قالوا فی نحوه الکثیر الـذى یصـعب نقل جمیعه، و کما قال المتنبی: و عزمـهٔ بعثتها همّهٔ زحل من تحتها بمکان الترب من زحل و حـدثنی إسـماعیل بن عباد أنه رأى أبا الفضل بن العمیـد قام لرجل قال لمن حضـره: أ تدرى من هذا؟ هو الذى قال فیه أبیه البحترى: «لمحمـد بن القاسم الشـرف الذى». فذلک یدل على اسـتعظامه للمیت بما مدح به من البیت. و البیت الثانى فى تشبیه جوده بالسـحاب قریب. و هو حـدیث مکرر لیس ینفک مدیح شاعر منه. و کان من سبیله أن یبدع فیه زیادهٔ إبداع کما قد یقع لهم فی نحو هذا. و لکنه لم یتصنع له و أرسله إرسالا. و قد وقع فی المصراع الثانی ضرب من الخلل، و ذلک أن المزن إنما یبخل إذا منع نیله. فـذلک موجود فی کل نیل ممنوع، و کلاهما محمود مع الإسـعاف. فإن أسـعف أحدهما و منع الآخر لم یمکن التشبیه. و إن کان إنما شبه غالب أحدهما بالآخر. و ذکر قصور أحدهما عن صاحبه، حتى أنه قد یبخل فى وقت و الآخر لا یبخل بحال، فهذا جید و لیس فی حمـل الألفـاظ على الإشـارهٔ إلى هـذا شـیء. و البیت الثـالث: و إن کـان معناه مکررا فلفظه مضـطرب بالتأخیر و التقـدیم. یشـبه ألفاظ المبتدئین و أما قوله: فضل و إفضال و ما أخذ المدى بعد المدى کالفاضل المتفضّل سار إذا ادّلج العفاهٔ إلى الندى لا یصـنع المعروف غیر معجّـِل فـالبیت الأـول منقطع عمـا قبله، و لیس فیه شـیء غیر التجنیس، الـذى لیس ببـدیع لتکرره على کـل لسـان. و قوله: ما أخذ المـدى فإنه لفظ ملیـح و هو کقول القائل: «قد أرکب الآلهٔ بعد الآلهٔ»، و روى: «الحالهٔ بعد الحالهٔ». إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۵۱ و کقول امرئ القیس: «سـموّ حبـاب المـاء حالاـ على حـال» و لکنها طریقـهٔ مذلّلـهٔ. فهو فیها تابع. و أما البیت الثانى فقریب فی اللفظ و المعنى. و قوله: «لا یصـنع المعروف» لیس بلفظ محمود، و أما قوله: عال على نظر الحسود کأنما جذبته أفراد النجوم بأحبل أو ما رأیت المجد ألقى رحله فی آل طلحهٔ ثمّ لم یتحوّل فالبیت الأول منکر جدا فی جر النجوم بالأرسان موضـعه إلى العلو. و التکلف فیه واقع. و البیت الثـانى أجنبى عنه، بعیـد منه. و افتتاحه ردیء، و ما وجه الاسـتفهام و التقریر و الاسـتبانهٔ و التوقیف؟ و البیتان أجنبیان من کلامه، غریبان فی قصـیدته، و لم یقع له فی المدح فی هذه القصـیدهٔ شـیء جید. أ لا ترى أنه قال بعد ذلک: نفسی فداؤک یا محمد من فتى یوفی على ظلم الخطوب فتنجلی إنی أریـد أبا سـعید و العدا بینی و بین سـحابه المتهلّل کأن هذا لیس من طبعه و لا من سـبکه و قوله: مضـر الجزیرهٔ کلّها و ربیعهٔ ال خابور توعدنی و أزد الموصل قد جدت بالطرف الجواد فثنه لأخیک من أدد أبیک بمنصل البیت الأول حسن المعنى، و إن کانت ألفاظه بذکر الأماکن لا یتأتى فیه التحسـین. و هذا المعنى قد یمکن إیراده بأحسن من هذا اللفظ و أبدع منه و أرق منه کقوله: إذا أغضـبت علیک بنو تمیم رأیت الناس کلّهم غضابا و البیت الثانى قـد تعذر علیه وصـله بما سـبق من الکلام على وجه یلطف، و هو قبیـح اللفظ، حیث یقول فیه: فثنّه لأخیک من أدد أبیک. و من آخـذه بهذا التعرض لهذا السـجع و ذکر هذا النسـب حتى أفسد به شـعره. و أما قوله بعد ذلک فی وصف السیف یقول: یتناول الروح البعید مثالها عفوا و یفتح فی القضاء المقفل بإبانهٔ فی کـل حتف مظلم و هدایـهٔ فی کـل نفس مجهل ماض و إن لم تمضه یـد فارس بطل و مصـقول و إن لم یصـقل لیس لفظ البیت الأول بمضاه لدیباجـهٔ شـعره، و لا له بهجـهٔ نظمه، لظهور أثر التکلف علیه، و تبین ثقل فیه. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۵۲ و أما «القضاء المقفـل» و فتحه، فکلاـم غیر محمود و لاـ مرضـی! و اسـتعارهٔ لو لم یسـتعرها کـانت أولى به! و هلّا عیب علیه کما عیب على أبی تمام قوله: فضـربت فی أخـدعیه ضـربهٔ غادرته عودا رکوبا و قالوا: یسـتحق بهـذه الاسـتعارهٔ أن یصـفع فی أخـدعیه! و قـد اتبعه البحترى فی اسـتعارهٔ الأخـدع ولوعا باتباعه، فقال فی الفتـح: و إنی و قد بلغتنی الشـرف العلی و أعتقت من ذلّ المطامع أخدعی إن شـیطانه، حیث زین له هذه الکلمهٔ، تابعه حین حسن عنده هذه اللفظهٔ، لخبیث مارد و ردیء معاند، أراد أن یطلق أعنهٔ الذم فیه، و یسرّح جیوش العتب إلیه. و لم یقع بقفل القضاء، حتى جعل للحتف ظلمـهٔ تجلى بالسـیف، و جعل السـیف هادیا فی النفس المجهل الذى لا یهتدى إلیه! و لیس فی هذا مع تحسین اللفظ و تنمیقه شیء. لأن السلاح و إن کان معیبا فإنه یهتدى إلى النفس. و کان یجب أن یبدع فی هذا إبداع المتنبی فی قوله: کـأنّ إلهـام فی الهیجـا عیون و قـد طبعت سـیوفک من رقـاد و قـد صـغت الأسـنهٔ من هموم فمـا یخطرن إلاـ فی فؤاد فالاهتداء على هذا الوجه فی التشبیه بدیع حسن، و فی البیت الأول شـیء آخر، و ذلک أن قوله: «و یفتح فی القضاء» فی هذا الموضع

حشو ردیء یلحق بصاحبه اللکنة، و یلزمه الهجنة. أما البیت الثالث: فإنه أصلح هذه الأبیات. و إن کان ذکر الفارس حشوا و تکلفا و لغوا. لأن هذا لا یتغیر بالفارس و الراجل. علی أنه لیس فیه بدیع، و أما قوله: یغشی الوغی و التّرس بجنة من حدّه و الدّرع لیس بمعقل مصغ إلی حکم الردی فإذا مضی لم یلتفت، و إذا قضی لم یعدل متوقد یبری بأوّل ضربة ما أدرکت، و لو أنها فی یذبل البیتان الأولان من الجنس الذی یکثر کلامه علیه، و هی طریقه الذی یجتنبها، و ذلک من السبک الکتابی، و الکلام المعتدل. إلا أنه لم یبدع فیها بشیء، و قد زید علیه فیها و من قصد إلی أن یکمل عشرة أبیات فی وصف السیف فلیس من حکمه أن یأتی بأشیاء منقولة، و أمور مذکورة. و سبیله أن یغرب و یبدع کما أبدع المتنبی فی قوله: سلّه و الرکض بعد وهن بنجد فتصدّی للغیث أهل الحجاز إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۵۳ هذا فی باب صقاله، و أضوائه و کثرة مائه، و کقوله: ریان لو قذف الذی أسقیته لجری من المهجات بحر مزبد و قوله: «مصغ إلی حکم الردی إن تأملته» مقلوب کان ینبغی أن یقول یصغی الردی إلی حکمه کما قال الآخر: «فالسیف یأمر و الأقدار تنتظر». و قوله: «و إذا قضی لم یعدل» متکرر علی ألسنتهم فی الشعر خاصة فی نفس هذا المعنی. و البیت الثالث سلیم، و هو کالأولین فی خلوه عن البدیع، فأما قوله: فإذا أصاب فکلّ شیء مقتل و إذا أصیب فما له من مقتل و کأنما سود النمال و حمرها دبّت بأید فی قراه و أرجل البیت الأول یقصد به صنیعة اللفظ، و هو فی المعنی متفاوت، لأن المضرب قد لا یکون مقتلا. و قد یطلق الشعراء ذلک، و یرون أن هذا أبدع من قول المتنبی، و إنه بضده: یقتل السیف فی جشم القتیل به و للسّیوف کما للنّاس آجال و هذه طریقة لهم یتمدحون بها فی قصف الرمح طعنا، و تقطیع السیف ضربا، و فی قوله: «و إذا أصیب فما له من مقتل»، تعسف لأنه یرید بذلک أنه لا یتکسر. فالتعبیر بما عبر به عن المعنی الذی ذکرناه یتضمن ضربا من التکلف، و ضربا من المحال. و لیس بالنادر، و الذی علیه الجملة ما حکیناه عن غیره و نحوه. قال بعض أهل الزمان: یقصّف فی الفارس السّمهریّ و صدر الحسام فریقا فریقا البیت الثانی أیضا: هو معنی مکرر علی ألسنة الشعراء، و أما تصنیعه بسود النمال و حمرها، فلیس بشیء؛ و لعله أراد بالحمر الذّرّ. و التفصیل باردا! و الإعراب به منکرا! و هو کما حکی عن بعضهم أنه قال: کان کذا حین کانت الثریا بحذاء رأسی علی سواء، أو منحرفا قدر شبر أو نصف شبر، أو إصبع أو ما یقارب ذلک. فقیل له: هذا من الورع الذی یبغضه اللّه، و یمقته الناس، و رب زیادة کانت نقصانا. وصفه النمل بالسواد و الحمرة فی هذا من ذلک الجنس، و علیه خرج بقیة البیت فی قوله: «دبّت بأید فی قراه و أرجل». و کان یکفی ذکره الأرجل عن ذکر الأیدی، و وصف الفرند بمدبّ النمل شیء لا یشذّ عن أحد منهم، و أما قوله: و کأن شاهره إذا استضوی به الزّ حفان یعصی بالسّماک الأعزل حملت حمائله القدیمة بقلة من عهد عاد غضّة لم تذبل البیت الأول منهما فیه ضرب من التکلف، و هو منقول من أشعارهم و ألفاظهم، و إنما إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۵۴ یقول: «قمر یشد علی الرجال بکوکب» فجعل ذلک الکوکب السماک و احتاج إلی أن یجعله أعزل للقافیة. و لو لم یحتج إلی ذلک کان خیرا له؛ لأن هذه الصفة فی هذا الموضع تفضه من الموضع. و موضع التکلف الذی ادعیناه الحشو الذی ذکره من قوله: «إذا استضوی به الزحفان». و کان یکفی أن یقول کان صاحبه یعصی بالسماک، و هذا و إن کان قد تعمل فیه للفظ، فهو لغو علی ما بینا. و أما البیت الثانی. ففیه لغو من جهة قوله: حمائله قدیمة، و لا فضیلة له فی ذلک. ثم تشبیه السیف بالبقلة من تشبیهات العامة، و الکلام الرّذل النّذل؛ لأن العامة قد یتفق منها تشبیه واقع حسن. ثم انظر إلی هذا المقطع الذی هو بالعیّ أشبه منه بالفصاحة، و إلی اللکنة أقرب منه إلی البراعة. و قد بینا أن مراعاة الفواتح، و الخواتم، و المطالع، و المقاطع، و الفصل، و الوصل بعد صحة الکلام، و وجود الفصاحة فیه، مما لا بد منه. و أن الإخلال بذلک یخل بالنظم، و یذهب رونقه، و یحیل بهجته، و یأخذ ماءه و بهاءه. و قد اطلعت علیک فیما نقلت، و تکلفت ما سطرت، لأن هذا القبیل، قبیل موضوع متعمل مصنوع. و أصل الباب فی الشعر علی أن ینظر إلی جملة القصة، ثم یتأمل الألفاظ و لا ینظر بعد ذلک إلی مواقعها و لا یتأمل مطارحها، و قد یقصد تارة إلی تحقیق الأغراض و تصویر المعانی التی فی النفوس. و لکنه یلحق بأصل بابه، و یمیل بک إلی موضعه، و یحسب الاهتمام بالصنعة یقع فیها التفاضل. و إن أردت أن تعرف أوصاف الفرس فقد ذکرت لک أن الشعراء قد تصرفوا فی ذلک بما یقع إلیک إن کنت من أهل الصنعة، مما یطول علی نقله، و کذلک فی السیف. و ذکر لی بعض أهل الأدب أن أحسن قطعة فی

السیف قول أبی الهول الحمیری: حاز صمصامة الزّبیدی من بی ن جمیع الأنام موسی الأمین سیف عمرو و کان فیما سمعنا خیر ما أطبقت علیه الجفون أخضر اللّون بین بردیه حدّ من ذعاف تمیس فیه المنون أوقدت فوقه الصواعق نارا ثمّ شابت له الذّعاف القیون فإذا ما شهرته بهر الشّم س ضیاء فلم تکد تستبین یستطیر الأبصار کالقبس المش عل لا تستقیم فیه العیون و کأنّ الفرند و الرّونق الجا ری فی صحفتیه ماء معین إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۵۵ نعم مخراق ذی الحفیظة فی الهی جاء یعصی به و نعم القرین ما یبالی إذا انتحاه بضرب أ شمال سطت به أم یمین و إنما یوازن شعر البحتری بشعر شاعر من طبقته، و من أهل عصره، و من هو فی مضماره، أو فی منزلته، و معرفته أجناس الکلام، و الوقوف علی أسراره، و الوقوع علی مقداره شیء. و إن کان عزیزا، و أمر و إن کان بعیدا فهو سهل علی أهله، مستجیب لأصحابه، مطیع لأربابه، ینقدون الحروف، و یعرفون الصروف، و إنما یتقی الشبهة فی ترتیب الحال بین البحتری و أبی تمام و ابن الرومی و غیره. و نحن و إن کنا نفضل البحتری بدیباجة شعره علی ابن الرومی و غیره من أهل زمانه، و نقدمه بحسن عبارته و سلاسة کلامه، و عذوبة ألفاظه، و قلة تعقد قوله. و الشعر قبیل ملتمس مستدرک، و أمر ممکن منطبع. و نظم القرآن عال عن أن یعلق به الوهم، أو یسمو إلیه الفکر، أو یطمع فیه طامع، أو یطلبه طالب. لا یَأْتِیهِ الْباطِلُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِیلٌ مِنْ حَکِیمٍ حَمِیدٍ «۱» و کنت قد ذکرت لک قبل هذا أنک إن کنت بصنعة علم اللسان متدربا، و فیه متوجها متقدما، أمکنک الوقوف علی ما ذکرنا، و النفوذ فیما وصفنا. و إلا فاجلس فی مجلس المقلدین، و ارض بمواقف المتحیرین. و نصحت لک حیث قلت؛ انظر، هل تعرف عروق الذهب، و محاسن الجوهر، و بدائع الیاقوت، و دقائق السحر، من غیر معرفة بأسباب هذه الأمور و مقدماتها؟ و هل یقطع سمت البلاد من غیر اهتداء فیها؟ و لکل شیء طریق یتوصل إلیه به، و باب یؤخذ نحوه فیه، و وجه یؤتی منه. و معرفة الکلام أشد من المعرفة بجمیع ما وصفت لک، و أغمض و أدق و ألطف. و تصویر ما فی النفس و تشکیل ما فی القلب حتی تعلمه و کأنک مشاهده و إن کان قد یقع بالإشارة و یحصل بالدلالة و الإمارة، کما یحصل بالنطق الصریح، و القول الفصیح. فللإشارة أیضا مراتب، و للسان منازل. رب وصف یصور لک الموصوف کما هو علی جهته، لا خلف فیه. و رب وصف یربو علیه و یتعداه و رب وصف یقصر عنه. ثم إذا صدق الوصف انقسم إلی صحة و إتقان، و حسن و إحسان، و إلی إجمال و شرح، و إلی استیفاء و تقریب، و إلی غیر ذلک من الوجوه. و کل مذهب و طریق له باب و سبیل، فوصف الجملة الواقعة کقوله تعالی:

(______________________________۱) آیة (۴۲) سورة فصلت. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۵۶ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَیْهِمْ لَوَلَّیْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً «۱» و التفسیر کقوله: وَ یَوْمَ نُسَیِّرُ الْجِبالَ وَ تَرَی الْأَرْضَ بارِزَةً وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً «۲» إلی آخر الآیات فی هذا المعنی. و کنحو قوله: یا أَیُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّکُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَیْءٌ عَظِیمٌ. یَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ کُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ کُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها، وَ تَرَی النَّاسَ سُکاری وَ ما هُمْ بِسُکاری وَ لکِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِیدٌ «۳» هذا مما یصور الشیء علی جهته و یمثل أهوال ذلک الیوم، و مما یصور لک الکلام الواقع فی الصفة کقوله حکایة عن السحرة، لما توعدهم فرعون بما توعدهم به حین آمنوا قالوا: إِنَّا إِلی رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ. إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ یَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطایانا أَنْ کُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِینَ «۴». و قال فی موضع آخر: إِنَّا إِلی رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ. وَ ما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآیاتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا، رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَیْنا صَبْراً وَ تَوَفَّنا مُسْلِمِینَ «۵» و هذا ینبئ عن کلام الحزین لما ناله، الجازع لما مسه. و من باب التسخیر و التکوین قوله تعالی: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ «۶» و قوله: فَقُلْنا لَهُمْ کُونُوا قِرَدَةً خاسِئِینَ «۷» و کقوله: فَأَوْحَیْنا إِلی مُوسی أَنِ اضْرِبْ بِعَصاکَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَکانَ کُلُّ فِرْقٍ کَالطَّوْدِ الْعَظِیمِ «۸» و تقصی أقسام ذلک مما یطول، و لم أقصد استیفاء ذلک، و إنما ضربت لک المثل بما ذکرت لتستدل، و أشرت إلیک بما أشرت لتتأمل. و إنما اقتصرنا علی ذکر قصیدة البحتری لأن الکتاب یفضلونه علی أهل دهره، و یقدمونه علی من فی عصره. و منهم من یدّعی له الإعجاز غلوا، و یزعم أنه یناجی النجم فی قوله علوا. و الملحدة تستظهر بشعره، و تتکثر بقوله، و تدّعی کلامه من شبهاتهم، و عباراته مضافا إلی ما عندهم من ترهاتهم. فبیّنا قدر درجته، و موضع رتبته، و حد کلامه.

(______________________________۱) آیة (۱۸) سورة الکهف. (۲) آیة

(۴۷) سورة الکهف. (۳) آیة (۱، ۲) سورة الحج. (۴) آیة (۵۱، ۵۲) سورة الشعراء. (۵) آیة (۱۲۵، ۱۲۶) سورة الأعراف. (۶) آیة (۸۲) سورة یس. (۷) آیة (۶۵) سورة البقرة. (۸) آیة (۶۳) سورة الشعراء. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۵۷ و هیهات أن یکون المطموع فیه کالمیئوس منه. و أن یکون اللیل کالنهار، و الباطل کالحق، و کلام رب العالمین ککلام البشـر. فإن قال قائل: فقد قدح الملحد فی نظم القرآن، و ادّعی علیه الخلل فی البیـان، و أضـاف إلیه الخطـأ فی المعنی و اللفـظ، و قـال مـا قال فهل من فصل؟ قیل: الکلام علی مطاعن الملحدة فی القرآن، مما قد سـبقنا إلیه، و صـنّف أهل الأدب فی بعضه فکفوا. و أتی المتکلمون علی ما وقع إلیهم فشـفوا، و لو لاـ ذلـک لاستقصـینا القـول فیه فی کتابنـا. و أمـا الغرض الـذی صـنفنا فیه فی التفصـیل و الکشف عن إعجـاز القرآن، فلم نجـده علی التقریب الذی قصدنا، و قد رجونا أن یکون ذلک مغنیا و وافیا، و إن سـهّل اللّه لنا ما نویناه من إملاء معانی القرآن، ذکرنا فی ذلک ما یشتبه من الجنس الـذی ذکروه، لأـن أکثر مـا یقع من الطعن علیه، فإنما یقع علی جهل القوم بالمعانی أو بطریقـة کلام العرب. و لیس ذلک من مقصود کتابنا هذا، و قد قال النبی صـلّی اللّه علیه و سـلّم: (فضل کلام اللّه علی سائر الکلام کفضل اللّه علی خلقه) «۱» و قد قصـدنا فیمـا أملینـاه الاختصار، و مهـدنا الطریق، فمن کمل طبعه للوقوف علی فصل أجناس الکلام اسـتدرک ما بینا، و من تعـذر علیه الحکم بین شـعر جریر و الفرزدق و الأخطل، و الحکم بین فضل زهیر و النابغة أو الفضل بین البحتری و أصـحابه، و لم یعرف سـخف مسیلمة فی نظمه، و لم یعلم أنه من الباب الذی یهزأ به و یسـخر منه کشـعر أبی العیس فی جملة الشـعر، و شـعر علی بن صلاة فکیف یمکنه النظر فیما وصـفنا، و الحکم علی ما بینا؟ فإن قال قائل: فاذکر لنا من هؤلاء الشـعراء الذین سـمیتهم الأشعر، و الأبلغ، قیل له: هذا أیضا خارج عن غرض هـذا الکتاب، و قد تکلم فیه الأدباء و یحتاج أن یجدد لنحو هذا کتاب، و یفرد له باب، و لیس من قبیل ما نحن فیه بسبیل. و لیس لقائل أن یقول: قـد یسـلم بعض الکلام من العوارض و العیوب، و یبلغ أمـده فی الفصاحة و النظم العجیب، و لا یبلغ عنـدکم حد المعجز، فلم قضـیتم بما قضـیتم به فی القرآن دون غیره من الکلام؟ و إنما لم یصح هذا السؤال، و ما نذکر فیه من أشـعار فی نهایـــة الحســـن، و خطـــب (____ ۱)

الترمذی (۲۹۲۶)، و الترغیب ۲/ ۴۳۵، و الأسـماء و الصفات (۲۳۸)، و فتـح الباری ۹/ ۶۶، و القرطبی ۱/ ۴. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۵۸ و رسائل فی غایة الفضل، لأنا قد بینا أن هذه الأجناس قد وقع النزاع فیها، و المساماة علیها، و التنافس فی طرقها، و التنافر فی بابها. و کان البون بین البعض و البعض فی الطبقـة الواحـدة قریبا، و التفاوت خفیفا، و ذلک القـدر من السبق إن ذهب عند الواحد لم ییأس منه البـاقون، و لم ینقطع الطمع فی مثله. و لیس کـذلک سـمت القرآن، لأـنه قـد عرف أن الوهم ینقطع دون مجاراته، و الطمع یرتفع عن مباراته و مساماته، و أن الکل فی العجز عنه علی حد واحد. و کذلک قد یزعم زاعمون أن کلام الجاحظ من السـمت الذی لا یأخـذ فیه، و الباب الـذی لا یـذهب عنه. و أنت تجـد قوما یرون کلامه قریبا و منهاجه معیبا، و نطاق قوله ضـیقا حتی یسـتعین بکلام غیره، و یفرغ إلی ما یوشـح به کلامه من بیت سائر، و مثل نادر، و حکمـة ممهـدة منقولـة، و قصـة عجیبة مأثورة. و أما کلامه فی أثناء ذلـک فسطور قلیلـة و ألفـاظ یسیرة، فإذا أحوج إلی تطویل الکلام خالیا عن شـیء یسـتعین به فیخلطه بقوله من قول غیره کان کلاما ککلاـم غیره. فـإن أردت أن تحقق هـذا، فانظر فی کتبه فی نظم القرآن، و فی الرد علی النصاری، و فی خبر الواحـد، و غیر ذلک مما یجری هـذا المجری. هـل تجـد فی ذلـک کله ورقـة تشـتمل علی نظم بـدیع؟ أو کلام ملیـح؟ علی أن متأخری الکتاب قـد نازعوه فی طریقته. و جاذبوه علی منهجه. فمنهم من ساواه حین ساماه، و منهم من أبر علیه إذا باراه. هذا أبو الفضل بن العمید قد سلک مسلکه، و أخذ طریقه، فلم یقصـر عنه، و لعله قد بان تقدمه علیه لأنه یأخذ فی الرسالة الطویلة فیستوفیها علی حدود مذهبه، و یکملها علی شروط صنعته، و لا یقتصـر علی أن یأتی بالأسـطر من نحو کلامه، کما تری الجاحظ یفعله فی کتبه، متی ذکـر من کلامه سـطرا اتبعه من کلام الناس أوراقا. و إذا ذکر منه صـفحة بنی علیه من قول غیره کتابا. و هذا یدلک علی أن الشـیء إذا استحسن اتبع، و إذا استملح قصد له و تعمّـد، و هـذا الشـیء یرجع إلی الأخـذ بالفضل و التنافس فی التقدم. فلو کان فی مقدور البشـر معارضة القرآن لهذا الغرض وحده، لکثرت المعارضات، و دامت المنافسات. فکیف و هناک دواع لا انتهاء لها، و جوالب لا حد لکثرتها؛ لأنهم لو کانوا عارضوه لتوصـلوا

إلی تکذیبه، ثم إلی قطع المحامین دونه عنه، أو تنفیرهم علیه، و إدخال الشبهات علی قلوبهم. و کان القوم یکتفون بذلک عن بذل النفوس، و نصب الأرواح، و الأخطار بالأموال و الذراری فی وجه عدواته. و یستغنون بکلام هو طبعهم و عادتهم و صناعتهم عن إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۵۹ محاربته، و طول منافسته و مجاذبته. و هذا الذی عرضناه علی قلبک یکفی إن هدیت لرشدک. و یشفی إن دللت علی قصدک، و نسأل اللّه حسن التوفیق و العصمة و التسدید، إنه لا معرفة إلا بهدایته، و لا عصمة إلا بکفایته، و هو علی ما یشاء قدیر، و حسبنا اللّه و نعم الوکیل.

فصل: فی جوانب إعجاز القرآن

اشارة

فصل: فی جوانب إعجاز القرآن فإن قال قائل: قد یجوز أن یکون أهل عصر النبی صلّی اللّه علیه و سلّم قد عجزوا عن الإتیان بمثل القرآن، و إن کان من بعدهم من أهل الأعصار لم یعجزوا، قیل: هذا سؤال معروف، و قد أجیب عنه بوجوه، منها ما هو صواب، و منها ما فیه خلل. لأن من کان یجیب عنه بأنهم لا یقدرون علی معارضته فی الإخبار عن الغیوب، إن قدروا علی مثل نظمه، فقد سلّم المسألة. لأنا ذکرنا أن نظمه معجز لا یقدر علیه. فإذا أجاب بما قدمناه فقد وافق السائل عن مراده، و الوجه أن یقال: فیه طرق، منها أنا إذا علمنا أن أهل ذلک العصر کانوا عاجزین عن الإتیان بمثله، فمن بعدهم أعجز؛ لأن فصاحة أولئک فی وجوه ما کانوا یتفننون فیه من القول، مما لا یزید علیه فصاحة من بعدهم، و أحسن أحوالهم أن یقاربوهم أو یساووهم. فأمّا أن یتقدموهم أو یسبقوهم فلا. و منها أنا قد علمنا عجز أهل سائر الأعصار کعلمنا بعجز أهل العصر الأول. و الطریق فی العلم بکل واحد من الأمرین طریق واحد، لأن التحدی فی الکل علی جهة واحدة، و التنافر فی الطباع علی حد. و التکلف علی منهاج لا یختلف. و لذلک قال اللّه تبارک و تعالی: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلی أَنْ یَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا یَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ کانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیراً «۱»

التحدی

التحدی یجب أن تعلم أنّ من حکم المعجزات إذا ظهرت علی الأنبیاء أن یدّعوا فیها أنها من دلالتهم و آیاتهم، لأنه لا یصح بعثة النبی من غیر أن یؤتی دلالة، و یؤیّد بآیة. لأن النبی لا یتمیز من الکاذب بصورته، و لا بقول نفسه، و لا بشیء آخر سوی البرهان الذی یظهر علیه، فیستدل به علی صدقه. فإذا ذکر لهم أن هذه آیتی، و کانوا عاجزین عنها، صح له ما ادعاه. و لو کانوا غیر عاجزین عنها، لم یصح أن یکون برهانا له (______________________________ ۱) آیة (۸۸) سورة الإسراء. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۶۱ و لیس یکون ذلک معجزا إلا بأن یتحداهم إلی أن یأتوا. فإذا تحداهم و بان عجزهم صار ذلک معجزا. و إنما احتیج فی باب القرآن إلی التحدی؛ لأن من الناس من لا یعرف کونه معجزا، فإنما یعرف أولا إعجازه بطریقه، لأن الکلام المعجز لا یتمیز من غیره بحروفه و صورته. و إنما یحتاج إلی علم و طریق یتوصل به إلی معرفة کونه معجزا. فإن کان لا یعرف بعضهم إعجازه فیجب أن یعرف هذا، حتی یمکنه أن یستدل به. و متی رأی أهل ذلک اللسان قد عجزوا عنه بأجمعهم مع التحدی إلیه و التقریع به، و التمکین منه، صار حینئذ بمنزلة من رأی الید البیضاء، و انقلاب العصا ثعبانا تتلقف ما یأفکون. و أما ما کان من أهل صنعة العربیة، و التقدم فی البلاغة، و معرفة فنون القول، و وجوه المنطق، فإنه یعرف حین یسمعه عجزه عن الإتیان بمثله. و یعرف أیضا أهل عصره ممن هو فی طبقته، أو یدانیه فی صناعته عجزهم عنه. فلا یحتاج إلی التحدی حتی یعلم به کونه معجزا. و لو کان أهل الصنعة الذین صفتهم ما بینا لا یعرفون کونه معجزا حتی یعرفوا عجز غیرهم عنه، لم یجز أن یعرف النبی صلّی اللّه علیه و سلّم أن القرآن معجز، حتی یری عجز قریش عنه بعد التحدی إلیه. و إذا عرف عجز قریش لم یعرف عجز سائر العرب

عنه حتی ینتهی إلی التحدی إلی أقصاهم، و حتی یعرف عجز مسیلمة الکذاب عنه. ثم یعرف حینئذ کونه معجزا. و هذا القول إن قیل أفحش ما یکون من الخطأ. فیجب أن تکون منزلة أهل الصنعة فی معرفة إعجاز القرآن بأنفسهم منزلة من رأی الید البیضاء، و فلق البحر، بأن ذلک معجز. و أما من لم یکن من أهل الصنعة، فلا بد له من مرتبة قبل هذه المرتبة، یعرف بها کونه معجزا، فیساوی حینئذ أهل الصنعة، فیکون استدلالها فی تلک الحالة به علی صدق من ظهر ذلک علیه سواه، إذا ادعاه، دلالة علی نبوته، و برهانا علی صدقه. فأما من قدّر أن القرآن لا یصیر معجزا إلا بالتحدی إلیه، فهو کتقدیر من ظن أن جمیع آیات موسی و عیسی علیهما السلام، لیست بآیات حتی یقع التحدی إلیها و الحض علیها، ثم یقع العجز عنها فیعلم حینئذ أنها معجزات. و قد سلف من کلامنا فی هذا المعنی ما یغنی عن الإعادة. و یبین ما ذکرناه فی غیر البلیغ أن الأعجمی الآن لا یعرف إعجاز القرآن إلا بأمور زائدة علی الأعجمی الذی کان فی ذلک الزمان مشاهدا له. لأن من هو من أهل العصر یحتاج أن یعرف أولا أن العرب عجزوا عنه. و إنما یعلم عجزهم عنه بنقل الناقلة إلیه، أنّ النبی صلّی اللّه علیه و سلّم قد تحدی العرب إلیه، فعجزوا عنه. و یحتاج فی النقل إلی شروط و لیس یصیر القرآن بهذا إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۶۲ النقل معجزا. کذلک لا یصیر معجزا بأن یعلم العربی الذی لیس ببلیغ أنهم قد عجزوا عنه بأبلغهم، بل هو معجز فی نفسه. و إنما طریق معرفة هذا وقوعهم علی العلم بعجزهم عنه.

قدر المعجز من القرآن

قدر المعجز من القرآن الذی ذهب إلیه عامة أصحابنا، و هو قول أبی الحسن الأشعری فی کتبه، أن أقل ما یعجز عنه من القرآن السورة قصیرة کانت أو طویلة، أو ما کان بقدرها. قال: فإذا کانت الآیة بقدر حروف سورة، و إن کانت سورة الکوثر فذلک معجز. قال: و لم یقم دلیل علی عجزهم عن المعارضة فی أقل من هذا القدر. و ذهبت المعتزلة إلی أن کل سورة برأسها فهی معجزة. و قد حکی عنهم نحو قولنا، إلا أن منهم من لم یشترط کون الآیة بقدر السورة بل شرط الآیات الکثیرة. و قد علمنا أنه تحداهم تحدیا إلی السور کلها، و لم یخصّ. و لم یأتوا الشیء منها بمثل. فعلم أن جمیع ذلک معجز. و أما قوله عز و جل: فَلْیَأْتُوا بِحَدِیثٍ مِثْلِهِ «۱» فلیس بمخالف لهذا. لأن الحدیث التام لا تتحصل حکایته فی أقل من کلمات سورة قصیرة. و هذا یؤکد ما ذهب إلیه أصحابنا، و یؤیده. و إن کان قد یتأول قوله: فَلْیَأْتُوا بِحَدِیثٍ مِثْلِهِ «۲» علی أن یکون راجعا إلی القبیل دون التفصیل. و کذلک یحمل قوله تعالی: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلی أَنْ یَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا یَأْتُونَ بِمِثْلِهِ «۳» علی القبیل. لأنه لم یجعل الحجة علیهم عجزهم عن الإتیان بجمیعه من أوله إلی آخره. فإن قیل: هل تعرفون إعجاز السور القصار، بما تعرفون به إعجاز السور الطوال؟ و هل تعرفون إعجاز کل قدر من القرآن بلغ الحد الذی قدرتموه بمثل ما تعرفوه إعجاز سورة البقرة و نحوها؟ فالجواب: أن أبا الحسن «۴» الأشعری- رحمه اللّه- أجاب عن ذلک: بأن کل سورة قد علم کونها معجزة بعجز العرب عنها. و سمعت بعض الکبراء من أهل هذا الشأن یقول: إنّ ذلک یصح أن یکون علم ذلک توقیفا (____ ۱) آیة (۵۲) سورة الطور. (۲) سبقت. (۳) آیة (۸۸) سورة الإسراء. (۴) سبقت ترجمته. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۶۳ و الطریقة الأولی أسدّ. و لیس هذا الذی ذکرناه أخیرا بمناف له، لأنه لا یمتنع أن یعلم إعجازه بطرق مختلفة تتوافی علیه، و تجتمع فیه. و اعلم أن تحت اختلاف هذه الأجوبة ضربا من الفائدة، لأن الطریقة الأولی تبین أن ما علم به کون جمیع القرآن معجزا. موجود فی کل سورة صغرت أو کبرت. فیجب أن یکون الحکم فی الکل واحدا. و الطریقة الأخیرة تتضمن تعذر معرفة إعجاز القرآن بالطریقة التی سلکناها فی بناء من التفصیل الذی بینا، فیما تعرف به فی الکلام الفصاحة، و تتبین به البلاغة، حتی یعلم ذلک بوجه آخر، فیستوی فی هذا القدر البلیغ و غیره فی أن لا یعلمه معجزا، حتی یستدلّ به من وجه آخر، سوی ما یعلمه البلغاء من التقدم فی الصنعة، و هذا غیر ممتنع. أ لا تری أن الإعجاز فی بعض السور و الآیات أظهر، و فی بعضها أغمض و أدق، فلا یفتقر البلیغ فی النظر فی حال بعضها إلی تأمّل کثیر، و لا بحث شدید، حتی یتبین له الإعجاز، و یفتقر فی بعضها إلی نظر دقیق، و بحث لطیف، حتی یقع علی الجلیّة، و یصل إلی المطلب. و لا

یمتنع أن یـذهب علیه الوجه فی بعض السور، فیحتـاج أن یفزع فیه إلی إجمـاع أو توقیف، أو مـا علمه من عجز العرب قاطبـة عنه. فـإن ادّعی ملحـد، أو زعم زنـدیق أنه لا یقع العجز عن الإتیان بمثل السور القصار أو الآیات بهـذا المقدار، قلنا له: إن الإعجاز قد حصل بما بیناه، و عرف بمـا وقفنـا علیه من عجز العرب عنه. ثم فیه شـیء آخر، و هو: أن هـذا سؤال لا ـ یسـتقیم للملحـد، لأنه یزعم أنه لیس فی القرآن کله إعجـاز. فکیف یجوز أن ینـاظره؟! علی تفصیله، و إذا ثبت لنـا معه إعجـازه فی السور الطوال، قـامت الحجـة علیه، و ثبتت المعجزة. و لا معنی لطلبه لکثرة الأدلة و المعجزات. و نحن نعلم أن إعجاز البعض بما بیناه، و البعض الآخر بأنه إذا ثبت الأصل، لم یبق بعـد ذلـک إلا ـ قولنـا، لأنـا عرفنـا فی البعض الإعجـاز بمـا بینا. ثم عرفنا فی الباقی بالتّوقیف و نحو ذلک، و لیس بممتنع اختلاف حال الکلام ـ حتی یکون الإعجاز علی بعضه أظهر، و فی بعضه أغمض، و من آمن ببعض دون بعض، کان مـذموما علی ما قال اللّه تعالی: أ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْکِتابِ وَ تَکْفُرُونَ بِبَعْضٍ «۱» و قـال: وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مـا هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَـةٌ لِلْمُؤْمِنِینَ «۲» فظاهره عنـد بعض أهل التأویـل کالـدلیل علی أن الشـفاء ببعضه أوقع، و إن کنـا نقـول إنه یـدل علی أن الشـفاء فی جمیعه. و اعلم أن الکلام ـ یقـع فیه الأبلغ (______________________________ ۱) آیـة (۸۵) سـورة البقرة. (۲) آیة (۸۲) سورة الإسـراء. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۶۴ و البلیغ، و لـذلک کانوا یسـمون الکلمة یتیمة، و یسـمون البیت الواحد یتیما. سمعت إسـماعیل بن عباد یقول: سـمعت أبا بکر بن مقسم یقول: سمعت ثعلبا «۱» یقول: سمعت الفراء «۲» یقول: العرب تسمی البیت الواحد یتیما، و کذلک یقال: الدرة الیتیمة لانفرادها. فإذا بلغ البیتین و الثلاثة فهی نتفة، و إلی العشـرة تسـمی قطعة، و إذا بلغ العشـرین اسـتحق أن یسـمی قصـیدا. و ذلـک مـأخوذ من المـخ القصـید، و هو المـتراکم بعضه علی بعض. و هو ضـد الرار و مثله الرثیـد. انتهت الحکایـة. ثم استشـهد بقول لبیـد: فتذکرا ثقلا رثیدا بعد ما ألقت ذکاء یمینها فی کافر یرید بیض النعام لأنه ینضد بعضه علی بعض، و کـذلک یقع فی الکلام البیت الوحشـی و النادر، و المثل السائر، و المعنی الغریب، و الشـیء الـذی لو اجتهد له لم یقع علیه فیتفق له و یصادفه. قال لی بعض علماء هـذه الصـنعة و جاریته فی ذلک: إن هذا مما لا سـبب له یخصه، و إنما سـببه القرارة فی أصل الصـنعة، و التقدم فی عیون المعرفة. فإذا وجد ذلک وقع له من الباب ما یطرد عن حساب و ما یشذ عن تفصـیل الحساب، فأما ما قلنا من أن ما بلغ قـدر السورة معجز فإن ذلک صـحیح______________________________. (۱) سـبقت ترجمته. (۲) الفراء هو: أبو زکریـا یحیی بن زیـاد الفراء الـدیلمی، کـان إمامـا ثقـة له شأن عظیم فی اللغـة. قال ثعلب: لو لا الفراء لما کانت لغة، و لو لا الفراء لسـقطت العربیة، مات سنة (۲۰۷ ه). له ترجمة فی: وفیات الأعیان ۲/ ۲۲۸، و طبقات الأدباء (۱۲۶)، و معجم الأدباء ۲۰/ ۹. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۶۵

فصل: فی أنه هل العلم بإعجاز القرآن ضرورة؟

فصل: فی أنه هل العلم بإعجاز القرآن ضـرورة؟ ذهب أبو الحسن الأشـعری إلی أن ظهور ذلک علی النبی صـلّی اللّه علیه و سـلّم یعلم ضرورة. و کونه معجزا یعلم باسـتدلال. و هـذا المـذهب محکی عن المخالفین. و الـذی نقوله فی هـذا: إن الأعجمی لا یمکنه أن یعلم إعجـازه إلا ـ اسـتدلالا. و کـذلک من لم یکن بلیغا. فأما البلیغ الـذی قـد أحاط بمـذاهب العربیـة و غرائب الصـنعة، فإنه یعلم من نفسـه ضرورة عجزه عن الإتیـان بمثله. و یعلم عجز غیره بمثـل مـا یعرف عجز نفسه. کمـا أنه إذا علم الواحـد منا أنه لا یقـدر علی ذلک فهو یعلم عجز غیره استدلالا. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۶۶

فصل: فیما یتعلق به الإعجاز

فصل: فیما یتعلق به الإعجاز إن قال قائل: بیّنوا لنا ما الـذی وقع التحـدی إلیه؟ أ هو الحروف المنظومـة؟ أو الکلام القائم بالذات أو غیر ذلک؟ قیل: الـذی تحـداهم به: أن یأتوا بمثل الحروف التی هی نظم القرآن، منظومة کنظمها، متتابعة کتتابعها، مطّردة کاطّرادها، و لم

يتحدهم إلى أن يأتوا بمثل الكلام القديم الذى لا مثل له. و إن كان كذلک فالتحدى واقع إلى أن يأتوا بمثل الحروف المنظومة، التى هى عبارة عن كلام اللّه تعالى فى نظمها و تأليفها. و هى حكاية لكلامه و دلالات عليه، و أمارات له، على أن يكونوا مستأنفين لذلک، لا حاكين بما أتى به النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و لا يجب أن يقدّر مقدر، أو يظن ظانّ أنا حين قلنا: إن القرآن معجز، و إنّه تحداهم إلى أن يأتوا بمثله، أردنا غير ما فسرناه من العبارات عن الكلام القديم القائم بالذات. و قد بينا قبل هذا أنه لم يكن ذلک معجزا، لكونه عبارة عن الكلام القديم؛ لأن التوراة و الإنجيل عبارة عن الكلام القديم، و ليس ذلک بمعجز فى النظم و التأليف. و كذلک ما دون الآية، كاللفظة عبارة عن كلامه، و ليست بمنفردها بمعجزة. و قد جوز بعض أصحابنا أن يتحداهم إلى مثل كلامه القديم القائم بنفسه، و الذى عول عليه مشايخنا ما قدمنا ذكره. و على ذلک أكثر مذاهب الناس. و لم يجب أن نفسر و نذكر موجب هذا المذهب الذى حكيناه و ما يتصل به؛ لأنه خارج عن غرض كتابنا، لأن الإعجاز وقع فى نظم الحروف التى هى دلالات و عبارات عن كلامه. و إلى مثل هذا النظم وقع التحدى، فبيّنا وجه ذلک، و كيفية ما يتصور القول فيه، و أزلنا توهم من يتوهم أن الكلام القديم حروف منظومة، أو حروف غير منظومة، أو شيء مؤلّف أو غير ذلک مما يصح أن يتوهّم على ما سبق من إطلاق القول فيما مضى. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۶۷

فصل: فى وصف وجوه من البلاغة

فصل: فى وصف وجوه من البلاغة ذكر بعض أهل الأدب و الكلام: أن البلاغة على عشرة أقسام: الإيجاز، و التشبيه، و الاستعارة، و التلاؤم، و الفواصل، و التجانس، و التصريف، و التضمين، و المبالغة، و حسن البيان. فأما الإيجاز فإنما يسن مع ترک الإخلال باللفظ و المعنى. فيأتى باللفظ القليل الشامل لأمور كثيرة. و ذلک ينقسم إلى حذف و قصر. فالحذف: الإسقاط للتخفيف كقوله: وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ «۱» و قوله: طاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ «۲» و حذف الجواب كقوله: وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى «۳» كأنه قيل: لكان هذا القرآن، و الحذف أبلغ من الذكر، لأن النفس تذهب كل مذهب فى القصد من الجواب. و الإيجاز بالقصد كقوله: وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ «۴» و قوله: يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ «۵» و قوله: إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ «۶» و قوله: وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ «۷». و الإطناب فيه بلاغة، فأما التطويل ففيه عىّ. و أما التشبيه بالعقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر فى حس أو عقل، كقوله: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً «۸» و قوله: مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ «۹»

(۱) آية (۸۲) سورة يوسف. (۲) آية (۲۱) سورة محمد. (۳) آية (۳۱) سورة الرعد. (۴) آية (۱۷۹) سورة البقرة. (۵) آية (۴) سورة المنافقون. (۶) آية (۲۳) سورة يونس. (۷) آية (۴۳) سورة فاطر. (۸) آية (۳۹) سورة النور. (۹) آية (۱۸) سورة إبراهيم. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۶۸ و قوله: وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ «۱» و قوله: إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّيَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ «۲» و قوله: إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ، تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ «۳» و قوله: فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ «۴» و قوله: أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِينَةٌ وَ تَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً «۵» و قوله: وَ جَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ «۶» و قوله: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً «۷» و قوله تعالى: فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ «۸» و قوله: كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ «۹» و قوله: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ «۱۰» و قوله: وَ لَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ «۱۱» و قوله: خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ «۱۲» و نحو ذلک. و من ذلک باب الاستعارة:

و هو بيان التشبيه كقوله تعالى: وَ قَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً «۱۳» و كقوله: فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ «۱۴» و كقوله: إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ «۱۵» و قوله: وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى

(______________________________ ۱) آية (۱۷۱) سورة الأعراف. (۲) آية (۲۴) سورة يونس. (۳) آية (۱۹، ۲۰) سورة القمر. (۴) آية (۳۷) سورة الرحمن. (۵) آية (۲۰) سورة الحديد. (۶) آية (۲۱) سورة الحديد. (۷) آية (۴) سورة الجمعة. (۸) آية (۱۷۶) سورة الأعراف. (۹) آية (۷) سورة الحاقة. (۱۰) آية (۴۱) سورة العنكبوت. (۱۱) آية (۲۴) سورة الرحمن. (۱۲) آية (۱۴) سورة الرحمن. (۱۳) آية (۲۳) سورة الفرقان. (۱۴) آية (۹۴) سورة الحجر. (۱۵) آية (۱۱) سورة الحاقة. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۶۹ الْغَضَبُ «۱» و كقوله: فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً «۲» و قوله: بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ «۳» فالدمغ و القذف مستعار، و قوله: وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ «۴» و قوله: وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ «۵» و قوله: فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ «۶» و قوله: حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها «۷» و قوله: وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ «۸» و قوله: مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ «۹» و قوله: فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ «۱۰» و قوله: أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً «۱۱» و قوله: حَصِيداً خامِدِينَ «۱۲» و قوله: أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ «۱۳» و قوله: وَ داعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِراجاً مُنِيراً «۱۴» و قوله: وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ «۱۵» و قوله: وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ «۱۶» و قوله: فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ «۱۷» يريد أن لا إحساس بآذانهم من غير صمم. و قوله: وَ لَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ «۱۸». و هذا أوقع من اللفظ الظاهر، و أبلغ من الكلام الموضوع. و أما التلاؤم فهو تعديل الحروف فى التأليف، و هو نقيض التنافر. كقول الشاعر: و قبر حرب بمكان قفر و ليس قرب قبر حرب قبر

(______________________________ ۱) آية (۱۵۴) سورة الأعراف. (۲) آية (۱۱) سورة الإسراء. (۳) آية (۱۲) سورة الأنبياء. (۴) آية (۳۷) سورة يس. (۵) آية (۷) سورة الأنفال. (۶) آية (۵۱) سورة فصلت. (۷) آية (۴) سورة محمد. (۸) آية (۱۸) سورة التكوير. (۹) آية (۲۱۴) سورة البقرة. (۱۰) آية (۱۷۸) سورة آل عمران. (۱۱) آية (۲۴) سورة يونس. (۱۲) آية (۱۵) سورة الأنبياء. (۱۳) آية (۲۲۵) سورة الشعراء. (۱۴) آية (۴۶) سورة الأحزاب. (۱۵) آية (۲۹) سورة الإسراء. (۱۶) آية (۲۱) سورة السجدة. (۱۷) آية (۱۱) سورة الكهف. (۱۸) آية (۱۴۹) سورة الأعراف. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۷۰ قالوا: هو من شعر الجن، حروفه متنافرة، لا يمكن إنشاده إلا بتتعتع فيه. و التلاؤم على ضربين أحدهما: فى الطبقة الوسطى، كقوله: رمتنى و ستر اللّه بينى و بينها عشية آرام الكناس رميم رميم التى قالت لجارات بيتها ضمنت لكم أن لا يزال يهيم ألا ربّ يوم لو رمتنى رميتها و لكن عهدى بالنضال قديم قالوا: و المتلائم فى الطبقة العليا القرآن كله، و إن كان بعض الناس أحسن إحساسا من بعض، كما أن بعضهم يفطن للموزون بخلاف بعض. و التلاؤم حسن الكلام فى السمع، و سهولته فى اللفظ، و وقع المعنى فى القلب. و ذلك كالخط الحسن، و البيان الشافى، و المتنافر كالخط القبيح. فإذا انضاف إلى التلاؤم حسن البيان، و صحة البرهان فى أعلى الطبقات، ظهر الإعجاز لمن كان جيد الطبع، و بصيرا بجودة الكلام، كما يظهر له أعلى طبقة الشعر. «و المتنافر»: ذهب الخليل إلى أنه من بعد شديد، أو قرب شديد، فإذا بعد فهو كالطّفر. و إذا قرب جدا كان بمنزلة مشى المقيد. و يبين ذلك بقرب مخارج الحروف و تباعدها. و أما الفواصل فهى حروف متشاكلة فى المقاطع يقع بها إفهام المعانى، و فيها بلاغة، و الإسجاع عيب؛ لأن السجع يتبع المعنى. و الفواصل تابعة للمعانى. و السجع كقول مسيلمة. ثم الفواصل قد تقع على حروف متجانسة، كما قد تقع على حروف متقاربة. و لا تحتمل القوافى ما تحتمل الفواصل؛ لأنها ليست فى الطبقة العليا فى البلاغة. لأن الكلام يحسن فيها بمجانسة القوافى، و إقامة الوزن. و أما التجانس فإنه بيان بأنواع الكلام الذى يجمعه أصل واحد. و هو على وجهين مزاوجة و مناسبة. فالمزاوجة كقوله تعالى: فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ «۱» و قوله: وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ «۲» و كقول عمرو بن كلثوم «۳»:

(______________________________ ۱) آية (۱۹۴) سورة البقرة. (۲) آية (۵۴) سورة آل عمران. (۳) عمرو بن كلثوم التغلبى، كان شاعرا مطبوعا، و كان أعز الناس نفسا، و أكثرهم امتناعا و أنفة و لقد ساد

قومه و هو فی الخامسة عشرة. مات سنة (۶۰۰ م). له ترجمة فی: الأغانی ۹/ ۱۸۱، و الشعر و الشعراء (۱۱۷)، و الجمهرة (۷۴). إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۷۱ ألا لا یجهلن أحد علینا فنجهل فوق جهل الجاهلینا و أما المناسبة فهی کقوله تعالی: ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ «۱» و قوله: یَخافُونَ یَوْماً تَتَقَلَّبُ فِیهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصارُ «۲». و أما «التصریف» فهو تصریف الکلام فی المعانی، کتصریفه فی الدلالات المختلفة، کتصریف «الملک» فی معانی الصفات، فصرّف فی معنی «مالک»، و «ملک»، و «ذی الملکوت»، و «الملیک». و فی معنی: «التملیک» و «التملک»، و «الإملاک». و تصریف المعنی فی الدلالات المختلفة. کما کرر من قصة موسی فی مواضع. و أما التضمین فهو حصول معنی فیه، من غیر ذکره له باسم أو صفة هی عبارة عنه. و ذلک علی وجهین: تضمین توجیه البنیة. کقولنا: معلوم یوجب أنه لا بد من عالم. و تضمین یوجبه معنی العبارة من حیث لا یصح إلا به؛ کالصفة بضارب یدل علی مضروب. و التضمین کله إنجاز. و التضمین الذی تدل علیه دلالات القیاس أیضا إنجاز و ذکر أن: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ من باب التضمین لأنه تضمن تعلیم الاستفتاح فی الأمور باسمه علی جهة التعظیم للّه تبارک و تعالی، أو التبرک باسمه. و أما «المبالغة» فهی الدلالة علی کثرة المعنی، و ذلک علی وجوه منها مبالغة فی الصفة المبینة. لذلک کقولک: «رحمن» عدل عن ذلک للمبالغة، و کقوله: لَغَفَّارٌ و کذلک فعّال و فعول کقولهم «شکور و غفور» و فعیل کقوله: الرَّحِیم و قَدِیرٌ و من ذلک أن یبالغ باللفظة التی هی صفة عامة کقوله: خالِقُ کُلِّ شَیْءٍ «۳» و کقوله: فَأَتَی اللَّهُ بُنْیانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ «۴» و کقوله: وَ لا یَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّی یَلِجَ الْجَمَلُ فِی سَمِّ الْخِیاطِ «۵» و کقوله: إِنَّا أَوْ إِیَّاکُمْ لَعَلی هُدیً أَوْ فِی ضَلالٍ مُبِینٍ «۶» و قد یدخل فیه الحذف الذی تقدم ذکره للمبالغة، و أما حسن البیان فالبیان علی أربعة أقسام: کلام، و حال، و إشارة، و علامة. و یقع التفاضل فی البیان، و لذلک قال عز من قائل: الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ

(____ ۱) آیة (۱۲۷) سورة التوبة. (۲) آیة (۳۷) سورة النور. (۳) آیة (۶۲) سورة الزمر. (۴) آیة (۲۶) سورة النحل. (۵) آیة (۴۰) سورة الأعراف. (۶) آیة (۲۴) سورة سبأ. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۷۲ الْإِنْسانَ عَلَّمَهُ الْبَیانَ «۱» و قیل: «أعیا من باقل» سئل عن ظبیة فی یده، بکم اشتراها فأراد أن یقول: بأحد عشر، فأشار بیدیه مادا أصابعه العشر، ثم أدلع لسانه و أفلت الظبی من یده. ثم البیان علی مراتب: قلنا قد کنا حکینا أن من الناس من یرید أن یأخذ إعجاز القرآن من وجوه البلاغة التی ذکرنا أنها تسمی البدیع فی أول الکتاب مما مضت أمثلته فی الشعر. و من الناس من زعم: أنه یأخذ ذلک من هذه الوجوه التی عددناها فی الفصل. و اعلم أن الذی بیناه قبل هذا، و ذهبنا إلیه هو سدید. و هو أن هذه الأمور تنقسم. فمنها ما یمکن الوقوع علیه و التعمل له، و یدرک بالتعلم. فما کان کذلک فلا سبیل إلی معرفة إعجاز القرآن به. و أما ما لا سبیل إلیه بالتعلم و التعمل من البلاغات، فذلک هو الذی یدل علی إعجازه، و نحن نضرب لذلک أمثلة لتقف علی ما ذهبنا إلیه. و ذکرنا فی هذا الفصل عن هذا القائل: إن التشبیه تعرف به البلاغة. و ذلک مسلّم، و لکن إن قلنا ما وقع من التشبیه فی القرآن معجز، عرض علینا من التشبیهات الجاریة فی الأشعار ما لا یخفی علیک. و أنت تجد فی شعر ابن المعتز من التشبیه البدیع الذی یشبه السحر، و قد تتبع فی هذا ما لم یتتبع غیره، و اتفق له ما لم یتفق لغیره من الشعراء. و کذلک کثیر من وجوه البلاغة قد بیّنا أن تعلمها یمکن، و لیس تقع البلاغة بوجه واحد منها دون غیره. فإن کان إنما یعنی هذا القائل أنه إذا أتی فی کل معنی یتفق فی کلامه بالطبقة العالیة. ثم کان ما یصل به کلامه بعضه ببعض، و ینتهی منه إلی متصرفاته علی أتم البلاغة، و أبدع البراعة. فهذا مما لا نأباه بل نقول به. و إنما ننکر أن یقول قائل: إن بعض هذه الوجوه بانفرادها قد حصل فیه الإعجاز من غیر أن یقارنه ما یتصل به الکلام، و یفضی إلیه. مثل ما یقول: إن ما أقسم به وحده بنفسه معجز، و إن التشبیه معجز، و إن التجنیس معجز، و المطابقة بنفسها معجزة. فأما الآیة التی فیها ذکر للتشبیه، فإن ادعی إعجازها لألفاظها و نظمها و تألیفها، فإنی لا أدفع ذلک و أصححه، و لکن لا أدعی إعجازها لموضع التشبیه. و صاحب «المقالة» التی حکیناها، أضاف ذلک إلی موضع التشبیه، و ما قرن به من الوجوه. و من تلک الوجوه ما قد بیّنا أن الإعجاز یتعلق به کالبیان. و ذلک لا یختص بجنس

(____ ۱) آیة (۱: ۴) سورة الرحمن. إعجاز

القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۷۳ من المبیّن دون جنس. و لـذلک قال: هذا بَیانٌ لِلنَّاسِ «۱» و قال: تِبْیاناً لِکُلِّ شَیْءٍ «۲» و قال: بِلِسانٍ عَرَبِیٍّ مُبِینٍ «۳» فکرر فی مواضع ذکره أنه مبین. فـالقرآن أعلی منـازل البیـان، و أعلی مراتبه ما جمع وجوه الحسن و أسـبابه و طرقه و أبوابه، من تعـدیل النظم و سـلامته، و حسـنه و بهجته، و حسن مـوقعه فی السـمع، و سـهولته علی اللسـان، و وقوعه فی النفس موقع القبول، و تصوره تصور المشاهد، و تشـکله علی جهته حتی یحل محل البرهان و دلالهٔ التألیف، مما لا ینحصر حسنا و بهجهٔ و سناء و رفعهٔ. و إذا علاـ الکلاـم فی نفسه کـان له من الوقع فی القلـوب و التمکن فی النفـوس، مـا یـذهل و یبهـج، و یقلـق و یؤنس، و یطمع و یؤیس، و یضـحک و یبکی، و یحزن و یفرح، و یسکن و یزعج، و یشجی و یطرب، و یهز الأعطاف، و یستمیل نحوه الأسماع، و یورث الأریحیّهٔ و العزّهٔ. و قـد یبعث علی بـذل المهـج و الأـموال شـجاعهٔ وجودا، و یرمی السـامع من وراء رأیه مرمی بعیـدا. و له مسالـک فی النفوس لطیفهٔ، و مداخل إلی القلوب دقیقهٔ. و بحسب ما یترتب فی نظمه، و یتنزل فی موقعه، و یجری علی سمت مطلعه و مقطعه یکون عجیب تأثیراته، و بدیع مقتضیاته. و کذلک علی حسب مصادره، یتصور وجوه موارده. و قد ینبئ الکلام عن محل صاحبه، و یدل علی مکان متکلمـه، و ینبه علی عظیم شـأن أهله، و علی علـو محله. أ لاـ تری أن الشـعر فی الغزل، إذا صـدر عن محب کـان أرق و أحسن، و إذا صـدر عن متغزل و حصل من متصـنع نادی علی نفسه بالمداجاهٔ، و أخبر عن خبیئه فی المراءاهٔ. و کذلک قد یصدر الشـعر فی وصـف الحرب عن الشـجاع، فیعلم وجه صدوره، و یدل علی کنهه و حقیقته. و قد یصدر عن المتشـبه، و یخرج عن المتصنع، فیعرف من حاله ما ظن أنه یخفیه، و یظهر من أمره خلاف ما یبدیه، و أنت تعرف قول المتنبی «۴»: فالخیل و اللیل و البیداء تعرفنی و الحرب و الطّعن و القرطاس و القلم (________________________________ ۱) آیهٔ (۱۳۸) سورهٔ آل عمران. (۲) آیهٔ (۸۹) سورهٔ النحـل. (۳) آیهٔ (۱۹۵) سورهٔ الشـعراء. (۴) سـبقت ترجمته. إعجـاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۷۴ من الواقع فی القلب لما یعلم أنه من أهل الشجاعهٔ ما لا تجده للبحتری «۱» فی قوله: و أنا الشجاع و قد بدا لک موقفی بعقرقس و المشرفیهٔ مشهدی و تجد لابن المعتز «۲» فی موقع شـعره من القلب فی الفخر و غیره ما لا تجده لغیره لأنه إذا قال: إذا شئت أوقرت البلاد حوافرا و سارت ورائی هاشم و نزار و عمّ سـماء النّقع حتی کأنه دخان و أطراف الرماح شرار و قال: قد تردّیت بالمکارم دهرا و کفتنی نفسی من الافتخار أنا جیش إذا غزوت وحیـدا و وحیـد فی الجحفل الجرّار و قال: أیها السائلی عن الحسب الأط یب ما فوقه لخلق مزید نحن آل الرسول و العترهٔ الح ق و أهل القربی فما ذا ترید ..؟ و لنا ما أضاء صبـح علیه و أتته رایات لیل سود و کما أنشدنی الحسن بن عبد اللّه قال: أنشـدنا محمد بن یحیی لابن المعتز قصـیدته التی یقول فیها: أنا ابن الذی سادهم فی الحیا ۀ و سادهم بی تحت الثّری و ما لی فی أحد مرغب بلی فیّ یرغب کلّ الوری و اسهر للمجد و المکرمات إذا اکتحلت أعین بالکری فانظر فی القصیدهٔ کلّها، ثم فی جمیع شعره، تعلم أنه ملک الشـعر، و أنه یلیق به من الفخر خاصهٔ. ثم مما یتبعه مما یتعاطاه مما لا یلیق بغیره. بل ینفر عن سواه. و لم أحب أن أکثر علیـک فـأطول الکتـاب بمـا یخرج عن غرضه. و کمـا تری من قول أبی فراس الحمـدانی فی نفسـک إذا قـال: و لا أصبح الحیّ الخلوف بغارهٔ و لا الجیش ما لم یأته قبلی النّـذر و یا رب دار لم تخفنی منیعهٔ طلعت علیها بالردیء أنا و الفجر و ساحبهٔ الأذیال نحوی لقیتهـا فلـم یلقهـا جـافی اللقـاء و لاـ وعر وهبـت لهـا مـا حـازه الجیش کلـه و أبـت و لـم یکشـف لأبیاتهـا سـتر (________________________________ ۱) سـبقت ترجمتـه. (۲) سـبقت ترجمته. إعجاز القرآن(الباقلانی)، ص: ۱۷۵ و ما راح یطغینی بأثوابه الغنی و لا بات یثنینی عن الکرم الفقر و ما حاجتی فی المال أبغی وفوره إذا لم أفر وفری فلا وفر الوفر و الشـیء إذا صدر من أهله، و بدا من أصـله، و انتسب إلی ذویه سلم فی نفسه، و بانت فخامته، و شواهـد أثر الاسـتحقاق فیه. و إذا صـدر من مکلف و بـدا من متصـنع بـان أثر الغرابـهٔ علیه، و ظهرت مخایـل الاسـتنحاس فیه، و عرف شمائل التخیر منه. إنا نعرف فی شـعر أبی نواس أثر الشـطارهٔ، و تمکن البطالهٔ، و موقع کلامه فی وصف ما هو بسبیله من أمر العبارهٔ، و وصف الخمر و الخمار. کما نعرف موقع کلام ذی الرّمّهٔ فی وصف المهامهٔ و البوادی، و الجمال و الاتساع و الأزمّهٔ. و عیب أبی نواس التصرف فی وصف الطلول و الرّباع و الوحش. ففکر فی قوله: ودع الأطلال تسقیها الجنوب و تبلی عهد جدّتها الخطوب و خلّ لراکب

الوجناء أرضا تخبّ به النّجيبة و النجيب بلاد نبتها عشر و طلح و أكثر صيدها ضبع و ذيب و لا تأخذ عن الأعراف لهوا و لا عيشا، فعيشهم جديب دع الألبان يشربها رجال رقيق العيش عندهم غريب إذا راب الحليب فبل عليه و لا تحرج فما فى ذاك حوب فأطيب منه صافية شمول يطوف بكأسها ساق أديب كأنّ هديرها فى الدّنّ يحكى قراءة القس قابله الصّليب أعاذل أقصرى عن طول لومى فراجى توبتى عندى يخيب تعيبين الذنوب و أى حرّ من الفتيان ليس له ذنوب؟! و قوله: صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم و سمعت الصاحب إسماعيل بن عباد يقول: سمعت براكويه الزنجانى يقول: أنشد بعض الشعراء هلال بن يزيد قصيدة على وزن قصيدة الأعشى «۱»: ودّع هريرة إن الركب مرتحل و هل تطيق وداعا أيها الرجل ..؟

(۱) سبقت ترجمته. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۷۶ و كان وصف فيها الطلل، قال براكويه: فقال لى هلال: فقلت بديها: إذا سمعت فتى يبكى على طلل من أهل زنجان فاعلم أنه طلل و إنما ذكرت لك هذه الأمور، لتعلم أن الشىء فى معدنه أعز، و فى مظانه أحسن، و إلى أصله أنزع، و بأسبابه أليق. و هو يدل على ما صدر منه، و ينبه ما أنتج عنه، و يكون قراره على موجب صورته و أنواره على حسب محله. و لكل شىء حد و مذهب. و لكل كلام سبيل و منهج. و قد ذكر أبو بكر «۱» الصديق رضى اللّه عنه فى كلام مسيلمة ما أخبرتك به، فقال: (إن هذا كلام لم يخرج من إله) فدل على أن الكلام الصادر عن عزة الربوبية و رفعة الإلهية يتميز عما لم يكن كذلك. ثم رجع الكلام بنا إلى ما ابتدأنا به من عظيم شأن البيان. و لو لم يكن فيه إلا ما منّ به اللّه على خلقه بقوله: خَلَقَ الْإِنْسانَ عَلَّمَهُ الْبَيانَ «۲» فأما بيان القرآن فهو أشرف بيان، و أهداه و أكمله .. و أعلاه و أبلغه و أسناه. تأمل قوله تعالى: أَ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ «۳» فى شدة التنبيه على تركهم الحق، و الإعراض عنه. و موضع امتنانه بالذكر و التحذير. و قوله: وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ «۴» و هذا بليغ فى التحسير و قوله: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ «۵» و هذا يدل على كونهم مجبولين على الشر، معوّدين لمخالفة النهى و الأمر، و قوله: الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ «۶» هو فى نهاية الوضع من الخلة الأعلى التقوى. و قوله: أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ «۷» و هذا نهاية فى التحذير من التفريط. و قوله: أَ فَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما

(۱) سبقت ترجمته. (۲) آية (۳، ۴) سورة الرحمن. (۳) آية (۵) سورة الزخرف. (۴) آية (۳۹) سورة الزخرف. (۵) آية (۲۸) سورة الأنعام. (۶) آية (۶۷) سورة الزخرف. (۷) آية (۵۶) سورة الزمر. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۷۷ تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ «۱» هو النهاية فى الوعيد و التهديد. و قوله: وَ تَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ وَ تَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ «۲» نهاية فى الوعيد. و قوله: وَ فِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَ أَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ «۳» نهاية فى الترغيب. و قوله: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ ما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَ لَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ «۴» و كذلك قوله: لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا «۵» نهاية فى الحجاج، و قوله: وَ أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ، أَ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ «۶» نهاية فى الدلالة على علمه بالخفيات. و لا وجه للتطويل، فإن بيان الجميع فى الرفعة و كبر المنزلة على سواء. و قد ذكرنا من قبل: أن البيان يصح أن يتعلق به الإعجاز، و هو معجز من القرآن. و ما حكينا عن صاحب الكلام من المبالغة فى اللفظ. فليس ذلك بطريق الإعجاز، لأن الوجوه التى ذكرها قد تتفق فى كلام غيره، و ليس ذلك بمعجز. بل قد يصح أن يقع فى المبالغة فى المعنى و الصفة، وجوه من اللفظ يثمر الإعجاز. و «تضمين المعانى» أيضا، قد يتعلق به الإعجاز إذا حصلت للعبارة طريق البلاغة فى أعلى درجاتها. و أما «الفواصل» فقد بيّنا أنه يصح أن يتعلق بها الإعجاز، و كذلك قد بيّنا فى المقاطع و المطالع نحو هذا. و بيّنا فى تلاؤم الكلام ما سبق من صحة تعلق الإعجاز به. و التصرّف فى «الاستعارة» البديعة يصح أن يتعلق به الإعجاز، كما يصح مثل ذلك فى حقائق الكلام، لأن البلاغة فى كل واحد من البابين تجرى مجرى واحدا، و تأخذ مأخذا مفردا. و أما «الإيجاز و البسط» فيصح أن يتعلق بهما الإعجاز كما يتعلق بالحقائق.

و «الاستعارة» و «البيان» فى كل واحد منهما ما لا يضبط حدّه، و لا يقدّر قدره، و لا يمكن

(_______________________________________۱) آية (۴۰) سورة فصلت. (۲) آية (۴۴، ۴۵) سورة الشورى. (۳) آية (۷۱) سورة الزخرف. (۴) آية (۹۱) سورة المؤمنون. (۵) آية (۲۱) سورة الأنبياء. (۶) آية (۱۳، ۱۴) سورة الملك. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۷۸ التوصل إلى ساحل بحره بالتعلم، و لا يتطرّق إلى غوره بالتسبّب. و كلّ ما يمكن تعلمه، و يتهيأ تلقنه، و يمكن تخليصه، و يستدرك أخذه فلا يجب أن يطلب وقوع الإعجاز به. و لذلك قلنا: «السجع» مما ليس يلتمس فيه الإعجاز؛ لأن ذلك أمر محدود و سبيل مورود. و متى تدرب الإنسان به و اعتاده لم يستصعب عليه أن يجعل جميع كلامه منه. و كذلك «التجنيس» و «التطبيق» متى أخذ أحدهما و طلب وجههما استوفى ما شاء، و لم يتعذر عليه أن يملأ خطابه منه، كما أولع بذلك أبو تمام و البحترى. و إن كان البحترى أشغف بالمطابق، و أقل طلبا للمجانس. فإن قال قائل: هلا قلت: إن هذين البابين يقع فيهما مرتبة عالية، لا يوصل إليها بالتعلّم، و لا تملك بالتعمّل؛ كما ذكرتم فى البيان و غير ذلك؟ قلنا: لو عمد إلى كتاب «الأجناس»، و نظر فى كتاب «العين»، لم يتعذر عليه التجنيس الكثير. فأما «الإطباق» فهو أقرب منه، و ليس كذلك البيان. و الوجوه التى رأينا الإعجاز فيها؛ لأنها لا تستوفى بالتعلم. فإن قيل: فالبيان قد يتعلم؟ قيل: إن الذى يمكن أن يتوصل إليه بالتعلم يتفاوت فيه الناس، و تتناهى فيه العادات. و هو كما يعلم من مقادير القوى فى حمل الثقيل. و أن الناس يتقاربون فى ذلك فيرمون فيه إلى حد، فإذا تجاوزوه وقفوا بعده و لم يمكنهم التخطى، و لم يقدروا على التعدى إلا أن يحصل ما يخرق العادة و ينقض العرف. و لن يكون ذلك إلا للدلالة على النبوات على شروط فى ذلك. و القدر الذى يفوت الحد فى البيان، و يتجاوز الوهم، و يشذ عن الصنعة، و يقذفه الطبع فى النادر القليل، كالبيت البديع، و القطعة الشريفة التى تتفق فى ديوان شاعر، و الفقرة تتفق فى رسالة كاتب. حتى يكون الشاعر ابن بيت أو بيتين أو قطعة أو قطعتين، و الأديب شهيد كلمة أو كلمتين. و ذلك أمر قليل. و لو كان كلامه كله يطرد على ذلك المسلك، و يستمر على ذلك المنهج، أمكن أن يدّعى فيه الإعجاز. و لكنك إن كنت من أهل الصنعة تعلم قلة الأبيات الشوارد، و الكلمات الفرائد، و أمهات القلائد. فإن أردت أن تجد قصيدة كلها وحشية، و أردت أن تراها مثل بيت من أبياتها مرضية، لم تجد ذلك فى الدواوين، و لم تظفر بذلك إلى يوم الدين. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۷۹ و نحن لم ننكر أن يستدرك البشر كلمة شريفة، و لفظة بديعة، و إنما أنكرنا أن يقدروا على مثل نظم سورة أو نحوها. و أحلنا أن يتمكنوا من حد فى البلاغة و مقدار فى الخطابة. و هذا كما قلناه من أن صورة الشعر قد تتفق فى القرآن و إن لم يكن له حكم الشعر. فأما قدر المعجز فقد بيّنا أنها السورة طالت أو قصرت. و بعد ذلك خلاف من الناس، من قال مقدار كل سورة أو أطول آية فهو معجز. و عندنا كل واحد من الأمرين معجز، و الدلالة عليه ما تقدم، و البلاغة لا تتبين بأقل من ذلك. فلذلك لم نحكم بإعجازه، و ما صح أن تتبين فيه البلاغة، و محصولها الإبانة فى الإبلاغ عن ذات النفس على أحسن معنى، و أجزل لفظ، و بلوغ الغاية فى المقصود بالكلام. فإذا بلغ الكلام غايته فى هذا المعنى، كان بالغا و بليغا. فإذا تجاوز حد البلاغة إلى حيث لا يقدر عليه أهل الصناعة، و انتهى إلى أمر يعجز عنه الكامل فى البراعة، صح أن يكون له حكم المعجزات، و جاز أن يقع موقع الدلالات. و قد ذكرنا أنه بجنسه و أسلوبه مباين لسائر كلامهم. ثم بما يتضمن من تجاوزه فى البلاغة الحد الذى يقدر عليه البشر. فإن قيل: فإذا كان يجوز عندكم أن يتفق فى شعر الشاعر قطعة عجيبة شاردة، تباين جميع ديوانه فى البلاغة، و يقع فى ديوانه بيت واحد يخالف مألوف طبعه، و لا يكون سبب ذلك البيت، و لا تلك القطعة فى التفصيل، و لو أراد أن يأتى بمثل ذلك و يجعل جميع كلامه من ذلك النمط، لم يجد إلى ذلك سبيلا. و له سبب فى الجملة و هو التقدم فى الصنعة، لأنه يتفق من المتأخر فيها. فهلّا قلتم: إنه إذا بلغ فى العلم بالصناعة مبالغة القصوى، كان جميع كلامه من نمط ذلك البيت و سمت تلك القطعة؟ و هلا قلتم: إن القرآن من هذا الباب؟ فالجواب: إنا لم نجد أحدا بلغ الحد الذى وصفتم فى العادة، و هؤلاء الناس أهل البلاغة أشعارهم عندنا محفوظة، و خطبهم منقولة، و رسائلهم مأثورة، و بلاغاتهم مروية، و حكمهم مشهورة. و كذلك أهل الكهانة و البلاغة مثل قسّ بن ساعدة، و سحبان وائل، و مثل: شقّ و سطيح و غيرهم. كلامهم معروف عندنا، و موضوع بين أيدينا، لا يخفى علينا فى

الجملة بلاغة بليغ، و لا خطابة خطيب، و لا براعة شاعر مفلق، و لا كتابة كاتب مدقق. فلما لم نجد فى شـىء من ذلك ما يدانى القرآن فى البلاغـة، أو يشاكله فى الإعجاز مع ما وقع من التحـدى إليه المـدة الطويلـة. و تقـدّم من التقريع و المجازاة الأمـد المديد، و ثبت له وحـده خاصـة قصب السبق، و الاستيلاء على الأمر، و عجز الكـل عنه، و وقفوا دونه حيارى، يعرفون عجزهم و إن جهل قوم سببه، و يعلمون نقصـهم و إن أغفـل قوم وجهه. إعجـاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۸۰ رأينـا أنه نـاقض للعـادة، و رأينـا أنه خارق للمعروف فى الجبلّـة. و خرق العادة إنما تقع بالمعجزات على وجه إقامة البرهان على النبوات، و على أن من ظهرت عليه، و وقعت موقع الهداية إليه. صادق فيما يدعيه من نبوته، و محق فى قوله، و مصيب فى هديه، قد سادت له الحجة البالغة، و الكلمة التامة، و البرهان النير، و الدليل البين. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۸۱

فصل: فى حقيقة المعجز

فصـل: فى حقيقـة المعجز معنى قولنا: «إن القرآن معجز» على أصولنا أنه لا يقـدر العباد عليه. و قـد ثبت أن المعجز الـدال على صـدق النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، لا ـ يصـح دخوله تحت قـدرة العبـاد. و إنمـا ينفرد اللّه تعالى بالقـدرة عليه، و لا يجوز أن يعجز العباد عما تسـتحيل قدرتهم عليه، كما يسـتحيل عجزهم عن فعل الأجسام. فنحن لا نقدر على ذلك و إن لم يصح وصـفنا بأنا عاجزون عن ذلك حقيقـة. و كـذلك معجزات سائر الأنبياء على هذا. فلما لم يقدر عليه أحد، شبه بما يعجز عنه العاجز. و إنما لا يقدر العباد على الإتيان بمثله؛ لأنه لو صـح أن يقـدروا عليه بطلت دلالـة المعجز. و قـد أجرى اللّه العادة بأن يتعـذر فعل ذلك منهم، و أن لا يقدروا عليه. و لو كان غير خارج عن العادة لأتوا بمثله، أو عرضوا عليه من كلام فصـحائهم و بلغائهم ما يعارضه. فلما لم يشتغلوا بذلك، علم أنهم فطنوا إلى خروج ذلـك عن أوزان كلامهم، و أساليب نظامهم، و زالت أطماعهم عنه. و قـد كنا بيّنا أن التواضع ليس يجب أن يقع على قول الشـعر، و وجوه النظم المستحسـنة فى الأـوزان المطربـة للسـمع. و لاـ يحتـاج فى مثله إلى توقيف، و أنه يتبين أن مثـل ذلك يجرى فى الخطـاب، فلمـا جرى فيه فطنوا له و اختاروه و طلبوا أنواع الأوزان و القوافى. ثم وقفوا على حسن ذلك، و قـدروا عليه بتوفيق اللّه عز و جل. و هو الـذى جمع خواطرهم عليه، و هـداهم له، و هيّأ دواعيهم إليه. و لكنه أقدرهم على حد محدود، و غاية فى العرف مضـروبة، لعلمه بأنه سيجعل القرآن معجزا. و دل على عظم شأنه، بأنهم قدروا على ما بيّنا من التأليف، و على ما وصفناه من النظم من غير توقيف و لا اقتضاء أثر، و لا تحـدّ إليه، و لا تقريع. فلو كان هـذا من ذلك القبيل، أو من الجنس الذى عرفوه و ألفوه، لم تزل أطماعهم عنه. و لم يـدهشوا عنـد وروده عليهم، فكيف و قـد أمهلهم و فسـح لهم الوقت، و كان يدعو إليه سـنين كثيرة. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۸۲ و قال عز من قائل: أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جاءَكُمُ النَّذِيرُ «۱» و بظهور العجز عنه بعد طول التقريع و التحدى، بان أنّه خارج عن عادتهم، و أنهم لا يقدرون عليه. و قد ذكرنا أن العرب كانت تعرف ما يباين عاداتها من الكلام البليغ، لأن ذلك طبعهم و لغتهم، فلم يحتاجوا إلى تجربة عند سـماع القرآن. و هذا فى البلغاء منهم دون المتأخرين فى الصـنعة. و الذى ذكرناه بذلك على أنه لا كلام أزيـد فى قـدر البلاغـة من القرآن. و كل من جوز أن يكون للبشـر قدرة على أن يأتوا بمثله فى البلاغة لم يمكنه أن يعرف أن القرآن معجز بحال. و لو لم يكن جرى فى المعلوم أنه سيجعل القرآن معجزا، لكان يجوز أن تجرى عادات البشـر بقـدر زائـد على ما ألفوه من البلاغة، و أمر يفوق ما عرفوه من الفصاحة. و أما «نظم القرآن» فقد قال أصـحابنا فيه: إن اللّه تعالى يقدر على نظم القرآن فى الرتبـة التى لا مزيـد عليها، فقـد قال مخالفونا: إن هـذا غير ممتنع لأن فيه من الكلمات الشـريفة الجامعة للمعانى البديعة، و انضاف إلى ذلك حسن الموقع، فيجب أن يكون قـد بلغ النهايـة لأنه عنـدهم، و إن زاد على ما فى العادة، فإن الزائد عليها و إن تفاوت، فلا بد من أن ينتهى إلى حـد لا مزيـد عليه. و الـذى نقوله إنه لا يمتنع أن يقال: يقدر اللّه تعالى على أن يأتى بنظم أبلغ و أبدع من القرآن كله. و أمـــا قـــدرة العبـــاد فهى متناهيـــة فى كـــل مـــا يقـــدرون عليـــه ممـــا تصـــح قـــدرتهم عليـــه.

(______________________________ ۱) آيـة (۴۵) سـورة فـاطر. إعجـاز

القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۸۳

فصل: فى كلام النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و أمور تتصل بالإعجاز

فصل: فى كلام النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و أمور تتصل بالإعجاز إن قال قائل: إذا كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أفصح العرب، و قد قال هذا فى حديث مشهور، و هو صادق فى قوله، فهلا قلتم: إن القرآن من نظمه لقدرته فى الفصاحة على مقدار لا يبلغه غيره؟ قيل: قد علمنا أنه لم يتحداهم إلى مثل قوله و فصاحته، و القدر الذى بينه و بين كلام غيره من الفصحاء، كقدر ما بين شعر الشاعرين، و كلام الخطيبين فى الفصاحة؛ و ذلك مما لا يقع به الإعجاز. و قد بينا قبل هذا: أنا إذا وازنّا بين خطبه، و رسائله، و كلامه المنثور، و بين نظم القرآن، تبين من البون بينهما، مثل ما بين كلام اللّه عز و جل، و كلام الناس. و لا معنى لقول من ادعى أن كلام النبى صلّى اللّه عليه و سلّم معجز، و إن كان دون القرآن فى الإعجاز. فإن قيل: لو لا أن كلامه معجز لم يشتبه على ابن مسعود الفصل بين المعوذتين و بين غيرهما من القرآن. و كذلك لم يشتبه دعاء القنوت فى أنه هل هو من القرآن أم لا؟ و لا يجوز أن يخفى عليهم القرآن من غيره، و عدد السور عندهم محفوظ مضبوط. و قد يجوز أن يكون شذّ عن مصحفه، لا لأنه نفاه من القرآن، بل عوّل على حفظ الكل إياه. على أن الذى يروونه خبر واحد لا يسكن إليه فى مثل هذا، و لا يعمل عليه. و يجوز أن يكتب على ظهر مصحفه دعاء القنوت لئلا ينساه كما يكتب الواحد منا بعض الأدعية على ظهر مصحفه. و هذا نحو ما يذكره الجهال من اختلاف كثير بين مصحف ابن مسعود و بين مصحف عثمان رضوان اللّه عليهما. و نحن لا ننكر أن يغلط فى حروف معدودة، كما يغلط الحافظ فى حروف، و ينسى، ما لا نجيزه على الحفاظ مما لم نجزه عليه. و لو كان قد أنكر السورتين على ما ادعوا لكانت الصحابة تناظره على ذلك. و كان يظهر و ينتشر. فقد تناظروا فى أقل من هذا، و هذا أمر يوجب التكفير و التضليل. فكيف إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۸۴ يجوز أن يقع التخفيف فيه؟! و قد علمنا إجماعهم على ما جمعوه فى المصحف، فكيف يقدح بمثل هذه الحكايات الشاذة المولّدة بالإجماع المتقرر، و الاتفاق المعروف؟ و يجوز أن يكون الناقل اشتبه عليه، لأنه خالف فى النظم و الترتيب، فلم يثبتهما فى آخر القرآن. و الاختلاف بينهم فى موضع الاثبات غير الكلام فى الأصل. أ لا ترى أنهم قد اختلفوا فى أول ما نزل من القرآن. فمنهم من قال قوله: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ «۱»، و منهم من قال: يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ «۲» و منهم من قال: فاتحة الكتاب. و اختلفوا أيضا فى آخر ما أنزل فقال ابن عباس «۳»: إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ «۴» و قالت عائشة: سورة المائدة. و قال البراء «۵» بن عازب آخر ما نزل سورة براءة، و قال سعيد «۶» بن جبير آخر ما أنزل قوله تعالى: وَ اتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ «۷» و قال السّدّىّ آخر ما أنزل: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ «۸» و يجوز أن يكون فى مثل هذا خلاف، و أن يكون كل واحد ذكر آخر ما سمع. و لو كان القرآن من كلامه، لكان البون بين كلامه و بينه، مثل ما بين خطبة و خطبة ينشئها رجل واحد، و كانوا يعارضونه لأنا قد علمنا أن القدر الذى بين كلامهم، و بين كلام النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لا يخرج إلى حد الإعجاز، و لا يتفاوت التفاوت الكثير. و لا يخفى كلام من جنس أوزان كلامهم. و ليس كذلك نظم القرآن. لأنه خارج من جميع ذلك. فإن قيل: لو كان غير ما ادعيتم لعرفنا بالضرورة أنه معجز دون غيره، قبل معرفة الفصل من وزن الشعر و وزنه، و الفرق بينه و بين غيره من الأوزان إلى نظر و تأمل، و فكر و روية

(١) آية (١) سورة العلق. (٢) آية (١) سورة المدثر. (٣) سبقت ترجمته. (۴) آية (١) سورة النصر. (۵) البراء بن عازب أبو عمارة الأنصارى الأوسى الحارثى، استصغر يوم بدر فلم يشهدها، و شهد أحدا و ما بعدها، و شهد بيعة الرضوان. مات بعد سنة (۷۰). له ترجمة فى: الرياض المستطابة ص (۳۷). (۶) سعيد بن جبير بن هشام الأسدى. كان ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه، يقول: أ ليس فيكم ابن أم الدهماء؟ يعنيه. قتله الحجاج سنة (۹۲). له ترجمة فى: شذرات الذهب ۱/ ۱۰۸، و وفيات الأعيان ۱/ ۲۰۴، و تذكرة الحفاظ ۱/ ۷۶. (۷) آية (۲۸۱) سورة البقرة. (۸) آية (۱۲۹) سورة التوبة. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۸۵ و اكتساب .. و إن كان النظم المختلف الشديد التباين إذا وجد أدرك

اختلافه بالحاسة، إلاـ أن كل وزن و قبيل إذا أردنا تمييزه من غيره احتجنا فيه إلى الفكرة و التأمل. فإن قيل: لو كان معجزا لم يختلف أهل الملة فى وجه إعجازه؟ قيل: قد يثبت الشىء دليلا و إن اختلفوا فى وجه دلالة البرهان، كما قد يختلفون فى الاستدلال على حدوث العالم من الحركة و السكون، و الاجتماع و الافتراق. فأما المخالفون، فإنه يتعذر عليهم أن يعرفوا أن القرآن كلام اللّه؛ لأن مذهبهم أنه لاـ فرق بين أن يكون القرآن من قبل الرسول أو من قبل اللّه عز و جل فى كونه معجزا؛ لأنه إن خصه بقدر من العلم لم تجر العادة بمثله، أمكنه أن يأتى بما له هذه الرتبة. و كان متعذرا على غيره لفقد علمه بكيفية النظم. و ليس القوم بعاجزين عن الكلام، و لا عن النظم و التأليف. و المعنى المؤثر عندهم فى تعذر مثل نظم القرآن علينا: فقد العلم بكيفية النظم. و قد بيّنا قبل هذا أن المانع هو أنهم لاـ يقدرون عليه. و المفحم قد يعلم كيفية الأوزان و اختلافها، و كيفية التركيب. و هو لا يقدر على نظم الشعر. و قد يعلم الشاعر وجوه الفصاحة. و إذا قالا الشعر جاء شعر أحدهما فى الطبقة العالية و شعر الآخر فى الطبقة الوضيعة. و قد يطّرد فى شعر المبتدى و المتأخر فى الحذق القطعة الشريفة و البيت النادر، و مما لا يتفق للشاعر المتقدم. و العلم بهذا الشأن فى التفصيل لا يغنى، و يحتاج معه إلى مادة من الطبع، و توفيق من الأصل. و قد يتساوى العالمان بكيفية الصناعة و النّساجة، ثم يتفق لأحدهما من اللطف فى الصنعة، ما لا يتفق فى الآخر. و كذلك أهل نظم الكلام يتفاضلون مع العلم بكيفية النظم. و كذلك أهل الرمى يتفاضلون فى الإصابة، مع العلم بكيفية الإصابة. و إذا وجدت للشاعر بيتا أو قطعة أحسن من شعر امرئ القيس، لم يدل ذلك على أنه أعلم بالنظم منه. لأنه لو كان كذلك كان يجب أن يكون جميع شعره على ذلك الحد. و يحسب ذلك البيت فى الشرف و الحسن و البراعة، و لا يجوز أن يعلم نظم قطعة و يجهل نظم مثلها. و إن كان كذلك علم أن هذا لا يرجع إلى ما قدروه من العلم. أو لسنا نقول إنه يستغنى عن العلم فى النظم، بل يكفى علم به فى الجملة، ثم يقف الأمر على القدرة. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۸۶ و هذا يبين لك بأنه قد يعلم الخط فيكتب سطرا، فلو أراد أن يأتى بمثله بحيث لا يغادر منه شيئا لتعذّر. و العلم حاصل. و كذلك قد يحسن كيفية الخط، و الجيد منه من الردىء. و لاـ يمكنه أن يأتى بأرفع درجات الجيد. و قد يعلم قوم كيفية إدارة الأقلام، و كيفية تصور الخطّ. ثم يتفاوتون فى التفصيل، و يختلفون فى التصوير. و ألزمهم أصحابنا أن يقولوا بقدرتنا على إحداث الأجسام، و إنما يتعذر وقوع ذلك منا لأنا لا نعلم الأسباب التى إذا عرفنا إيقاعها على وجوه اتفق لنا فعل الأجسام. و قد ذهب بعض المخالفين إلى أن العادة انتقضت بأن أنزله جبريل، فصار القرآن معجزا لنزوله على هذا الوجه. و من قبله لم يكن معجزا. و هذا قول أبى هاشم، و هو الظاهر الخطأ، لأنه يلزم أن يكونوا قادرين على مثل القرآن، و إن لم يتعذر عليهم فعل مثله. و إنما تعذر بإنزاله، و لو كانوا قادرين على مثل ذلك، كان قد اتفق مع بعضهم مثله. و إن كانوا فى الحقيقة غير قادرين قبل نزوله و لا بعده على مثله فهو قولنا. و أما قول كثير من المخالفين فهو على ما بيّنا، لأن معنى المعجز عندهم تعذر فعل مثله. و كان ذلك متعذرا قبل نزوله و بعده. فأما الكلام فى أن التأليف، هل له نهاية؟ فقد اختلف المخالفون من المتكلمين فيه. فمنهم من قال: ليس لذلك نهاية، كالعدد، فلا يمكن أن يقال: إنه لا يتأتى قول قصيدة إلا و قد قيلت من قبل. و منهم من قال: إن ما جرت به العادة فله نهاية، و ما لم تجر به العادة فلا يمكن أن نعلم نهاية الرتبة فيه. و قد بيّنا أن على أصولنا قد تقرر لكلامنا حد فى العادة، و لا سبيل إلى تجاوزه، و لا يقدر. فإن القرآن خرق العادة فزاد عليها. فصل: إن قيل هل من شرط المعجز أن يعلم أنه أتى به من ظهر عليه؟ قيل: لا بد من ذلك. لأنا لو نعلم أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم هو الذى أتى بالقرآن و ظهر ذلك من جهته، لم يمكن أن يستدل به على نبوته. و على هذا، لو تلقى رجل منه سورة، فأتى بها بلدا و ادعى ظهورها عليه، و أنها معجزة له، لم تقم الحجة عليهم، حتى يبحثوا أو يتبينوا أنها ظهرت عليه. و قد تحققنا أن القرآن أتى به النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و ظهر من جهته، و جعله علما على نبوته، و علمنا ذلك ضرورة فصار حجة علينا. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۸۷

خاتمة

خاتمة قد ذكرنا فى الإبانة عن معجز القرآن وجيزا من القول، رجونا أن يكفى، و أمّلنا أن يقنع. و الكلام فى أوصافه إن استقصى بعيد

الأطراف، واسع الأكناف، لعلو شأنه، و شريف مكانه. و الذى سطرناه فى الكتاب، و إن كان موجزا، و أمليناه فيه، و إن كان خفيفا، فإنه ينبه على الطريقة، و يدل على الوجه، و يهدى إلى الحجة. و متى عظم محل لشىء فقد يكون الإسهاب فيه عيّا، و الإكثار فى وصفه تقصيرا. و قد قال الحكيم، و قد سئل عن البليغ، متى يكون عيبا؟ فقال: متى وصف هوى أو حبيبا. و ضلّ أعرابى فى سفر له ليلا و طلع القمر فاهتدى به، فقال: ما أقول لك؟ أقول: رفعك اللّه؟ و قد رفعك، أم أقول: نورك اللّه؟ و قد نورك، أم أقول: أجملك اللّه؟ و قد جملك! و لو لا أن العقول تختلف، و الأفهام تتباين، و المعارف تتفاضل، لم نحتج إلى ما تكلفنا. و لكن الناس يتفاوتون فى المعرفة، و لو اتفقوا فيها، لم يجز أن يتفقوا فى معرفة هذا الفن، أو يجتمعوا فى الهداية إلى هذا العلم لاتصاله بأسباب، و تعلقه بعلوم غامضة الغور، عميقة القعر، كثيرة المذاهب، قليلة الطلاب، ضعيفة الأصحاب، و بحسب تأتّى مواقعه، يقع الإفهام دونه. و على قدر لطف مسالكه، يكون القصور عنه. أنشدنى أبو القاسم الزعفرانى قال: أنشدنى المتنبى لنفسه، القطعة التى يقول فيها: و كم من عائب قولا صحيحا و آفته من الفهم السقيم و لكن تأخذ الآذان منه على قدر القرائح و العلوم و أنشدنى الحسن بن عبد اللّه قال: أنشدنا بعض مشايخنا للبحترى: أهزّ بالشعر أقواما ذوى سنة لو أنهم ضربوا بالسيف ما شعروا علىّ نحت القوافى من مقاطعها و ما علىّ لهم أن تفهم البقر فإذا كان نقد الكلام كله صعبا، و تمييزه شديدا، و الوقوع على اختلاف فنونه متعذرا، و هذا فى كلام الآدمى. فما ظنك بكلام رب العالمين؟ إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۸۸ قد أبنّا لك أن من قدّر أن البلاغة فى عشرة أوجه من الكلام، لا يعرف من البلاغة إلا القليل، و لا يفطن منها إلا اليسير. و من زعم أن البديع يقتصر على ما ذكرناه من قبل عنهم فى الشعر، فهو متطرّف. بلى إن كانوا يقولون إن هذه من وجوه البلاغة و غرر البديع، و أصول اللطيف. و إن ما يجرى مجرى ذلك و يشاكله ملحق بالأصل و مردود على القاعدة. فهذا قريب. و قد بيّنا فى نظم القرآن أن الجملة تشتمل على بلاغة منفردة، و الأسلوب يختص بمعنى آخر من الشرف. ثم الفواتح و الخواتم، و المبادى و المثانى، و الطوالع و المقاطع، و الوسائط و الفواصل. ثم الكلام فى نظم السور و الآيات، ثم فى تفاصيل التفاصيل. ثم فى الكثير و القليل، ثم الكلام الموشح و المرصع، و المفصّل و المصرّع، و المجنس و الموشى، و المحلى و المكلل، و المطوق و المتوج، و الموزون و الخارج عن الوزن، و المعتدل فى النظم و المتشابه فيه. ثم الخروج من فصل إلى فصل، و وصل إلى وصل، و معنى إلى معنى، و معنى فى معنى، و الجمع بين المؤتلف و المختلف، و المتفق و المتسق، و كثرة التصرف، و سلامة القول فى ذلك كله من التعسف، و خروجه عن التعمق و التشدق، و بعده عن التعمل و التكلف. و الألفاظ المفردة و الإبداع فى الحروف و الأدوات، كالإبداع فى المعانى و الكلمات. و البسط و القبض، و البناء و النقض، و الاختصار و الشرح، و التشبيه و الوصف، و تميز الإبداع من الاتباع؛ كتميز المطبوع عن المصنوع. و القول الواقع عن غير تكلف، و لا تعمّل. و أنت تتبينه فى كل ما تصرف فيه من الأنواع أنه على سمت شريف، و مرقب منيف، يبهر إذا أخذ فى النوع الربى، و الأمر الشرعى، و الكلام الإلهى الدال على أنه يصدر عن عزة الملكوت، و شرف الجبروت، و ما لا يبلغ الوهم مواقعه من حكمة و أحكام، و احتجاج و تقرير و استشهاد، و تقريع و إعذار و إنذار، و تبشير و تحذير و تنبيه، و تلويح و إشباع و تصريح، و إشارة و دلالة، و تعلم أخلاق زكية، و أسباب رضية، و سياسات جامعة، و مواعظ نافعة، و أوامر صادعة، و قصص مفيدة، و ثناء على اللّه عز و جل بما هو أهله، و أوصاف كما يستحقه، و تحميد كما يستوجبه، و أخبار عن كائنات فى التأنى صدقت، و أحاديث عن المؤتنف تحققت، و نواه زاجرة عن القبائح و الفواحش، و إباحة الطيبات و تحريم المضار و الخبائث، و حث على الجميل و الإحسان. إعجاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۸۹ تجد فيه الحكمة و فصل الخطاب، مجلوة عليك فى منظر بهيج، و نظم أنيق، و معرض رشيق، غير متعاص على الأسماع، و لا متلو على الأفهام، و لا مستكره فى اللفظ و لا متوحش فى المنظر غريب فى الجنس، غير غريب فى القبيل، ممتلئ ماء و نضارة و لطفا و غضارة، يسرى فى القلب كما يسرى السرور، يمر إلى مواقعه كما يمر السهم، و يضىء كما يضىء الفجر، و يزخر كما يزخر البحر، طموح العباب، جموح على المتناول المنتاب، كالروح فى البدن، و النور المستطير فى الأفق، و الغيث الشامل، و الضياء الباهر. لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ «۱». من توهم أن الشعر يلحق شأوه بان ضلاله. و صح جهله. إذ الشعر سمت قد تناولته الألسن، و

تـداولته القلوب، و انثالت عليه الهواجس، و ضـرب الشـيطان فيه بسـهمه، و أخـذ منه بحظه. و ما دونه من كلامهم، فهو أدنى محلا، و أقرب مأخذا، و أسهل مطلبا. و لذلک قالوا: فلان مفحم، فأخرجوه مخرج العيب. كما قالوا: فلان عيى، فأوردوه مورد النقص. و القرآن كتاب دل على صدق متحمله، و رسالة دلت على صـحة قول المرسل بها، و برهان شـهد له برهان الأنبياء المتقدمين. و بينة على طريقة من سـلف من الأولين، حيرهم به إذا كان من جنس القول الـذى زعموا أنهم أدركوا فيه النهاية. و بلغوا فيه الغاية. فعرفوا عجزهم، كما عرف قوم عيسى نقصانهم. فيما قدروا من بلوغ أقصـى الممكن فى العلاج، و الوصول إلى أعلى مراتب الطب. فجاءهم بما بهرهم من إحيـاء الموتى، و إبراء الأـكمه و الأبرص. و كما أتى موسـى بالعصا التى تلقفت ما دققوا فيه من سـحرهم، و أتت على ما أجمعوا عليه من أمرهم. و كمـا سـخّر لسليمان من الريـاح و الطير و الجن حين كانوا يولعون بـدقائق الحكمـة، و بـدائع من اللطف. ثم كانت هـذه المعجزة مما يقف عليه الأول و الآخر وقوفا واحـدا. و بقى حكمها إلى يوم القيامـة. انظر وفقک اللّه لما هديناک إليه، و فكر فى الذى دللنـاک عليه، فـالحق منهـج واضـح، و الـدين ميزان راجـح، و الجهل لا يزيـد إلا غما، و لا يورث إلا نـدما. قال اللّه عز و جل: قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ «۲» و قال: وَ كَذلِکَ أَوْحَيْنا إِلَيْکَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتـابُ وَ لَـا الْإِيمـانُ وَ لكِـنْ جَعَلْنـاهُ نُـوراً نَهْـدِى بِـهِ مَـنْ نَشـاءُ مِـنْ عِبادِنـا «۳» و قـال: يُضِـلُّ بِـهِ كَـثِيراً وَ يَهْـدِى بِهِ

(______________________________ ۱) آيـة (۴۲) فصـلت. (۲) آيـة (۹) سورة الزمر. (۳) آية (۵۲) سورة الشورى. إعجـاز القرآن(الباقلانى)، ص: ۱۹۰ كَثِيراً «۱» على حسب مـا آتى من الفضل، و أعطى من الكمال و العقل، تقع الهدايـة و التبيين. فإن الأمور تتم بأسـبابها، و تحصل بآلتها، و من سـلبه التوفيق و حرمه الإرشاد و التسديد فكأنما: خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيـحُ فِى مَكانٍ سَحِيقٍ «۲» لا يسـتطيعون حيلـة و لا يهتدون سبيلا فاحمد اللّه على ما رزقک من الفهم إن فهمت. و قـل: رَبِّ زِدْنِى عِلْمـاً «۳» و قـل: رَبِّ أَعُوذُ بِـکَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ «۴» و إن ارتبت فيمـا بيناه فازدد فى تعلم الصـنعة، و تقدم فى المعرفة الأرشد، و يقف بک على الوجه الأحمد. فإنک إذا فعلت ذلک أحطت علما، و تيقنت فهما. و لا يوسوس إليک الشيطان بأنه قـد كان من هو أعلم منک بالعربيـة، و أرجـح منک فى الفصاحة أقوام و أقوام، و رجال و رجال، فكذبوا و ارتابوا لأـن القوم لم يـذهبوا عن الإعجـاز. و لكن اختلفت أحوالهم، فكانوا بين جاهل و جاحـد. و بين كافر نعمـة و حاسـد، و بين ذاهب عن طريق الاسـتدلال بالمعجزات، و حائد عن النظر فى الدلالات، و ناقص فى باب البحث، و مختل الآلة فى وجه الفحص، و مستهين بأمر الأديان، و غاو تحت حبالة الشيطان، و مقذوف بخذلان الرحمن. و أسباب الخذلان و الجهالة كثيرة، و درجات الحرمان مختلفة. و هلا جعلت بإزاء الكفرة مثل: «لبيـد «۵» بن ربيعـة العـامرى» فى حسن إسـلامه، و «كعب «۶» بن زهير» فى صـدق إيمـانه، و «حسان «۷» بن ثابت» و غيرهم من الشـعراء و الخطباء الذين أسلموا؟ على أن الصدر الأول ما فيهم إلا نجم زاهر، أو بحر زاخر. و قد بينا أن لا اعتصام إلا بهدايـة اللّه، و لا توفيق إلا بنعمـة اللّه، ذلِکَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ «۸»، فتأمّل ما عرّفناک فى كتابنا، و فرغ له قلبک، و اجمع له لبک، ثـم اعتصـم بـاللّه يهـدک، و توكـل عليـه يغنـک و يجرک، و استرشـده يرشـدک، و هـو حسبى و حسـبک و نعـم الوكيـل.

(______________________________ ۱) آيـة (۲۶) سـورة البقرة. (۲) آية (۳۱) سورة الحـج. (۳) آيـة (۱۱۴) سـورة طـه. (۴) آيـة (۹۷) سـورة المؤمنـون. (۵) سـبقت ترجمتـه. (۶) كعب بـن زهير، كـان من المخضـرمين، و كـان هجا الرسول صـلّى اللّه عليه و سلّم، ثم أسـلم و مـدحه. مات سـنة (۲۴ ه). له ترجمـة فى: الأغـانى ۱۵/ ۱۴۷. و الجمهرة (۱۴۸)، و الشعر و الشعراء (۵۸، ۶۷). (۷) سبقت ترجمته. (۸) آية (۴) سورة الجمعة.

تعريف المركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِـدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِـكُمْ فى سَبيـلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُـونَ (التوبـة/۴۱). قـالَ الإمـامُ علىّ بْنُ موسَـى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللَّهُ عَبْـداً أحْيَـا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَـنـادِرُ البِـحار – فى

تلخیص بحار الأنوار، للعلاّمة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷. مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة "الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی – "رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم. مرکز "القائمیّة "للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة... الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و... - مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَی. - من الأنشطة الواسعة للمرکز: الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و... د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴) ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و... ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع "مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع "پنج رَمَضان" ومُفترَق "وفائی/"بنایة "القائمیّة "تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة) رقم التسجیل: ۲۳۷۳ الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶ الموقع: www.ghaemiyeh.com البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱) الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱) مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱) التّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹ امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱) ملاحَظة هامّة: المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.